غـادة السـمّان

الأعمال غير الكاملة

١٠

كتابات غير ملتزمة

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان
ص.ب ١١١٨١٣
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩
فاكس ٣٠٩٤٧٠

الطبعة الأولى
حزيران (يونيو) ١٩٨٠
الطبعة الثانية
حزيران (يونيو) ١٩٨٥
الطبعة الثالثة
آذار (مارس) ١٩٩٥

مصارحة

١ — هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هناك من يهمه ذلك .

كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ — ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرها .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها (حرب ما) ثانية أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقي مرة أخرى ... ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها — وهي قد تكون أو لا تكون كذلك — ولكن بالدرجة الأولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! .. فهي جزء من ماضيّ الكتابي ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما انه لا يمكن تبنّيه كلية .. وبطبعها، سيكون لي في بيت كل قارىء عربي من قرائي ملجأ يحمي حروفي من الابادة .. وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ — ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة — إلا فيما ندر — وليست من هذه الندرة . أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني الذي كتبت فيه . لحظة كتبتها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ — أعتقد أن العمل الفني كالخطيئة ، لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبدل شيئاً يذكر . فالكلمة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين وإلى الأبد . هذا بالإضافة إلى أنني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا معناه —

لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه — أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبي (!) وهو أمر مستحيل وخارج عن طاقة البشر .

٤ — اللمسات القليلة التي أدخلتها في بعض السطور لم تكن تحويراً في جوهرها بقدر ما كانت محاولة لمزيد من الاقتراب من جوهرها الأصلي .

٥ — « الأعمال غير الكاملة » هو الاسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الأعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري — مهما كان مبدعاً — هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص — أي مختارات من أعمالي — (ما عدا أعمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن — كما أتصور — في كتابة القصة) .

ثم إن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً إلى كتابة الأفضل ، ويخيل إلي أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! ...

غادة السمان

الساعة ٥,٣٧ فجر ٧ — ٩ — ٧٨

اهداء

الى الذين عشقوا (الالتزام)
ولكن لم يتزوجوه!...
الى رفاقي
في "حزب البحث عن الحقيقة" --
المنفتحين على رفاقهم
في بقية الأحزاب..!

غاده

٢٠ / ٨ / ١٩٧١

الناس لا تبتسم بمرسوم !

صدر قرار عن وزارة إعلام عربية يقضي بمنع نشر ما سماه القرار « الأدب المظلم » أو « الأدب الانهزامي » في جميع الصحف والمجلات .

سادتي . هذا ليس خبراً . هذه بطاقة نعوة .

بطاقة نعوة ملصقة على جبين كل أديب عربي يستطيع أن يمر بهذا القرار ببساطة ، ويتركه ينزلق على أعماقه كما تنزلق قطرات المطر على الزجاج الميت دون أن تترك خدوشاً أو بصمات .

هذه بطاقة نعوة يجب أن نشهر أقلامنا خناجر في وجهها .

إنها دعوة إلى كربلاء فكرية يذهب ضحيتها الاديب العربي المعاصر ... هذه الدعوة إلى سفك دم ما اسموه « الادب المظلم » تكفي وحدها مسوّغاً لخلق موجة من « الأدب المظلم » تعكس واقع الاديب العربي أمام سلطات ما تزال تتوهم أن الكاتب يجب أن يكون موظفاً عند النظام ولا تعي أن الكاتب هو الذي يجب أن يساهم في توجيه النظام ، وأن النظام الواعي هو الذي يستلهم كتابه الاحرار ليرى على ضوء شهاداتهم الصادقة موقع خطواته ... وأن الاديب هو بوصلة النظام ، وليس النظام القائم — في عصر ما في مكان ما — هو نجم القطب الفكري للكُتّاب المعاصرين لذلك النظام . أجل هذا ليس خبراً ، إنه بطاقة نعوة ... ولكنها بطاقة لا تنعى الادب فحسب ، وانما تنعى الفكر — غير المسؤول — المسؤول عن اصدارها ...

إن القرار بمنع نشر الادب « المظلم والانهزامي » قرار مظلم وانهزامي . انه مظلم لأنه من بعض مواقف (العصور الوسطى المظلمة) من حريات الفرد بصورة عامة وحرية الأديب بصورة خاصة ... (من المفروض أن الثورات تقوم عادة باسم الدفاع عن هذه الحريات وانقاذ الإنسان من العصور المظلمة ...) ومن المفجع المفجع أن يصدر مثل هذا القرار عن نظام عربي يعلن الثورية ويتبنى كليشيهاتها في كل مناسبة

خطابية ... أقول المفجع وأرددها كرجع الصدى لانني أشعر انني أصرخ امام واد من الخواء ... ارددها بالحماس نفسه الذي تعالت به صرخاتي — كان يا ما كان — كلما سمعت عبر مذياع ما بلاغ رقم واحد ما وتوهمت كسواي أن الثورة جاءت لتكسر حزام العفة الفكري الذي طالما سجنت (اللاثورية) به أقلام الكتاب ... بالنسبة إلى الاديب ليس مهماً أن يكون اللجام من صنع الصين أو واشنطن...وليس مهماً باسم ماذا يحرم من حق الصدق في كل ما يكتب ... بالنسبة اليه الثورة = الحرية . وكل ما يتحايل لخنق حرياته ليس ثورياً — خصوصاً إذا كان ذلك التحايل باسم الثورة ، وبحسن نية ! ذلك ما يعطي كلمة الفجيعة أبعادها الإنسانية : حسن النية . والسذاجة . أجل هذا قرار ساذج . وقد تكون السذاجة صفة جميلة حينما تتحلى بها المراهقات ، لكنها تصير (مطباً) خطيراً حينما تتصف القرارات الرسمية بها ...

وهذا الفرمان بمنع « الأدب المظلم » ساذج ! ... وهذه في نظري أخطر تهمة توجه اليه ، (ولا استطيع أن أقرر فيما إذا كانت مضار الثورة الساذجة أكثر من مضار الرجعية الذكية أم لا ! ...) أجل ، هذا القرار إما انه ساذج وتلك مصيبة أو انه يتظاهر بالسذاجة من أجل خنق حرية الفكر (والمصيبة أعظم !) . وبحث الأمر عملياً هو الذي يقودني إلى ما أقول . عملياً ، ستكون هنالك (سلطة ما أو هيئة ما ، أي رقيب ما) يتولى فرز الأدب إلى (أدب سلبي) يرمي به إلى سلة المهملات — وربما بصاحبه إلى السجن أو الفقر أو اضطهاد ما — و (أدب متفائل) غير سلبي يتم نشره . وهنا المهزلة ، إذ ، من الذي يستطيع أن يعطي تحديداً واضحاً لمعنى كلمـة « أدب سلبي » و « أدب غير سلبي » ؟ الذي أعرفه ان هنالك أدباً جيداً أو « لا أدب » . فهل يعتبر الرقيب مثلاً كليشيهات المديح بالثورة الخطابية السطحية التي ألفنا سماعها من نوع « الأدب المتفائل » وهي قد تكون ثرثرة متفائلة ولكنها ليست أدباً على الاطلاق ؟ ... وهل يتم إطلاق الرصاص على نتاج أدبي يحكي مأساة الفرد العربي في بعض أقطاره الممزق بين تخلف ثوريته كواقع وخيبته بها كحلم ، لمجرد انه يروي حقيقة شعور الفرد العربي ويرسم للحاكم صورة صادقة عما يدور في ضمير الشعب وما يحس به من مشاعر نحو الذين ركبوا موجاته النفسية ولكنهم ما كادوا يصلون إلى زورق الحكم حتى بدأوا يتجهون ضد تيارات رغباته الحقيقية ؟ ... ثم ، من هو الرقيب عادة ؟ (عذراً من الرقيب الذي يقرأ الآن هذه الكلمات وتصير عيناه ضوءين أحمرين في درب كلماتي) ... الرقيب هو غالباً موظف مخلص وليس مبدعاً . الموظف المثالي

مرتبط بزمان ومكان وتعليمات معينة وعظمته أن ينفذها باخلاص ! أما الفنان المثالي فيتجاوز زمانه ومكانه وعظمته أن يتجاوز القوانين الموضوعة ليمنح الإنسانية رؤيا جديدة للحقيقة ، رؤيا تتجاوز معاصريه ، وحتماً تتجاوز التعليمات الموجودة لدى الرقيب ! .

إذن تنفيذ مثل هذا القرار هو إما عملية ساذجة رغم نازيتها الفكرية ، أو انها كربلاء فكرية تتخذ من الثورة ستاراً وحجة ... ومطلوب من مسؤولي القطر الشقيق الذين يفترض فيهم أن يكونوا درعاً للحرية — ما داموا يحكمون تحت شعارات الثورية — مطلوب منهم أن يطبقوا قرارهم ولكن بطريقة معاكسة — كي يكون قرارهم ثورياً ! ... المطلوب أن يمنعوا الادب السيء ، فالأدب الرخيص الدجال المغرض الخطابي الاستغلالي هو الأدب المظلم بالمعنى الحقيقي للكلمة أياً كانت كليشيهاته وموضوعاته . فالرخص هو الظلام الحقيقي . ومطلوب منهم أن يشجعوا الأدب الصادق ، الأدب الجيد لأن الأدب الجيد هو الأدب المضيء أياً كان مضمونه...

وهل يمكن لأدب صادق في مرحلتنا العربية المظلمة هذه إلا أن يكون حزيناً بعض الشيء بلا نفاق ، ملتزماً بالصدق أي بتفاؤل غير مبالغ ببشاشته ؟ .

إلى حكام ذلك القطر أقول : الناس لا تستطيع أن تبتسم بمرسوم . والأديب لا يستطيع أن يكون متفائلاً بفرمان ... وليس في حياتنا ما يدعو للابتسام — إلا الابتسام سخرية من قرارات كهذه ! — إن مرسوماً كهذا ، إذا لم يكن ساذجاً ، فهو مغرض ، الغاية منه خنق أي صوت صادق وأي شاهد حر تحت ستار « حماية الثورة » ..

وحينما يتم اضطهاد الفكر تحت ستار حماية الثورة ، فان الثورة على مرتدي قناع الثورة تكون عنيفة بقدر حجم الاضطهاد ... ولكن ، ترى هل الخطأ الاساسي هو في أننا نستورد الثورات بدلاً من أن نستلهمها ؟ .

ولماذا لا يستفيد عالمنا العربي من تجربة جدانوف المخزية في محاولة كبح جماح حرية الفكر ؟ ..

ولماذا لا يقرأ مسؤولونا كتاب البرتو مورافيا عن « الثورة الثقافية في الصين » ليتجنبوا السقوط في الهوة التي تفصل بين الالزام والالتزام ؟ ...

ولماذا يعتبر أدباً مظلماً أن يقول كاتب ما الحقيقة ومن بعضها القول : ان ما يدور في بعض بلادنا العربية من فظائع تحت ستار الثورية يدفع بأي ثوري حقيقي إلى الصراخ « أنا لست ثورياً » على طريقة ماركس الذي صرخ ذات مرة وما زال صوته

يدوي « أنا لست ماركسياً ! » .

تبقى كلمة أخيرة ... وهي انني لا أحب أن أفوت على مرتزقة الفكر فرصة (تبييض وجوههم) أمام رؤسائهم ومأموريهم حين يهبون — كعادتهم — للرد عليّ ، (لكنني سأفوت عليهم فرصة دعائية بعدم ذكري لاسمائهم !) ... ولست ضد أن يقبضوا (شيكاً) ما مقابل صفقة خاسرة باعوا فيها بصيص موهبة خافتة مقابل الدفاع عن قضايا خاسرة — أجل اشفق عليهم واتمنى أن أهاجم دوماً لاعطيهم فرص الرد علي والكسب من وراء ذلك (وهم الخاسرون الكبار القابضون الصغار) ولكنني هذه المرة أعرف أن ردهم سوف يكون حومـــاناً ودوراناً حول فكرة معنى « الأدب المظلم » و« الأدب الانهزامي » وأصرخ في وجوههم منذ الآن : المبدأ مرفوض من أساسه ... مبدأ مراقبة الادب ، وتصنيف الأدب ، واعطاء مواصفات خاصة للأدب كما لو كان (طبق الاسبوع) في أحد المطاعم ... وإبادة أي كلمة مبدعة مرفوضة تحت أي عذر . أجل ، المبدأ مرفوض .. فالحكم النهائي على الأدب هو للاجيال لا للحكام ... والأدب الجيد هو أدب مضيء مهما كان مظلماً .

والتفاهات انهزامية مهما كانت كليشيهاتها وألفاظها وشهادات التزكية الحكومية التي تحملها ... أما مرتزقة الفكر ، فليوفروا على انفسهم عناء الرد وليوفروا على خزينة القطر العربي هذه المرة الثمن ، ولتصل كلماتي هذه كالرمح النقي إلى صدر مسؤول عربي تعب من تملق المزيفين ، ليعي ان فيها غضب المحب الصادق الذي لا يعرف الرياء ولا المداهنة ... ولن ... بأي ثمن .

وانه من المطلوب بأي ثمن العودة عن هذا القرار وتصحيح هذا الخطأ . وعذراً لأن أبجديتي لا تعرف كيف تبتسم بمرسوم .

١٣ / ٥ / ١٩٧٤

أيها الشعراء ، لا تمدحوا !

أشعر بقرف مشوب بالذل والقهر كلما قرأت قصيدة لشاعر ، أو نثراً لأديب يمتدح فيه أي حاكم بغض النظر عما إذا كان ذلك الحاكم أو المسؤول الكبير يستحق المديح أم لا ...

اني ضد المبدأ ... فمدح الحكام وإسباغ صفات أرباب اليونان عليهم يجعلهم ضيقي الصدر بالنقد ... والكاتب الذي يعودهم على التقريظ هو إنسان مؤذٍ لأنه يشارك في تنمية طبع خطر لدى الحاكم ، فيصبح ضيق الصدر بأي انتقاد يوجه اليه ، حتّى ولو كان موجهه على حق . فلدى الإنسان الحاكم بصورة عامة ميل دائم إلى السقوط في النرجسية وتصديق ملق الحاشية واصحـــاب المصالح من ذوي النفوس الصغيرة ، خصوصاً وأن القوانين والمؤسسات كلها تحمي سلطانه من أي نقد مباشر قاس ...

ودور الفنان مع الحاكم يجب أن لا يكون كدور المهرجين أو حتّى المستشارين ... وحينما تمتدح الحاشية جمال اثواب السلطان وبهاءها وحسنها ، فان الفنان يجب أن يظل وحده الخارج على التدجين ، القادر على أن يصرخ بملء حنجرته في كل وقت : « ولكنك عار أيها السلطان ! » وأن يصرخها حتّى ولو غرسوا رمحاً في حنجرته .

إن نزوات بعض الشعراء والكتاب في مدح السلطان هي « الشذوذ » الذي لا يغتفر في نظري ! فأبشع أنواع « الشذوذ » هو « الشذوذ الفني والفكري » ! .

١ / ٦ / ١٩٧٧

كيف عشت موتي ؟!!

طالعت مقالاً لأستاذنا فكري أباظة « كيف عشت حياتي » وقرأت نصيحته الثمينة للأدباء الشبان بالاعتدال في الطعام والشراب وفي تعاطي الهموم وذلك كي يعيشوا عمراً مديداً كعمره .

لكنني أيضاً فكرت بحزن : إن هذا السؤال « كيف عشت حياتك ؟ » لا يمكن طرحه — للأسف — إلا على الأحياء المعمرين . ولكن ماذا لو استطعنا طرحه على أحد المبدعين الذين لم يعيشوا حياتهم وإنما ماتوا مبكراً وهم في أوج عطائهم ، وما أكثرهم في عالمنا العربي ؟ .

وتدفقت في قلبي صور عشرات من المبدعين العرب ، الذين قضوا في شرخ شبابهم الفني ... ان أحداً لم يسألهم : لماذا مت مبكراً ؟ من قتلك ؟ وكيف عشت موتك ؟ عشرات من الذين لم تتح لهم الفرصة للاعتدال في الطعام والشراب والهم ، لأنهم ربما قضوا جوعاً وعطشاً بعد وجبة من الهم لا اعتدال فيها . أتخيل أنني أحاور أحدهم بعد أن أخرجته من قبره . لا تسألوني من بالضبط . ليستحضر كل منكم في ذاكرته اسم فنان عربي مات في ذروة شبابه الجسدي والفني . وما أكثرهم في أكثر من قطر . (لن أعدد الأسماء لأن المقصود من هذا البوح ليس التشهير ببعض مجتمعاتنا التي تهدر مبدعيها وانما التحريض على حفظ من تبقى منهم أحياء ، ومن سيولد منهم فيما بعد) ...

سيخرج إلي الفنان الذي تخيلت أنني أحاوره من قبره ، وسيحدثني كيف عاش موته . كيف مات عشرات المرات خلال حياته . سيحدثني عن ظاهرة إهمال العرب بصورة عامة لمبدعيهم أحياء وحرصهم على تكريمهم أمواتاً.سيروي لي حكاية موته الأول وموته الثاني وموته الثالث وموته الرابع وقيامته كل مرة من رماده ، ثم سيروي لي حكاية موته الأخير حين انفجر بطريقة ما : مريضاً أو منتحراً أو مقتولاً ..

أفكر أيضاً بمئات الموهوبين العرب الذين لم تتح الفرص ليخبرونا « كيف عاشوا حياتهم » لأنهم وببساطة لم يعيشوا حيـــاتهم ! لم يولدوا ! أجهضت موهبتهم قبل أن تولد . تم اغتيالها في ظلام اللامبالاة والهدر والقمع أو تحت أضواء الجري وراء العيش بسلام النباتات .

اسألوا الأديب العربي كيف عاش حياته . ولكن اسألوه أيضاً : كيف عاش موته

٢٢ / ٦ / ١٩٧٣

.. ما بعد الموت كتابة !

نحن شعب يعجب بعظمائه بعد وفاتهم . يكرمهم بعد لفهم بالكفن ... وربما حين يتأكد من أنهم يحتضرون ، وليس قبل ذلك .

حينما يموت كاتب ما ، تمتلىء الصحف بكلمات رثاء (الاصدقاء) له ، الاصدقاء الذين كان اضطهادهم له حياً من أبرز أسباب سقوطه ميتاً ! ...

فجأة ، يكتشف الجميع محاسن الفقيد ... عظمة أدبه ... عبقرية أسلوبه ... خلود مدرسته ، حتى ليتساءل القارىء : ترى ألا يقرأ نقادنا لكاتب إلا بعد وفاته ؟ ...

أما الادباء الذين لم يشملهم الموت برحمته ، فنجدهم باستمرار يعيشون جواً من المهاترات والمشاجرات : مشاجرات علنية في الصحف ومهاترات في الاحاديث الصحفية ، وهمسات وشائعات في الاوساط الادبية ...

لا ينقضي يوم إلا ويدب الخصام في سوق عكاظنا العربية المعاصرة حتى لكأننا حضانة للمتخلفين عقلياً ، لا في منافسة مضيئة من أجل عطاء « الحرف — النجم » الذي يخلد ...

لا ينقضي يوم إلا ونقرأ في الصحف هجوماً لفنان على آخر ... وإذا امتدح أديب أديباً آخر ، فلكي يغيظ أديباً ثالثاً ! ...

في هذه الفوضى التهريجية في غمرة التهجمات المتبادلة غير البناءة ، أجدني أهرب بذاكرتي إلى الصداقات الادبية الرفيعة التي طالما ربطت كبار أدباء الغرب ببعضهم بعضاً ...

أذكر ان الشاعر « بايرون » حاول الانتحار حين بلغه نبأ موت زميله الشاعر « شيللي » . وان « شيللي » استضاف الشاعر الناشىء « كيتس » في بيته بروما ، واحتضنه ، وبعد موتهما تحول ذلك البيت الصغير المطل على (الدرج الاسباني) في أجمل أحياء روما إلى متحف يضم أوراقهما وصورهما وصفحات شعرية كتبت

بخطهما ، وها هما في رحم الموت يرقدان توأماً من العطاء والحب ، ويحج عشاق الأدب إلى مزارهما هذا ، المسمى (كيتس وشيللي ميموريال) ...

لماذا نجد أن مثل هذه الصداقات لدى أدباء الغرب هي القاعدة ، والخصام هو الشواذ ؟ ... ولماذا نجد العكس في بلادنا ؟ ...

هل هي عقدة « امير الشعراء » لدى العرب ؟ ... والفكرة الخاطئة بأن رجال الأدب كأحصنة السباق . ولا يفوز إلا حصان واحد في النتيجة ؟ ...

فكرة أمارة الشعر مهترئة ، خاطئة ، ولكن يبدو ان الكتاب العرب سقطوا فريسة بدعة « أمير الشعراء » ، « المنصب الرسمي » الذي لا يعبر بحق عن أي قيمة أدبية ...

قليلاً من الحب هو ما يفتقر اليه جونا الادبي الذي يكتب كثيراً عن الحب ..

قليلاً من الحنان على إبداع بعضنا بعضاً — إن وجد ، إذ كيف يمكن لمبدع أن يتحامل ويكره ؟ — ... قليلاً من الحنان على سقطاتنا ...

أليس مخجلاً أنه لو دفن أي أديبين عربيين معاً ، لقامت مشاجرة في القبر ولتحولت المقبرة إلى حلبة مصارعة ؟ ...

٢١ / ١ / ١٩٧٤

شهية الافتراس

شهر من التنقل بين العواصم العربية ، شهر من اللقاء مع مختلف الاصدقاء الكتاب والصحافيين ، خرجت بعده قانعة بأن مأساة المثقف العربي ليست فقط مع السلطة أو مع الحرية أو مع المعاناة الذاتية والخلق ، بل هي أيضاً أزمة محبة .

أجل ، محبة .

تلك هي الكلمة .

الملاحظة العامة التي خرجت بها من لقائي مع عشرات المثقفين العرب هي افتقارهم إلى الحنان في النظرة إلى الآخرين من رفاق القلم ...

ان شهية الافتراس بين « الزملاء » أقوى من الشهية إلى اكتشاف الحقيقة ، أو على الأقل إلى الاقرار بأننا لا نعرف عن الآخرين الا تفسيرنا الخاص لبعض سلوكهم الخارجي الذي يتصادف اننا أخذنا علماً ببعضه .

لو أردت ذكر امثلة محددة لما انتهيت ، ولما بقي لي صديق ...

فالجو الصحافي والادبي العربي مشحون بظاهرة النميمة وتشويه الآخرين وافتراسهم أكثر من أجواء ثرثارات القرى العجائز ، وأكثر من أي جو مهني آخر ...

أجواء الاطباء والمحامين — أو أي حرفة أخرى — لا تخلو من بعض « النميمة » بالآخرين ، ولكنهم يبدون « أميين » في هذا المجال إذا ما قورنوا بما يدور في أجواء المثقفين . والخطر في هذه الظاهرة انها تتسبب أحياناً في « قطع رزق » بعضهم واستعداء السلطة عليهم ، إن لم أقل تدميرهم الذاتي .

ولما كان المثقف هو الذي يستعمل اللغة معولاً للبحث عن الحقيقة ، لا رفشاً لحفر قبور للآخرين ، ولما كان يبرع في استخدام هذه الأداة (اللغة) ، فهي تتحول في يده إلى سلاح فتاك حين يخلو قلبه من المحبة ، وتخلو نظرته إلى ضعف الآخرين (وربما سقطاتهم) من الحنان .

قليلاً من المحبة ... ولمسة حنان في تقييم الآخرين قد تنقذ رفاقاً كثيرين ، فالفنان الصلب كصخرة هو أحياناً هش تكسر قلبه ونفسه كلمة . وتنفيه إلى وديان الجنون والغربة .

إن « عداوة الكار » بين الادباء يجب أن لا تتحول إلى انياب سامة سوداء ...

أعرف انني في هذه الكلمات قد أبدو مثل واعظ بلا جمهور في كنيسة مهجورة ، لكن الذين ينادون بالمحبة كانوا دوماً كذلك ! .

٢٥ / ٢ / ١٩٧٤

حذار من لقاء كاتبك المفضل !

الاديب الفرنسي اندريه مالرو بدا سعيداً جداً في فندق « ميريديان » حين تسلم الجائزة من رئيس الجمهورية. لم تكن الجائزة مكافأة له على كتاب وانما على قط ! بالضبط ، فاز قطه «تالي» بالجائزة الاولى لأجمل هر من بين ٥٠٠ هر ،وقد احتضن مالرو هره بعد الفوز وبدت في عينيه نظرة انتصار وفرح ...

الخبر عادي لأنه في كل يوم تجري عشرات من سباقات الجمال بين القطط والكلاب والفئران والنساء والأرانب ... لكن غير العادي هو مثلا دخول مدام كوري في مسابقة اجمل ساقين ، أو دخول نابليون مباراة « أبو عيون جريئة » ، أو اشتراك جبران خليل جبران في مباراة أجمل « شارب » . وبالتالي أندريه مالرو في مسابقة أجمل قط !

اقول ان الامر يلفت النظر ، فاندريه مالرو أديب جيد قرأت نتاجه وأكن له أعظم الاعجاب . وربما لذلك بالذات استوقفني الخبر . للوهلة الاولى غمرني الغيظ وأنا أراه يحتضن قطاً جميلاً صغيراً وفي العالم آلاف الأطفال الجياع المحروقي الوجوه بالنابالم ، وآلاف النساء والرجال الذين يجلدهم الظلم . ان العذاب يملأ العالم ، والشقاء يدمغ العصر ، والحروب تأكل الفرح ، ومالرو يعرف ذلك كله أكثر من سواه ، فكيف يستطيع ان يقف بهذا الفرح الطفولي محتضناً قطه ؟ ! . أليس الفنان ضمير الانسانية ووعاء العصر ومرآة العالم ؟ كيف ؟ .. أليس اندريه مالرو هو القائل في كتابه « الوضع البشري » : « لا شك في ان قيمة الانسان تساوي ما يحدثه من تغيير في مجرى التاريخ » ؟

ماذا يمكن ان يحدث انتخاب قطه من تغيير في مجرى التاريخ ؟ ! .

أليس هو القائل « الأفكار يجب ألا تبقى أخباراً فحسب ، بل ان تتحول إلى افعال معاشة » ؟ واين انسانية مالرو وافكاره العملاقة من لعبته الصالونية في انتخاب

ملك جمال القطط ؟ .. أهكذا يعيش أفكاره ؟ ! .

هذا ما فكرت فيه للوهلة الاولى . وهو كله قد يكون خاطئاً . قد تكون فكرة مطالبة الفنان بالتطابق بين افكاره وسلوكه مثالية وجميلة ومنطقية ، لكنها على ما يبدو غير واقعية ! إننا ببساطة نطالب الفنان بأن يكون في سلوكه اليومي على مستوى نتاجه . ونحن العرب ، انطلاقاً من استعدادنا المؤسف لعبادة الفرد ، نطالب كاتبنا المفضل بأن يكون قديساً . ويبدو أن هذا التطلع لا يتطابق والواقع التاريخي لكبار المبدعين . فاذا عدنا إلى الحياة الشخصية لكبار عباقرة الفن صُدمنا في أكثر من مجال. واذا التقى كل قارىء بكاتبه المفضل وعايشه لأصيب بخيبة أمل وبصدمة نفسية ، وهو أمر يعرفه كل من يحتك بذوي الاسماء اللامعة . لماذا ؟ لأن الفنان ليس قديساً ولا ولياً ، والمطلوب عدم حبه انطلاقاً من هذه النقطة الخاطئة ، المطلوب تفهم نزوات الفنان وسقطاته الصغيرة والكبيرة . ولعل عظمة الانبياء تكمن في ذلك التطابق الكامل بين الاقوال والافعال ، وهو أمر يعجز عنه أعظم المبدعين من فنانين وكتاب .

ولنرحم الفنان من حبنا الاعمى وانتظارنا المعجزات منه ، ولنقل لاندريه مالرو ، الحامل لقطه الجميل ، الفرح به بطفولة صالونية : « مغفورة خطاياك ما دمت مبدعاً ! »

١٤ / ١ / ١٩٧٤

« أرخص ليالي » ، في أوروبا

لدينا شهية عجيبة إلى افتراس الأديب العربي المعاصر ، واتهامه بالقصور أمام الاديب الغربي ... لدينا شعور بالنقص أمام كل ما هو غربي ، من مظاهره مطاردتنا المستمرة لجائزة نوبل رغم انكشافها كمؤسسة منحطة ، شبه معادية لقضايا الشعوب المكافحة ، منحازة — أحياناً — لما هو استعماري (اذ لم يكفها انها منحت منذ أعوام جائزتها للسلام لصهيوني ، وانما عادت ومنحتها هذا العام لابن الاستعمار المدلل وصانع الحرب كيسنجر) . ومن مظاهره أيضاً اننا في حال وجود أي تشابه بين كتاب عربي وآخر غربي نسارع إلى اتهام الكاتب العربي بالسرقة الادبية ، حتى ولو كان تاريخ صدور كتابه أقدم من تاريخ صدور الكتاب الغربي (مثلا كتاب « نهاية علاقة » لغراهام غرين ، المشابه جداً لكتاب « ساره » للعقاد والصادر بعده بأعوام وبالتالي ففي حال وجود سرقة أدبية فبطلها يكون « جيمسبوند غرين » الغربي لا « العقاد » العربي) !

واليوم ، مثلاً ، تتحدث أوروبا عن أزمة الطاقة ، وتتخوف من نتائجها على صعيد زيادة النسل والانفجار السكاني (ما يدعونه « بيبي — بوم ») ، وتقوم حملة لتسهيل استعمال حبوب منع الحمل حتى في ايطالية البابابوية ...

فأوروبا تنزلق ليلة اثر ليلة إلى بئر البرد والضجر . وأزمة الطاقة انعكست في مجالات الحياة كلها ... والنتيجة : لا سيارة ، أي لا حركة خارج البيت . لا سهر . لا مسارح ولا تلفزيون ولا ملاهي ، حتى ولا جنازات — نسبياً ! أي ان الغني يتساوى والفقير في هذه الحالة باضطراره إلى اللجوء إلى أحضان الزوجة لقضاء « أرخص ليالي » على حد تعبير د . يوسف ادريس والنتيجة هي الانفجار السكاني !

الذي لا تعرفه أوروبا ، بل الذي لا نعرفه نحن أيضاً هو أن أديباً عربياً مبدعاً هو يوسف ادريس قد سبق له أن عبر في احدى قصصه عن هذه الازمة بأكملها ، وعن

نتائجها الانسانية ... أزمة الهرب من الفراغ الحياتي إلى ممارسة « أرخص ليالي » مع الزوجة ... ثم حصاد النتيجة جيشاً من الاطفال ...

أعوام وأعوام ونحن نؤكد أن بين أدبائنا العرب من هم على مستوى عالمي ... فهل كان من الضروري ان تحدث أزمة الطاقة لنكتشف أن أديباً عربياً سبق أن تجاوز عصره ، وانه بابداعه انطلق من بيئته المحلية ، حيث تدور أحداث أرخص ليالي — ١٩٥٤ ، لتكون تعبيراً انسانياً وشمولياً عن الوضع ذاته في أي مكان (أوروبا مثلا) وأي زمان (عصرنا) . بل ان يوسف ادريس اخترق بابداعه حواجز الماضي لا المستقبل وحده ... ففي نيويورك ، انطفأت الكهرباء ليلة كاملة منذ أكثر من ربع قرن ، ولوحظ بعدها بتسعة أشهر ارتفاع عدد المواليد بنسبة تقارب ٧٠ في المئة ! لقد قضى ليلتها أهل نيويورك « أرخص ليالي » على طريقة أديبنا العربي .

ترى ، هل كان من الضروري ان تطفىء أوروبا أنوارها ومدافئها كي يضيء يوسف ادريس في عيوننا ونعيد اكتشافه ؟ ! .

يعيش الموت .. الموت كتابة !

رسالتك أمامي . تطلب مني المساهمة في كتابة دراسات لمجلتك ، (ومدها بالأبحاث والتعليقات والنتاج الأدبي والفكري) .

ها هي الحروف تدخل على رؤوس أصابعها إلى دورتي الدموية ،

ها هي تبدأ بالرقص ، ثم تقرع نفسها على ذلك ! ... فأنا أنوي كتابة رسالة اعتذار ، لما تعرفه من انشغالي الحالي بمرحلة « الأعمال غير الكاملة » .

ها هي الحروف تتناسل ، في المسافة بين موت وآخر من ميتاتي ، ها هي الحروف تبدأ بالرقص .. ها أنا أستعيد مذاق تلك النشوة التي لا تهرم ولا تصدأ ، وحتى حينما نتحسس نسيج عمرنا ، فنجده رثاً ومهترئاً ومليئاً بالثقوب ، تدهشنا تلك الفرحة النضرة التي ما زالت قادرة على التهامنا ... تراك ستدهش لو كشفت لك عن سر صغير ، لو قلت لك ان رسالتك أفرحتني حقاً ، لو قلت لك ان كل رسالة تطلب الي الكتابة تفرحني ؟ .. كأن ذلك الزمان الذي صلبته وصلبني ، وتلك الانهيارات التي تدحرجت فيها وبها صعوداً ونزولاً ، وكل ما مرت به الروح على طول أعوام من الكتابة ، واستطاعت أن تدخل تعديلاتها على خارطة القلب والنفس ، وغيرت شوارع الروح وحانات الذاكرة ، ظلت عاجزة عن تبديل محرق التقاط الضوء داخل نفسي ...

إن شيئاً واحداً ظل في نفسي نقياً ومرهفاً كالبراءة الأولى (أم الأخيرة ؟) . إنه العلاقة مع الكلمة ...

أمام فعل الكتابة ، ما زلت تلك الدمشقية الصغيرة ، وما زلت أشعر أن من واجبي أنا ، أن أحمل سطل الدهان وأركب (المتوسيكل) في شوارع الليل لأكتب خلسة على جدران النوم والصحو : يعيش الموت ... الموت كتابة !! ...

وحينما يأتي انسان ليهديني جداراً (أخربش) فوقه ، وأزرع لبلابي الشيطاني المسحور ، أشعر دوماً بالامتنان : امتنان له طعم الدهشة ...

وعلى كثرة ما مرّ بي ، وصفّحني ضد مشاعر كثيرة ، بقي هذا الشعور العذب يغمرني بالشراسة نفسها كلما تكرم منبر طالباً إليّ أن أنهمر فوقه ... لقد قضيت عمري أهطل ، أختار أحياناً حقولي وأشجاري وقفاري وتوقيت هطولي ، وغالباً لا أفعـــل .

اني أشكرك . ولا أنتهز هذه الفرصة للتهنئة ، فالتهنئة صرخة ود ، لا تحتاج إلى (انتهاز الفرص) كالخيانة مثلاً ! ...

١٨ / ٨ / ١٩٧٥

.. لن أكتب شيئاً هذا الأسبوع !

واحياناً تصير الكتابة كابوساً ... تشعر بأن المطبعة وحش لا يشبع ... يمضغك كل أسبوع ثم يبصقك ، وعليك أن تجدد نفسك لتمنحها لأنيابه ثانية ... وإلى ما لا نهاية ...

تشعر بأن الكلمات لا تجدي ... الكلمات المقصوصة من لحمك ، المنسوجة بخيطان اعصابك ، كل كلمة فيها هي لغة سرية بينك وبين ذاتك ، ما دامت الكلمات تعني في عالمك شيئاً مختلفاً عما قد تعنيه في عالم الآخرين ...

تشعر بأنك تنزف دماءك على الورق مثل جريح وحيد ينزف في غابة معتمة ساكنة وتمر به النجوم والطيور الليلية المفترسة والرياح والنمور والجرذان من دون أن تلحظ جراحه التي تغني في أحشاء الصمت والغربة والعزلة ...

... تشعر بانك صغير ، حجمك مثل حجم « عقلة الاصبع » . تقف وحيداً في دهاليز تقود إلى دهاليز تقود إلى دهاليز ، والنوافذ على الجدران هي رسوم نوافذ ، والباب صورة باب ، وانك تصرخ وتصرخ ، تصرخ كل اسبوع مرة — وربما أكثر — وانت تعرف سلفاً ان احداً لن يسمعك ، وربما كنت تصرخ لتتأكد من انك ما زلت حياً ... (أنا اتعذب ، إذن أنا موجودة !)

تشعر كما أشعر هذا الصباح ... (لماذا أكتب أنا لهم ؟ لماذا لا يكتبون جميعاً لأجلي ؟) .

تشعر بان المطبعة هي غول الحكايا التي كانت تخوفني جدتي الدمشقية العتيقة بها ... المطبعة قد فغرت فاها ... وعلي ان أكتب ...

ولكن جرحي عميق هذا الاسبوع ...
أعمق من أن تصدر عنه ولو تنهيدة واحدة ! ..

* * *

قررت : سأكتب عن ذلك الاختراع الانساني الجديد : يحمل كل مريض بالقلب – أينما ذهب – جهازاً فوق ظهره يرصد ضربات قلبه باستمرار ويبثها إلى المركز الطبي الرئيسي ، وحين يلحظ المراقبون هناك أي خلل في ضرباته يتصلون بالمريض بواسطة اللاسلكي المزود به ، طالبين اليه التوجه فوراً إلى المستشفى ... اختراع عظيم سينقذ حياة الكثيرين من مرضى القلوب .

ووجدتني أضحك ... لماذا ننقذ حياتهم ؟ كي يموتوا برصاصة طائشة ؟ بحرب ذرية ؟ بالتلوث ؟ بالانهيار العصبي ؟

ففي الصفحة التالية بخبر عن جهاز علمي آخر جبار ، لكنه جهاز مرصود للقتل ، اذ يتمكن الجندي بواسطته من إصابة هدفه بمدفع الدبابة بدقة ميليمترات ! أجل ، لماذا نصنع ذلك الجهاز المعقد لإنقاذ مريض القلب ما دمنا في الوقت ذاته نصنع جهازاً معقداً آخر كي نقتله « ونصيبه » جيداً كهدف لنا ؟ .. والعلم الحديث ، أليس شبيهاً بعبقري مجنون هوايته اختراع الاشياء التي يلغي بعضها بعضاً ؟ ...

وماذا يريد إنسان هذا العصر ؟

ولماذا نحرم المريض بالقلب نعمة الموت بسلام إذا كنا سنقتله كل يوم بألف وسيلة « تكنولوجية » أخرى ؟ ! .

وصرفت النظر عن الكتابة حول هذا الموضوع ...

* * *

وقررت : سوف أكتب عن احتفال الولايات المتحدة الاميركية المبتكر بعيد ميلادها . ففي العام المقبل (تموز – يوليو ١٩٧٦) يصير عمرها ٢٠٠ سنة ، وقد تقرر في هذه المناسبة « السعيدة » ارسال مركبة فضائية تهبط على كوكب المريخ لتكتشف هل الحياة موجودة فيه أم لا ... مناسبة تستحق التصفيق ؟ لماذا ؟ لعلها ذاهبة لتبيد الحياة هناك في حال اكتشافها انها موجودة ! لماذا لا يترك سكان كوكبنا المشؤوم بالعنف سكان الكواكب الأخرى وشأنهم ؟ ما جدوى زيارة أهل المريخ بينما نصف سكان الكرة الارضية يموتون جوعاً من دون ان يزورهم أحد غير سيدنا عزرائيل ؟

وصرفت النظر عن الكتابة حول هذا الموضوع ...

* * *

وقررت الكتابة حول عملية حشيش العقول الالكترونية التي ضبطت في بيروت . مهربان استخدما العقول الالكترونية لتهريب الحشيش بحشوه داخل أدمغتها ....

قررت أن أكتب مدافعة عن العقول الالكترونية التي أرغمت على تعاطي المخدر ، مطالبة بانشاء جمعية الرفق بالانسان الآلي والعقل الالكتروني ، ثم صرفت النظر عن هذا الموضوع اذ تخيلت العقل الالكتروني يصرخ في وجهي : ومن طلب منك الدفاع عن عقلي الذي لم يستخدمه الانسان إلا لحسابات الدمار وجشع الإثراء ! .. اريد قليلاً من المخدر لأستطيع احتمال عالمكم المجنون ! ..

وتخيلت العقول الالكترونية ترقص في مطار بيروت لحظة ضبط الحشيشة في داخلها ، ثم تطلب قلماً وورقة وتجلس لتكتب الشعر على طريقة كولريدج .

وصرفت النظر عن هذا الموضوع !

* * *

ولكن ، ماذا اكتب ، والمطبعة غول الاساطير الذي لا يشبع ، وهي في انتظاري مهددة متوعدة ؟ ! .

وقررت : لن أكتب شيئاً هذا الاسبوع !

٢١ / ١٠ / ١٩٧٤

عن النساء والثيران !

اسبانية . اسمها انجيلا هرنانديز . تناقلت الوكالات العالمية صورها وأخبارها ، فهي تلميذة مصارع الثيران الشهير مانويل بينيتيز الملقب بـ « الكوردوبيزي » تمثلها وهي تصارع ثوراً ضخماً .. وقالت وكالات الانباء العالمية ان انجيلا هي أول امرأة تصارع الثيران ...

ولكن ليس صحيحاً ان انجيلا هي أول امرأة تصارع الثيران ...

ان المرأة ، كل امرأة ، لا تفعل شيئاً غير مصارعة الثيران ! ... على طول تاريخها منذ آلاف الاعوام ، كانت المرأة مرصودة لمصارعة كل انواع الثيران ، الراكضة نحوها بقرون مدببة ترتوي من نزفها الدائم .

وإذا كانت انجيلا تصارع الثيران في الحلبة ، فالمرأة على طول تاريخها تصارع الثيران في البيت وخارج البيت .

هناك ثيران الفهم الخاطىء السائد حول امكانات المرأة ... وهنالك ثيران الحكم الاجتماعي القاسي المسلط عليها .. وهنالك ثيران اعتبارها كائناً متخلفاً عليه ان يقوم بأقذر المهام وأكثرها تفاهة في القبيلة مع حرمانه من حق ابداء الرأي في الشؤون المصيرية .. وهنالك الثور الأكبر المسلط على عنقها وهو القانون الذي لا يمنحها حقوقها المدنية العادلة .. في كل بلدان العالم بدرجات متفاوتة .. وحتى أرق الفلاسفة وأذكى المفكرين كانوا (ثيراناً) في تعاملهم مع المرأة ونظرتهم إليها .

فيثاغورث مثلا يميز بين « مبدأ الخير الذي خلق النظام والنور والرجل ، ومبدأ الشر الذي خلق الفوضى والظلمات والمرأة » . وأبقراط « المرأة هي في خدمة البطن » وحتى ارسطو « الانثى انثى بسبب نقص معين لديها في الصفات » . وحتى افلاطون حين دعا إلى « مشاع النساء » لم يكن يقصد تكريم المرأة بل تحقيرها ... ويوحنا فم الذهب « ليس هناك بين كل وحوش الارض ما هو أشد أذى وضرراً من المرأة » .

وترتوليان « ايتها المرأة .. انت باب الشيطان . »

وحتى الثورات لم تنصف المرأة ولا الفاتحين . فالثورة الفرنسية رفضت عام ١٧٨٩ منح المرأة الحقوق المدنية . ونابليون أصدر قانوناً مدنياً جعل فيه المرأة المتزوجة تحت وصاية زوجها انطلاقاً من انها « ملك لزوجها تنجب له اولاداً كما تثمر شجرة الكمثرى لمالكها كمثرى » ! ... ولو حاولت تسطير كل الشواهد التاريخية لانتهى بنا الامر إلى اصدار مجلدات ! .. (ملاحظة : لم آت بشواهد من العالم العربي ، لا للافتقار اليها فهي متوفرة والحمد لله ، ولكن دفعاً للحساسيات إذا انتقيت شواهد دون أخرى !) ...

واذا كانت انجيلا تصارع الثور وهو أعزل ، وهي مزودة بكافة انواع السيوف والرماح الحادة ، فان المرأة تصارع ثيران الحياة عزلاء تمامـــاً ، فالمجتمع يحرص باستمرار على تكسير أظافرها ويقدمها للثور مقيدة ومعصوبة العينين ومكبلة بكافة انواع القيود النفسية والضغوط الفكرية وعقد الشعور بالذنب مما يضمن تسهيل مهمة الثور واخضاع اية مصارعة متمردة .!.

واذا كانت انجيلا تصارع الثور وحولها جمهور من المتعاطفين معها ضد الثور ، فان بقية نساء الارض يصارعن ثيرانهن ليلاً نهاراً ، في السر وفي العلن وكل الناس ضدهن ومع الثور ، وحين تغوص القرون الحادة في صدورهن يمتن كما يموت كل الفقراء والمضطهدين : سراً ودونما ضجيج ودون أن تذرف لأجلهن دمعة أو صلاة !

واذا كانت انجيلا تصارع الثور وحولها عدسات المصورين المعجبة ، فان كل الجريئات في مجتمعنا تلاحقهن آلاف العيون المستنكرة والرافضة والمتطلعة إلى لحظة سقوطهن بتشف ، لانهن تجرأن على رفض المصير المرسوم سلفاً لهن لحظة ولادتهن . ولحظة تبكي الأم اذا وضعت مولودة بنتاً ، تبكي مرتين : مرة خوفاً من الزوج ، ومرة حزناً على هذه المسكينة التي تمنحها الحياة والعذاب في آن واحد ، ولانها كأنثى ، تعرف سلفاً ما ينتظر ابنتها من عذاب مهما كانت جريئة وقوية ومتحدية ، بل بالذات إذا كانت جريئة وقوية ومتحدية ! ..

الذين صوروا انجيلا على انها أول مصارعة ثيران في العالم اخطأوا ...
حواء كانت أول مصارعة ثيران في العالم ! ..

(تُرجم هذا النص إلى الإنكليزية)

١٩٧٥/٣/٢٤

أيهما للبيع : القميص أم المرأة ؟!

كثيرة هي الاحتفالات والندوات بمناسبة السنة العالمية للمرأة ، نقرأ أخبارها في الصحف كل يوم تقريباً .

آخر ما قرأت كان مقالاً مطولاً عن ندوة أقيمت لهذا الغرض وقيل فيها الكثير من الكلمات . الكلمات . الكلمات ... عن دور المرأة في المجتمع ومساواتها بالرجل ، إلى آخر المعزوفة !

إلى جانب المقال ، الاعلانات المعهودة ... وتقرأ الاعلانات : كلها يتوجه إلى الرجل ما عدا اعلانات التدبير المنزلي . اعلان المكنسة يخاطب المرأة (احجزي نسختك يا سيدتي !) . اعلان الموسوعات يخاطب الرجل . (احجز نسختك يا سيدي !) . اعلان الغسالة الكهربائية يخاطب المرأة . اعلان الرحلات السياحية يخاطب الرجل . ورغم ان المرأة العاملة تشكل اليوم قوة شرائية توازي قوة الرجل ، الا أن شركات الاعلان — لحكمة ما — ما زالت تخاطب « المرأة — الخادمة » فقط أو ، كما تلقبها العبارة المعسولة ، « المرأة التي مملكتها البيت » . في اختصار ، نجد المرأة في عالم الاعلان كائناً مهمته تقتصر على شراء أدوات التجميل ومساحيقه ، وادوات المطبخ ومستلزماته . أي ان علاقتها بعالم الذكور تقتصر على المطبخ وغرفة النوم . أما السيارات والقوارب والكتب والموسوعات فخاصة بعالم الذكور . (وحتى الاعلانات عن المنشطات التي كثرت في الاونة الاخيرة نجدها تخاطب الرجل وَحْدَه من دون المرأة !) .

ولو أن نظرة « عالم الاعلان » إلى المرأة اقتصرت على اعتبارها « ربة منزل » فقط لهان الامر . لكن المرأة في الاعلان هي غالباً أداة جنسية ومجرد سلعة ، وفي ذلك امتداد للنظرة الخاطئة التي لا ترى في المرأة ما يصلح لغير المطبخ والفراش (لإمتاع الطرف الآخر فقط !) .

أكتب وأمامي المقال المطول عن الندوة التي أقيمت بمناسبة السنة العالمية للمرأة

وأشاد فيها الخطباء والشعراء بدور المرأة التاريخي الذي يجب ان تلعبه إلى آخره إلى آخره. وإلى جانب المقال إعلان عن قمصان للرجال : شاب وسيم يرتدي القميص المعلن عنه ، وإلى جانبه امرأة خلعت قميصها (لماذا إذا ارتدى هو قميصه خلعت هي قميصها ؟ !) والحكمة لا يعرفها غير صاحب الاعلان نرى الفتاة في الاعلان عارية الجسد والنزوات وتحار في أيهما للبيع : المرأة ام القميص ، وكأنه ليست في العالم وسيلة لامتداح ذلك القميص إلا بتحقير جسد امرأة ، وبالتالي تحويلها إلى حقل اختبار لا أكثر لكشف المزايا (الجنسية) للقميص !

الإعلان الآخر المجاور يتحدث عن شفرات حلاقة مجيدة ، وصورة لشاب في عينيه اعتداد شمشون الجبار لانه يحلق بتلك الشفرة القاطعة كسيف عربي . حتّى هنا والامر جميل ، ولكن لماذا تقف إلى جانبه تلك الفتاة الحلوة ، البلهاء النظرات ، تتأمل عملية حلاقة الشاب بخشوع كأنها أمام واحدة من عجائب الدنيا السبع وبذهول كأن أمامها فيلاً يرقص الباليه في الحمام ؟ ! وما علاقة شفرة حلاقته بثيابها الفاضحة ؟ طبعاً يريد الاعلان ان يقول : « اخلع عنك ذقنك بشفرة (كذا) تخلع لك المرأة ثيابها ! » .

في اختصار ، الاعلانات لا تتجاهل المرأة فحسب حين تخاطب المستهلك ، بل وتجعل منها سلعة إضافية للبيع . فالمرأة كما تصورها الاعلانات هي مجرد سلعة إضافية اسمها الجنس .

وهذه المخاطبة الاعلانية لا تهين المرأة فحسب بل والرجل أيضاً حين تصور همه الأوحد في مكافحة قشرة شعره بـ « شامبو » كذا أو ارتداء القميص والملابس الداخلية ماركة « ... » من اجل جر أي عابرة سبيل إلى الفراش !

أهذا اعلان عن بضائعنا أم اعلان عن انحطاط مستوى العلاقات لدينا بين المرأة والرجل من صعيد انساني إلى صعيد سطحي بهيمي ؟ ..

أقترح على المرأة مقاطعة كل بضاعة لا تتوجه إليها باعلاناتها ، وتجاهل كل سلعة تتجاهلها ، وذلك بمناسبة السنة العالمية للمرأة التي بدأت في نظري منذ عشرات آلاف السنين ولما تنته بعد .

والأهم من ذلك كله مقاطعة البضائع التي تشكل إعلاناتها إهانة للمرأة وتحقيراً ضمنياً لها بتصويرها أداة جنس فقط ، مستخفة بإنسانيتها .

إنني لا اقترح على شركات الاعلان أن تصور ذلك الشاب الذي يحلق بالشفرات

إياها مثلاً بينما جدته العجوز تربت على خده راضية ، أو ذلك الشمشون في ماركة الثياب الداخلية إياها وناظرة المدرسة الداخلية تبارك نظافته وترتيبه ! ..

المطلوب ان تجد شركات الاعلان وسيلة لرفع اسعارها من دون ان تخفض قيمة المرأة وقدرها .

وصحيح ان الاعلان الغربي الحديث يعتمد اعتماداً فعالاً على الجنس ، ولا نرى إعلاناً عن ماركة احذية أو بطارية أو قرميد للسطوح مثلاً إلا وفي الاعلان انثى عارية لسبب ما ! ..

ولكنني لا أجد مبرراً لاستيراد هذا الأسلوب . وإذا كان من مظاهر تحرر المرأة الاوروبية تسخيرها جسدها كسلعة لتسويق بقية السلع ، فاننا في غنى عن استيراد هذا التحرر المشوه الذي يحول المرأة المتحررة إلى سلعة للمجتمعات الاستهلاكية .

ان اسوأ ما يمكن ان نستورده هو العبودية تحت قناع التحرر الزائف وفن الاعلان الحديث !

١٩٧٤ / ١٢ / ٣٠

« امرأة » قاتلة = « رجل » ؟

ثلاث سجينات عربيات في سجن النساء في عاليه – قرب بيروت – نجحن في الفرار من السجن ، وهو الحادث الاول من نوعه منذ ١٥ سنة .

وصحيح ان مكاسب المرأة تفرحني عادة ، ولكن هذا « الانتصار » الاخير الذي سجلته في مجال الجريمة لم يسرني ، بل اخافني ! ..

فالملحوظ ان المرأة بدأت مؤخراً تحقق منافسة ملحوظة للرجل على صعيد الأجرام. وكثيرات هن اللواتي صرن مؤخراً يقتلن شواربهن ويقتلن ويسرقن واخيراً يهربن من السجون ! ..

حين نادينا بمساواة المرأة بالرجل لم يكن قصدنا مساواة المرأة بالرجل المجرم ، بل بالانسان . والمؤسف ان المرأة تكاد تحقق مكاسب على صعيد الجريمة أكثر مما تحققها على صعيد العمق الانساني والتحرر الاخلاقي والفكري . فأكثر النساء المتحررات اللواتي نلن استقلالهن – أو « نساء الاعمال » – نجدهن انضممن إلى طبقة الرجال الاستغلاليين البرجوازيين ، ورضين بافكارها ومسلماتها اللااخلاقية واللاإنسانية ! .. وهكذا سقطت المرأة المتحررة في عبودية جديدة ما دامت قد انطلقت في تحررها من ضمن إطار القيم السائدة والفاسدة أصلاً ...

ما جدوى أن تتحرر المرأة إذا كان تحررها لا يعني أكثر من زيادة عدد الرجال الفاسدين والاشرار في المجتمع ، وذلك بانضمامها إلى فئتهم ؟ ! .

السجينات الثلاث الهاربات من سجن النساء في عاليه حققن مكسباً « رجالياً » لا مكسباً « نسائياً انسانياً » .

المطلوب ان تهرب ملايين النساء العربيات من سجونهن : من سجون العرف والعادة والخوف والقهر والموت سراً والخجل من عواطفهن واحاسيسهن وحقوقهن ... هل من الضروري ان اعدد السجون التي « ترتع » فيها المرأة العربية والتي تكرسها

القوانين العربيـــة المنحازة للرجل ، قوانين الزواج والطلاق والقوانين التجاريـــة والجزائية ؟ .. يكفي ان تنظر كل قارئة ببصيرتها إلى وضعها لترى كيف انها في سجن حوله سجن حوله سجن ... وحتى جسدها سجن اضافي !

الحلول الفردية غير ممكنة . المهم ليس هرب بعض السجينات من مصير الأكثرية البائسة ، بل المهم هو التضامن في حركة واعية وتدمير هذه السجون كلها ...

والاهم من ذلك الا نجعل من « الرجل الفاسد » مثلنا الأعلى في ثورتنا ، والا يكون هدفنا « المساواة بالرجل » .. فللرجل سجونه هو أيضاً ، وأكثر سجوننا من فكرية واقتصادية وسياسية هي سجون مشتركة بين المرأة والرجل .

المهم هو ان تتحرر المرأة عن طريق تحرر الفرد العربي وداخل هذا الاطار وحده ، وهذا طبعاً يتضمن تحرير الرجل ، لا تقليده .

المهم ان تكون حركة تحرر المرأة جزءاً من ثورة الإنسان من أجل الحب والجمال والعدالة ، لا أن تكون ثورة لأجل منافسة الرجل في مجال الإجرام والعنف — الذي احتكرهما طويلاً — وبدأت قبضاياتنا النسائية مؤخراً في منافسته « غير المشروعة » في هذا المجال غير الشرعي !

لعل أكبر سجن تتعرض له المرأة هو توهمها ان في تقليد الرجل الناجح تكمن حريتها ! فالرجل الناجح في مجتمع فاسد هو رجل فاسد ، وحرية الاجرام والفساد هي عبودية اضافية !

ليس المهم تقليد الرجل « القبضاي » بل التضامن مع الرجل المكافح من أجل الفرح والحرية والعدالة .

١٩٧٤/٤/٢٢

شاربان للمرأة العاملة ؟

يسرني باستمرار ان تتولى امرأة جميلة الرأس منصباً سياسياً عاماً يتطلب منها قوى فكرية تملأ ذلك الرأس ...

فالخطأ الشائع هو أن المرأة المتحررة هي بالضرورة بشعة ، مهملة لأنوثتها ، كأن استخدام اعضاء الجسد يتضمن بالضرورة تعطيلاً لعمل الدماغ .. كأن استعمال الجسد هو ضد استخدام الدماغ ... كأن الجمال لقاح ضد الذكاء والجدية والعمق ! ..

والخطأ الذي تقع فيه أكثر حركات تحرير المرأة (وومنزليب) هو تركيزها على ضرورة إهمال المرأة لمظهرها بحجة رفض استخدامها (كسلعة) ... كأنه يجب ان ينبت للمرأة شاربان كي تكون حرة . ويجب ان تكون قذرة الشعر كي تكون مفكرة . ويجب ان تكون خشنة الصوت كي تتحدث في السياسة . ويجب ان تطالب بإحراق الرجال في افران الغاز كي تكون أديبة ! .. ويجب ان تكون ذات ساقين معوجتين وقدم فكحاء . كي تمضي في طريق العلم ! ...

ان نظرتنا إلى المرأة ما تزال وليدة عصور استعباد المرأة . ما نزال ندهش اذا اجتمع الجمال والذكاء في امرأة ، كأننا نفترض — بالضرورة — ان المرأة الجميلة لا بد ان تنشغل بجمالها عن الحياة العامة ما دامت (قاصرة العقل) ... ولكننا لا ندهش مثلاً لأن عدداً كبيراً من الرجال العظماء والمبدعين كانوا على قدر كبير من الوسامة (بايرون — تشرشل — كيتس — نابليون من الاموات ، واتجاوز عن ذكر امثلة معاصرة من الاحياء حولنا دفعاً لسوء الظن !) ...

١٣ / ٤ / ١٩٧٣

حامل ، بدون زواج !

نقل الينا التلفزيون نبأ معجزة طبية في قطر عربي .. فقد ولدت سيدة بنتاً ، وحين بلغت الطفلة الشهر الثالث من عمرها لوحظ انتفاخ بطنها ، واجريت لها عملية جراحية ، فوجدوا في بطنها ثلاث توائم ... والتفسير العلمي بسيط . فقد كان من المفروض ان تضع الأم اربع توائم ، ولكن خللاً ما حدث ، ونمت التوائم الثلاث الباقية داخل بطن أختها .

هذا ما يقوله العلم .

أتساءل : ترى هل يقوم رجل بشهر خنجره وذبح ابنة الاشهر الثلاثة من الوريد إلى الوريد انتقاماً للشرف الرفيع ما دامت (البنت) حاملاً دون زواج ؟ ! ...

١٩٧٥ / ٣ / ٣١

هل اسم المرأة عورة ؟

تابع مسلسل سنة المرأة العالمية !

في داخل المبنى تدور الندوة وفقاً لاصول اللعبة . نساء يتحدثن عن حقوق المرأة . رجال يؤيدون . كاميرات وفلاشات . تصفيق . ختام .

حين غادرن المبنى . من منهن لاحظت النعوة الملصقة على جدار المبنى ذاته ؟ .. النعوة تتحدث عن وفاة سيدة فاضلة ، وصيغة النعوة تروي علاقتها بذكور الاسرة متجاهلة تماماً « حريم » الاسرة . إنها الصيغة التقليدية للنعوات الشائعة في بلادنا ، وتقول : توفيت فلانة زوجة فلان والدة فلان (وهنا يذكرون اسماء ابنائها الذكور فقط) شقيقة فلان (وتتجاهل النعوة شقيقاتها) — والنعوة لا تتجاهل بناتها فحسب وانما تذكر اسماء أصهارها ! .. هل اسم المرأة عورة ؟ ام ان وجودها في الاسرة كوجود الكوابيس ، والناس يفضلون عادة عدم التحدث عن كوابيسهم ؟ ..

هذه ليست نعوة للسيدة إياها . انها نعوة لكل نساء بلادي !

١٤ / ٤ / ١٩٧٥

السنة العالمية لـ « كره » المرأة !

هل هي السنة العالمية للمرأة أم السنة العالمية لكره المرأة ؟

كل هذه الثرثرة في المؤتمرات والندوات ، كل هاته النسوة اللواتي وجدن مناسبة لتعذيب الرجال المساكين — صحافة وقراء — تحت لواء « سنة المرأة العالمية » واللواتي يكررن حكاية « تحرر المرأة » ببغائية مروعة ، ثم يعدن في المساء إلى أقفاصهن ...

كل تلك الفظاعات البلاغية تحت لواء « سنة المرأة العالمية » لم تعد تطاق ! ولن يدهشني أن تطالب امرأة ما — ذات ضمير حي — بتحويلها إلى رجل لمدة عام مثلاً خجلاً من مهازل المرأة خلال هذا العام !

ولن يدهشني تأليف « جمعية الرفق بالرجل » رداً على العدوان !

وسط هذا الركام من النقيق الكثير ، والعمل القليل يأتي من سورية خبر يفرح القلب له ...

فالاتحاد النسائي السوري قرر ان يكون احتفاله بـ «السنة العالمية للمرأة» هو محو الأمية في قطاع واسع من المدن والارياف . أربعة آلاف أمية سورية يتخرجن هذا العام وقد تعلمن القراءة والكتابة (معتمدات طريقة برهان بخاري الحديثة) ، وبذلك تكون سنة المرأة هي خطوة في طريق النور والوعي والمشاركة في صنع مصير الوطن .

ان كثرة التهريج الحريمي بمناسبة « سنة المرأة العالمية » يجعل خبراً كهذا يضيء في عتمة الدرب التي تتخبط مسيرة المرأة فيها .

محو الامية ... إنها الخطوة الاولى الحقيقية لتحرر أي كائن ، امرأة كان أو رجلاً أما الاحتفالات الاستعراضية والولائم الأكلية الحافلة بهذه المناسبة البائسة فلا تؤدي إلى غير عسر الهضم !

١٥ / ٧ / ١٩٧٤

الإذلال مكرس للمرأة !

في « الستيريو » بضواحي بيروت قبضوا عليهمـــا لانهما كانا في وضع « مريب »، كما قبضوا على صاحب « الستيريو » ، وأخضعت المرأة للمعاينة الطبية ! (المرأة فقط طبعاً ، فالاذلال مكرس لها !)

لماذا يقبض عليهما ؟ وهل يذهب الناس إلى « الستيريوهات » لمناقشة أزمة الشرق الاوسط مثلاً أو للاستعداد للامتحانات واعداد الاطروحات ؟ .. في « الستيريو»، حيث رائحة العفونة والرطوبة تفوح من الجدران والصراصير تركض تحتك فوق المقاعد والشمس ممنوعة من الدخول والضوء اقل شحوباً من مصابيح السارقين ، هل يمكن ان تذهب إلى مكان كهذا لاستنشاق الهواء العليل أو ممارسة التمارين السويدية ، ام ان الناس يذهبون إلى « الستيريو » ليكونوا في « أوضاع مريبة » ؟ ! . في مكان كهذا. اذا ضُبط اثنان في وضع غير مريب ، حينئذ يكون من الضروري إخضاعهما للمعاينة الطبية (لانهما يكونان مريضين حتماً !) .

في مكان كهذا ، في اضاءة كهذه ، في موسيقى مسعورة كهذه . حين يكون الرجل قريباً هكذا والخمرة حارة ، ماذا يمكن للإنسان الطبيعي ان يفعل ؟ ..

الحل ؟ اغلقوا الستيريو .

أو أغلقوا عيونكم ! ..

* * *

١٩ / ١ / ١٩٧٣

يريدها مجربة ولكن بلا تجربة !!

بيبا جيلبرت ، بريطانية جميلة جاءت إلى بيروت منذ شهر لتعمل ساقية في احدى حاناتها ، ثم عادت إلى بلادها لتتصدر صورتها صحيفة « نيوز أوف ذي وورلد » اللندنية ، ولتروي حكايتها مع بيروت والرجل العربي .. وكان حديثها مليئاً بالنقمة .

تحدثت عن (همجية) الرجل العربي ، واستغلاليته ، وفظاعاته ... وعن اغتصاب ثري عربي من قطر شقيق لها .. ومحاولات الرجال لشراء جسدها .. وعن الرصاص الذي اطلق في البار في غمرة النزاع عليها .

للوهلة الاولى لا بد أن يغضبنا حديثها . فالست بيبا جيلبرت لم تأت إلى بيروت للانتساب إلى « سلك الرهبنة » في دير المخلص مثلاً ، وانما جاءت لتعمل « بارميد » ، وطبيعة عمل كهذا تفرض على صاحبته الاحتكاك بالناس بينما اعماقهم في أشد حالاتها تأزماً .. ومن الطبيعي ان صاحب البار لن يدفع لها ٣٥ جنيهاً في الاسبوع لمجرد انها قبلت استعراض طلعتها البهية في حانته .. كما ان وزارة السياحة لن تدفع لها المبلغ كي يحظى لبنان بتشريفها السامي إلى ديارنا ..

ثم انه من السهل ان نتهم « الست بيبا » بالجحود .. فأي أجنبية تلقى من تدليل الشاب العربي ما لا تحلم به في بلادها ... إنها — للاسف — تدغدغ عقدة نقصه أمام الغربي ، ونقاط ضعفه أمام الشعر الاشقر والبشرة الثلجية ، وجنة المتعة الجسدية العابرة دون التزامات ، وهو عادة يستدين ويهرب من زوجته ويعمل دليلاً سياحياً « للاجنبية » الكريمة ويفخر بالخروج معها كما لو كان برفقة « ملكة سبأ » مثلاً ، وفي اسوأ الحالات فهو لا يمكن أن يطلب منها دفع الحساب قط كما يفعل الشاب الغربي .

اذن من السهل أن نرمي بحديث « الست بيبا » في سلة المهملات ، فالشهادة ضدنا لم تأت من سيمون دي بوفوار أو انديرا غاندي مثلاً ، وانما من (بارميد) ربما تصادف ان كان حظها عاثراً مع رجالنا ، كما انه من السهل أيضاً أن نرمي بجريدة

الفضائح « نيوز أوف ذي وورلد » بعيداً بعد ان نتهمها بالميول الصهيونية ومحاولة تشويه واقعنا العربي الخ ... ولكن ، أليس واقعنا العربي مشوهاً ؟

أليست الحياة الجنسية لدى الفرد العربي في هذه المرحلة الانتقالية من تاريخنا مهزوزة المفاهيم ؟

أليست نظرة الرجل إلى المرأة في بلادنا مثيرة للأسى إذا قيست بمقاييس عالمنا المعاصر ؟ نعم !

بيروت هي بطريقة ما (كاباريه) العالم العربي ، وهذا من بعض فضائل اقتصاد الخدمات الذي يعتاش لبنان منه ، والويسكي الذي يراق في بيروت شهرياً يكفي لتغذية معمل بالوقود !

ولكن كونها خمارة العالم العربي جعلها مرآة لاخلاقياتنا المهزوزة ، ومفاهيمنا المشوشة الضائعة بين التقليد المشوه للغرب ، والإدراك الخاطىء لمفاهيم التراث العربي الحق . بيروت مرآة لأمراض الفرد العربي في كل أقطاره ، وسوق عكاظه العاطفية التي تتبدى فيها مهازل أخلاقيته المعاصرة واهتزاز مفاهيمه . ما ذنب المرآة حين تكون الصورة الواقفة أمامها بشعة ، وما حيلتها أمام الحول العاطفي لدى الشاب العربي المعاصر؟

نعم ! بعض رجالنا على استعداد لاطلاق النار في (كاباريه) من اجل «بارميد» وليس على حدود اسرائيل .

نعم ! بعض رجالنا يتباهى بحمل السلاح ولكنه لا يستعمله الا لصيد العصافير أو لترويع (الارتيستات) أو (غسل العار) الجسدي للاخوات وبنات العم .

نعم ! ليس المطلوب من البارميد في لبنان ان تقدم الكؤوس إلى الزبائن ، وانما مطلوب منها ان تكون هي الكأس .

نعم ! أغلب زبائن حاناتنا يبحثون عن امرأة هرباً من خواء حياتهم العاطفية والفكرية والقومية ، وهرباً من خيباتهم وضياعهم السياسي والهزائم المحدقة بهم وهم مشتتون دونما توجيه لطاقاتهم المهدورة أو تخطيط واضح صريح ، هذا بالاضافة إلى كبتهم التاريخي المشبوب وافتقارهم إلى علاقة إنسانية حقيقية مع امرأة رفيقة ... علاقة كاملة جسدياً وفكرياً ... والحل ؟

طبعاً ليس في اغلاق الحانة . ما جدوى ان نتستر على أعراض المرض اذا كان ما يزال يسري في الجسد العربي ويتآكله من الداخل ؟ ..

الحل في نظري يكمن في الخروج نهائياً بالعلاقات بين المرأة العربية والرجل إلى

النور .. إلى المصارحة ومواجهة متطلبات العصر ... الحل ليس في ان تتحول نساؤنا إلى (فتيات بار) وانما في ان تنتفي حاجة الفرد العربي إلى (فتاة البار) التي تلعب اليوم في حياته البديل عن الجارية في الحريم ... كل ما استفدناه من العصر هو اننا حولنا فئة الجواري إلى مؤسسة اسمها (الكباريه) وزاد استيرادنا للاجنبيات اللواتي نعاملهن معاملة خاصة بصفتهن (خبيرات) كما يُعامل الخبراء في كل المهن . ما تزال المرأة في ذهن الرجل الشرقي فئتين : (١) شريفة . (٢) غير شريفة .

الشريفة هي التي يتزوجها ويشترط ان تكون عذراء فكرياً وجسدياً وبعد الزواج بأسابيع يهرب منها ضجراً إلى « البار » لانها ليست في (مستواه الفكري) . لا أدري كيف نستطيع مطالبة فتاة لم يُسمح لها بمغادرة بيتها ان تكون على المستوى الفكري لرجل درس مثلاً في (كمبردج) ولديه علاقات عملية وفكرية ونشاطات واسعة المجال . كيف يريد منها ان تكون قادرة على الحوار وعلى تفهم حياته وعلى ان تكون شريكة كفاحه ؟ ...

الرجل الشرقي يطالب المرأة اليوم بشرط مستحيل : يطالبها بالفهم والذكاء والمشاركة الانسانية ، ويحرم عليها حق الخبرة في كل المجالات ، الخبرة التي تمكنها من الارتقاء إلى مشاركة كهذه ... وهي بالطبع تفشل .. فهي كمن يُطلب اليه التحليق في الهواء إلى جانب الرجل بينما يداها مقيدتان بكل المفاهيم العتيقة في المرأة .. المطلوب اطلاق سلاح طاقات المرأة ، كي تعمل ، وتتعلم ، وتستقل ، وتخطىء ، وتتخذ القرارات ، كي تكون حقاً الشريك الفكري للرجل ، وكي لا يستحيل الزواج إلى مؤسسة ارغامية مزيفة ، وكي لا يهرب الشاب إلى الحانات يروي احزانه للاجنبيات وهو ثمل بلغة لا يفهمنها .

المطلوب إقامة حوار علني حول هذه الامور للاحتفاظ بما هو إنساني من تقاليدنا ، والتخلي عما يشتت قدرتنا على العطاء... المطلوب تثقيف الطفل العربي منذ صغره وتبديل المناهج الدراسية وتعديلها من اجل خلق فرد عربي غير مصاب بازدواج الشخصية ...

وقبل ان يتبدل هذا كله ، يجب الا يدهشنا ان يفوق عدد أفراد قوة شرطة النجدة المرابطة في شوارع الليل والبارات والكاباريهات ، عدد أفراد جنودنا المرابطين على حدودنا مع اسرائيل ! ...

(تُرجم هذا النص إلى البولونية)

٢٦ / ٩ / ١٩٦٩

يا نساء العالم «إتحدوا» !

وغم ان توما الاكويني كتب « ان المرأة قد كتب عليها ان تحيا تحت هيمنة الرجل وان لا تكون لها أية سلطة » ..

ورغم ان الأديان والتشريعات البدائية ، (وحتّى التشريعات الحديثة في بعض البلدان المتخلفة) قد كرست تبعية المرأة وتخلفها وقضت عليها بالا تكون لها مهمة غير الانسال ، فقد تم منذ أيام انتخاب السيدة انجي بروكس رئيسة للجمعية العمومية للامم المتحدة ، وبذلك تكون ثاني امرأة ترأس الجمعية العمومية بعد السيدة فياجيا لاكشمي بانديت التي رأست دورة ١٩٥٣ (كان شقيقها رئيس وزراء الهند الراحل جواهر لال نهرو) .

والجدير بالذكر ان انجي بروكس ، الرئيسة الجديدة ليست امرأة فحسب ، بل ولقيطة ومطلقة وزنجية ! ! .. وهي بوصولها إلى هذا المنصب العالمي الكبير إنما تذكر ليس بانهيار أسطورة تخلف المرأة فحسب ، بل وبانهيار أفكار اخرى بالية ، مهترئة حول الزنوج واللقطاء والمطلقات ..

وانجي بروكس (٤١ سنة) تزوجت صغيرة ، ولها ولدان ، وهي الان جدة (وهذه كلها معلومات لا يضمها ملفها في الامم المتحدة ولا شأن لنا بها) .. الاهم ، هو انها محامية محترفة . كانت استاذة للحقوق في جامعة ليبريا بين ١٩٥٤ و ١٩٥٨ ، كما كانت في الوقت نفسه مساعدة لوزير العدل ، وبعد ١٩٥٨ اصبحت مساعدة لوزير الخارجية .. ومثلت بلادها في الجمعية العمومية منذ الدورة التاسعة سنة ١٩٥٤ ، وتلقت علومها العالية في الجامعات البريطانية والاميركية ..

ورغم ان كتب الهند القديمة المقدسة تحرم المرأة من الحق في الحرية وفي امتلاك الثروة ، فان امرأة هندية اسمها انديرا غاندي استطاعت ان تحقق لبلادها ما عجز عن تحقيقه حتّى والدها الكبير الراحل الباندیت نهرو الذي يعتبر من ابطال التحرر في العالم ..

والواقع ان انديرا غاندي تستحق منا بعضا من التأمل في مواقفها الصلبة المذهلة .. واذا كان والدها نهرو قد اضطر بعد الاستقلال إلى مهادنة القوى اليمينية خوفاً من تصدع الحزب ، وكانت تلك المهادنة على حساب المبادىء التقدمية التي يؤمن بها ، فان ابنته التي تحتل اليوم منصباً كمنصبه كانت أصلب موقفاً وأكثر قدرة على المواجهة ، وجرؤت على ان تقوم بما لم يجرؤ عليه (رجل) عظيم هو والدها .. فالمعروف ان انديرا غاندي لم تؤيد السيد ريدي مرشح حزب المؤتمر ، الحزب الذي تعتبر (محسوبة عليه) وانما أيدت مرشحاً تقدمياً هو مورارجي ديساي (كما سبق لها ان تحالفت مع كريشنا مينون وغيره من التقدميين) ، وعلقت مصيرها السياسي باكمله على نجاحه ، سواء رضي حزبها أم لم يرض ... ونجح .. وانتصرت .. وكانت بذلك أصلب مراساً من اصلب رجالات التحرر الذين عرفهم العالم ..

علينا اعادة النظر في أفكار عتيقة مكرسة ..

فقد اعتدنا ان ننظر إلى شهيرات التاريخ من النساء مثل زنوبيا على انهن من الشواذ الذي يؤكد القاعدة ولا يلغيها ، والقاعدة هي : تفوّق الرجل .. وكليوباترة كانت عظيمة لانها قتلت رجلاً هو اخوها لتسرق العرش ، ثم عشقها عظيم هو امبراطور روما .. وبلقيس عظيمة لانها أغوت رجلاً عظيماً هو سليمان .. وهكذا ..

ولكن الدور الذي تلعبه المرأة في المئة سنة الاخيرة من عمر الانسانية القصير جداً (لا يتجاوز الفي سنة) ، صار في حاجة إلى إعادة النظر في تفسيراتنا التقليدية لانتصارات المرأة ، وفي اعتبارنا لها كشواذ يؤكد القاعدة .

إن انتخاب انجي بروكس (الحرمة) اللقيطة المطلقة الزنجية ، يدعونا إلى القول : يا نساء العالم اتحدوا (لا اتحدن) .. ليس هنالك ما تفقدونه سوى نون النسوة (وربما أزواجكم ..) . (بالمناسبة : المطلوب فوراً إلغاء نون النسوة في لغتنا العربية).

٥ / ٤ / ١٩٦٨

لا يا سيدتي الجميلة !

الممثلة العربية (الدلوعة) قضت في بيروت عشرة ايام . الممثلة أدت الطقوس التقليدية للشهرة بإتقان. أكلت التبولة وشربت العرق ولم تنس الحج إلى «سوق الطويلة»، والابتسام للمعجبين وزيارة الحلاقين ولقاء الصحفيين ...

وطبعاً ، لم تنس الحديث عن لبنان الخالد في مقابلاتها الصحفية .

وهكذا كان .

وفي احدى المقابلات ، سألها زميل صحفي عن كل ما يفترض ان تُسأل عنه تقليدياً ... أي ماذا أكلت وماذا شربت وأيامها في بيروت ورأيها في الشاب اللبناني ومرقص « الكاف دي روا » وأناقة السيدة اللبنانية .

وقد أسهبت (دلوعة الشاشة) في الرد ، وقالت بالضبط ما هو من المفروض ان تقوله ... ولم تنس امتداح اعمالها المقبلة وشرح مشاريع افلامها ...

ثم فجأة ، خرج الصحفي عن الخط التقليدي للاسئلة ، وارتكب خطيئة « اللاتفاهة » ، اذ وجه للسيدة الجميلة سؤالاً (يتعلق بكوكب آخر) وقال لها : ما أثر الهزيمة على نتاجك ؟ ...

وجاءه الرد : أرجوك .. ما تفكرنيش بيها ... مش عايزة اتكلم عنها ... (شيء من هذا القبيل) ..

لا يا سيدتي الجميلة !

التفاهات كلها التي تحدثت عنها لم تعد تهم أحداً ... كلها اشياء عادية ومكررة وتم استهلاكنا لها نهائياً ... (حتى على صعيد الفرد العربي العادي الذي تحاك جميع المؤامرات عبثاً لابقائه جاهلاً وتافهاً وبالتالي مستهلكاً مثالياً لافلام التفاهة المكررة) .

الفن الحقيقي يعبر عن الشعب .

والخامس من حزيران يا سيدتي الجميلة يمثل بالنسبة للشعب العربي نقطة انعطاف

في كل شيء ... حتى رجل الشارع الذي كان الامل معقوداً عليه في ترويج التفاهات لم يعد من الممكن الاعتماد عليه كثيراً في هذا المجال بعد الخامس من حزيران ، فهو لم يكن غبياً . كان حسن النية .

الأعوام الاخيرة العشرة التي مرت على الشعوب العربية كلها عصفت بأشياء كثيرة أولها التخدير والنعاس . بعبارة أخرى ، يندر اليوم يا سيدتي ان تجدي بيتاً عربياً واحداً لم يفجع بطريقة أو باخرى (في رزقه أو افراده) خلال الاعوام الاخيرة وجاء الخامس من حزيران مرآة وتجسيداً مروعاً لذلك التخلف كله ، والصراع ضد التخلف وضد ملايين القوى الاخرى .

وهكذا ، فجمهورك يا سيدتي الجميلة تبدل . والناقد والصحفي — وهما من بعض جمهورك — قد تبدلا ايضاً ... أحكامنا على الادب والفن ومتطلباتنا تبدلت .

واذا لم تكوني على مستوى الوعي بهذه الحقيقة ، وبالمتطلبات الفكرية الجديدة للشعب العربي فلا مفر له من ان يتجاوزك مهما كان (دلعك وخفة دمك) وستتحول شهرتك الى فقاعة ..

كل من يرفض ان يواجه ٥ حزيران ليس منا . فنه لا يخاطبنا . ليس لديه ما يقوله لنا .

لم يعد الفنان في مفهومنا (مهرجاً) لتسليتنا، أو (ديكوراً) لحياتنا... أو (متنفساً) لكبتنا ...

سلفاً نقولها لك ...

مشاريعك المقبلة ، أفلامك وأغانيك ، اذا لم تتضمن وعياً بمأساة الشعب العربي على مستوى وعيه بها منذ الخامس من حزيران — لا نريدها .. تكفينا إعادة لأفلامك الماضية .

اقولها بلا مجاملة ، بلا رياء ، وبلا مداورة . ذلك كل ما تبقى في حناجرنا

٧ / ٥ / ١٩٧٤

بندقية بدلاً من جهاز العرس !

في إحدى قرى لبنان فتاة في التاسعة عشرة من عمرها أطلقت الرصاص على « قبضاي » يهدد والدها وشقيقها العاملين ويذلهما ، واستحقت احترام اهل القرية ولقب « الريسة نهاد » ... تذكرت عشرات النساء اللواتي أثبتن مساواتهن للرجل في حقول اخرى كثيرة ... في حقول العلم ، والفن ، والادب ، والعمل الاكاديمي والحر ، وكافحن لأجل ذلك اعواماً طويلة ...

ولكن ، ها هي فتاة برصاصة واحدة تفوز خلال الثانية التي استغرقتها الطلقة باحترام واعتراف مجتمعها الصغير بامكاناتها ومساواتها للرجل .

فهل الرصاصة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الرجل في مجتمعاتنا ؟ ..

وهل القتل هو الوسيلة الوحيدة لتثبت المرأة من خلالها مساواتها للرجل ؟ ..

يا نساء العالم ... ابتعن بنادق الصيد بدلاً من جهاز العرس !

٢٣ / ٩ / ١٩٧٤

ما ذنب المرايا ؟

لا بد لي من الاعتراف بأن طريقة العرب في استعمال كلمة « فنانة » تثير غيظي .. وأن فظاعتنا في استعمال هذه الكلمة تتجلى بشكل خاص في التقارير الرسمية للشرطة ..

ففي صفحات الجرائم التي تتحدث غالباً عن (نساء عاديات) توقيت عملهن ليلي كفتيات الحانات مثلاً ، نجد التقارير تسميهن « فنانات » . نقرأ مثلا انه « يجري البحث عن فنانة شوهدت بسيارة القتيل ذات اللوحة العمومية قبل اختفائه..» ونقرأ عن « مقتل الفنانة ك . وقرار الاتهام يطلب الاعدام لزوجها المتهم . إلى آخره . » وأشعر بالغيظ لإطلاق لقب « فنانة » على هذا النوع من المهن التي لا علاقة لها بالفن الحقيقي .

في اللغات الاجنبية لكلمة « فنانة » حرمتها ، وهي لا تطلق إلا بعد الأخذ باعتبارات فكرية صارمة المقاييس . بيتهوفن مثلا فنان . وسارة برنار فنانة . اما فتيات الملاهي فهن فتيات ملاهي . الراقصة هي راقصة وهي ليست « فنانة » إلا اذا كانت بمستوى « مارجو فونتين » راقصة الباليه العظيمة . والمهم تسمية الاشياء بالاسم الحقيقي لها دون تحميل ذلك أي حكم اخلاقي ضمني . بعبارة اخرى ، فتاة البار ليست بالضرورة امرأة غير محترمة ، والراقصة ليست بالضرورة امرأة مستهترة . ان مهنتها هي ببساطة راقصة وكما في أي مهنة أخرى تستطيع ان تمارس عملها بأخلاق أو بدون أخلاق (أي كما في مهنة النائب والوزير والطبيب) . وحينما يُطلق لقب فنان أي « ارتيست » على شخص ما في اللغات الأخرى فان ذلك يعني تقديراً عظيماً له ... شيللي وبايرون وإليوت كانوا « ارتيست » والكاتبة فرجينيا وولف كانت « ارتيست » كبيرة أي كانت من اعظم كاتبات عصرها ...

اما في لغتنا العربية المستعملة . فان اطلاق كلمة « ارتيست » على امرأة ما هو نوع من الشتيمة .. « الارتيستات » باللغة الدارجة ، جمع « ارتيست » هن في مفهومنا بنات

الليل والعاملات في الملاهي الليلية ، وهن في نظر الناس بصورة عامة نساء (من صنف خاص) الزواج منهن مخاطرة ، والظهور معهن في أماكن عامة اجتماعية غير مرغوب. « الارتيست » في نظرنا هي بنت الهوى وفي هذه التسمية خطأين . أولاً ليست كل امرأة من النساء اللواتي اخترن مهنة الرقص أو الغناء بنت هوى بالضرورة . اننا ما نزال نصنف المرأة بسطحية متوارثة من عصور الانحطاط وما نزال نعتبر المرأة سلعة في السوق من الضروري وضع (أتيكيت) عليها وتلخيص تعريفتها . وهكذا فإن اية امرأة مهنتها طبيبة هي من حيث المبدأ « محترمة » أكثر من اية فتاة مهنتها الرقص في كورس مع المجموعة ! وهذا خطأ فادح ، لكنه خارج الموضوع الذي أتحدث عنه .

الخطأ الآخر الفادح هو اطلاق اسم « ارتيست » بهذه العشوائية في لغتنا العربية ، واستخدامه للتحقير في حين انه اكبر لفظة مديح عرفتها الانسانية !

.. لفظة اخرى تثير قهري ، هي كلمة « عالمة » ...

فبينما كنت اراجع قاموس « الفرائد الدرية في اللغتين العربية والانكليزية — المطبعة الكاثوليكية ص ٤٩٦ » فوجئت بأن كلمة « عالمة » بالعربية لا تعني امرأة مثل « مدام كوري » — أول من اكتشف معدن الراديوم ومعادن مشعة اخرى ، وبالتالي من الذين مهدوا الطريق لعملية شطر الذرة أي لعصر الذرة ! — ، وانما تعني « امرأة مغنية وراقصة» .

وفي ذلك ضمناً تقدير عربي لمواهب « الهز » لدى المرأة « عالمة » الرقص والغناء ، يوازي التقدير لمواهب المرأة المفكرة « عالمة » الذرة أو الكيمياء ! ... ومن هنا ، نلحظ ان الحضور النسائي في المناسبات الرسمية العربية هو غالباً على مستوى« الزوجات» لاجل الكاميرات لا أكثر ، لنثبت بأننا متحضرون على مستوى (الاتيكيت) وقلما نرى مسؤولة عربية تمنح الفرصة للمشاركة في تقرير مصير بلادها أو حتى تمثيلها ... ومن هنا لم يبد ناشزا للفرد العربي ذات يوم ان تمثل الفعالية النسائية العربية في الحضرة النيكسونية الكيسنجرية السيدتان نجوى فؤاد وسهير زكي ،(وقد رفعتا «ردف» المرأة العربية عالياً في تلك المناسبة ! ... واثبتتا تحليهما بأخلاق العلماء حيث تم فك الارتباط بينهما بسهولة وكان « الاختصاص » شعارهما كما هو شعار التكنولوجيا الحديثة ، فواحدة راقصة « كيسنجرية » ، واخرى « نيكسونية » ، ولا فضل لراقصة على أخرى .. الا بالهز) ...

وبعد هذا ، هل الذنب ذنب اللغة العربية ؟ .. وكيف نغير الالفاظ الوصفية للمرأة في المعاجم والاستعمالات اليومية للتسميات اذا لم يتبدل حال المجتمع والمسؤولين مع المرأة ، وحال المرأة مع المرأة (ومع نفسها) ...

وهل الالفاظ الا مرايا ...

وما ذنب المرايا امام الواقع البشع ؟ ! ...

ملاحظة لمن يعرف منجزات نجوى فؤاد وسهير زكي ولا يعرف العالمة مدام كوري : ماري كوري نالت جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٠٣ ونالت الجائزة نفسها ابنتها العالمة ايرين كوري عام ١٩٣٥ كما نال الجائزة أيضاً زوجها العالم فريدريك جوليو وقد اطلق على نفسه اسم اسرة زوجته وحماته وصار « فريدريك جوليو — كوري » احتراماً لعلم المرأتين ... ترى هل هنالك رجل عربي يرضى بحمل اسم زوجته ؟ بل هل هنالك امرأة عربية تستحق ذلك ؟ ..

٦ / ٤ / ١٩٧٣

الطفل ليس كمبيالة مصرفية

« أؤكد للجميع انني لن ابوح باسم والد طفلتي . هكذا يكون الوفاء لرجل أحببته ، ذات يوم » .

هذا ما تصر أصغر نائبة في مجلس العموم البريطاني « برناديت دفلين » على قوله كلما سئلت عن اسم والد الطفلة التي رزقت بها منذ اسابيع دون عقد زواج .

وأنا لا أستطيع أن أكتم اعجابي بهذه السيدة الشجاعة ، ليس لأنني من دعاة « الحبل بدنس » والأطفال غير الشرعيين ، ولكن لأن موقف هذه السيدة (الخاطئة) من طفلتها ومن عشيقها في غاية النبل والإنسانية ، وأنبل بكثير من مواقف كثير من السيدات (المحترمات) الشرعيات من أزواجهن وأطفالهن ...

« إن من حق ابنتي روزين أن تعرف اسم والدها عندما تبلغ سن الرشد ، وسوف أطلعها – بالتأكيد – على ذلك . واعتقد أن ابنتي ستكون فخورة بأبيها ... فهو رجل ذو مكانة رفيعة في المجتمع ، ومتزوج من سيدة فاضلة » .

برناديت المرأة الشجاعة أحبت . واحتفظت بثمرة ذلك الحب وتحملت مسؤوليتها عن ذلك الحب الخاطىء بكل شجاعة . لم تجهض ، لكنها لم تتاجر أيضاً بثمرة ذلك الحب . لم تتخذ منه مادة لتهديد أمن رجلها واستقراره ، ولم تستعمل طفلتها سلاحاً للتشهير والاستنزاف .

هذا هو الحب الحقيقي .

فقد مرعيد الأم منذ اسابيع وسمعنا فيه كثيراً من الثرثرة التقليدية عن الأم المثالية ... ولكن أحداً لم يقل للأم العربية انه من الضروري أن تكف عن استعمال أمومتها واطفالها كأسلحة للسيطرة على رَجُلها ، وكأدوات لابتزاز المال أو الحب أو التسلط ..

المرأة العربية بصورة عامة تفرح بمولد الصبي أكثر من البنت لانه سلاح أكثر فعالية في حرب المصالح الاقتصادية غير الأخلاقية التي تدور في (البيوت الشرعية الاخلاقية) .

والمرأة العربية تستعمل أولادها في أي شجار ينشب بينها وبين زوجها ، غير آبهة بالأذى النفسي والتشويه العاطفي الذي تحدثه في نفوسهم الغضة البريئة ... فإذا أحب زوجها امرأة أخرى ، ذهبت اليه على رأس فيلق من اطفالها ... وإذا قصّر نحوها — وقد يكون على خطأ — شهرت عليه سلاح الاطفال وارتكبت خطأ لا إنسانياً أشد فداحة ...

إن خاطئة مثل « برناديت دفلين » تذكرنا — للأسف — ببديهيات الحب المنسية . والاساس السليم للعلاقة بين المرأة والرجل والطفل ... حيث لا تدفع بالطفل ليلعب دوز الترس أو الدرع أو البندقية أو الضحية ... أو كمبيالة مصرفية تستحق الدفع باستمرار حتى الموت ... أو الطلاق ...

٨ / ٨ / ١٩٦٩

فضيحة عدم الحب !!

عن فكرة الـ (فضيحة) السياسية أكتب ! المثال الراهن لها اليوم هو تيد كنيدي وعلاقته بسكرتيرته وحكايتهما المثيرة . لقد شغل الناس (بالفضيحة) حتى عن متابعة انباء رواد القمر... شغلوا بها كفضيحة قد تزلزل مستقبلاً سياسياً ... واهتممت أنا بها من حيث المبدأ . .

وإذا كانت (فضيحته) الأمر الذي يهم محررو باب الدوليات بمناقشة مدى تأثيره على فرصته في الفوز بالانتخابات ومكانته كسناتور وفرصة حزبه الديمقراطي ، أي انهم يناقشون النتـائج السياسية « لأمر واقع » هو الفضيحة ، فاجدني أنا مضطرة إلى مناقشة مفهوم (الفضيحة) ككل ولماذا تكون « أمراً واقعاً » ! .. فالامر الواقع ليس بالضرورة (الحقيقة) ، ومهمة الكاتب هي أبداً التخلص من تسلط الأمر الواقع أي « ما هو قائم » على ما « يجب أن يكون » عبر ارادة التغيير .

إن حكاية كنيدي الثالث ولا أقول (فضيحته) تطرح من جديـد السؤال الإنساني التالي : هل للسياسي الحق في أن يحب أم لا ؟ ... ولماذا يسمح له بذلك حتى ولو كان متزوجاً شرط أن يفلح في إخفاء ما يدور والإبقاء على حبه سراً ؟ ولماذا مجتمعاتنا ليست ضد الخيانة ، لكنها ضد انكشافها ؟ ولماذا يكون المجرم الماهر أفضل من المجرم الأقل مهارة ! وهل للسياسيين الحق في تدمير مستقبل زميل لمجرد انه (ضبط) في « حالة غزل » ما — الحالة التي يمارسها الجميع سراً ، ويحلم الجبناء بها — ! ...

هل كان عدلاً تمزيق المستقبل السياسي لبروفيومو (البريطاني) إثر فضيحة (كريستين) الشهيرة ؟ وهل هنالك ما يبرر الزج بالعلاقات الشخصية لبومبيدو وحرمه وألان ديلون وزوجته في انتخابات الرئاسة وتحويل كل همسة إلى فضيحة أي إلى مشروع اغتيال إنسان حي ؟ ..

إذن أنا لا أطرح هنا قضية الخيانة الزوجية بالذات ، وانما أطرح موقف المجتمع

منها : لماذا هي سراً شطارة ، وعلناً حقارة ؟ ولماذا هي في حياة السياسي فضيحة تهدم مستقبله العملي إذا انكشفت فقط ؟ .

لماذا الفضيحة لا ترادف (الخطيئة) ، وإنما ترادف (الخطيئة غـير السرية) ! . (— هذا إذا سلمنا جدلاً أن حب رجل متزوج هو خطيئة ، حتى ولو كان زواجه هو الخطيئة ، وحتى ولو كانت مؤسسة الزواج بشكلها القائم في مجتمعه مهترئة ومزيفة وتكيفه معها هو الخطيئة !) يظل السؤال : لماذا نتهرب من اعادة النظر في في هذه الموضوعات ؟ وكيف تبلغ الجرأة بانساننا المعاصر أن ينظـر إلى حقيقة القمر بلا أوهام ، ولا يجرؤ على إعادة النظر في داخله ، وفي حقيقة مشاعره بلا أوهام ، ليعيد النظر في مفهومه للزواج وللحب وللجنس ، ومفهومه (للفضيحة) من حيث هي منكر علني ، واحتجاجه على (العلنية) فيها ، لا (المنكر) ؟ ... وحتام تظل المشاعر الإنسانية ، والضعف الإنساني المقدس المسمى حباً أو صلاة ، نقاط ضعف يسهل الاتجار بها ؟ .

القضية ليست قضية ادوار كنيدي ، وأمره لا يعنيني حقاً ، وأكره (فضائح) آل كنيدي السياسية الحقيقية من حيث مواقفهم العدوانية للعرب . القضية في نظري هي قضية مفهوم الفضيحة . هي قضية الإنسان المعاصر الذي ما يزال سجين تخلف إنساني فكري حول مفهوم (الفضيحة) يقاسي منه في مجتمعاته كافة ...

مفهوم (الفضيحة) الخاطىء ، وغيره من المفاهيم التي تطالب الإنسان بتزييف حقيقته ، بدلاً من أن تشاركه في مواجهتها ، وفي اعادة النظر في المفاهيم القائمة العتيقة التقليدية ، انطلاقاً من بحث جديد حول حقيقة الإنسان . بعض الاديان والتقاليد والعادات (وهي وليدة بيئات وعصور معينة) كثيراً ما تزيف حقيقة الإنسان ، تنظر اليه نظرة عالمنا القديم إلى القمر : نظرة رومانتيكية دراماتيكية جمالية خيالية ..

واليوم وقد تجرأ الإنسان ومزق أسطورة القمر ، وواجه حقيقته : تراب وصخور وغبار يبقى الأمر الاصعب : أن يواجه حقيقة النفس البشرية التي هي من تراب وصخور وغبار قبل أن تكون شيئاً مضيئاً إلهياً ساحراً كقمر العالم القديم . إنسان العالم الجديد تجب مواجهته كما تمت مواجهة قمر العالم الجديد ... ومفاهيمنا كلها يجب أن تتبدل أو تعاد مبايعتها ، لكن اعادة النظر صارت أمراً واجباً ، تحتمه ضرورات العصر إن لم أقل ضرورات العدالة والإنسانية والصدق في مواجهة الذات ! ..

لماذا يحرم على السياسي أن « يضبط » وليس أن (يحب) ؟ .. أليس الذي يضبط

هو الأكثر صدقاً وبالتالي نسياناً لواجبات الازدواجية ؟ أليس الذي (يضبط) هو الأكثر استغراقاً في عاطفته ؟ إذن مجتمعاتنا ليست ضد الحب المزيف ، انها ضد الصدق في الحب لأنه يتهدد ازدواجيتنا وبالتالي يحرضنا على رفضها ، لأنها صارت بصورتها القائمة المهترئة تكريساً للازدواجية والزيف .

نعم .. للحب !

وبعد ..

هذه كلها قضايا صار من الضروري أن تطرح بصوت عال ...

بملء صوتي أصرخ لا لمفهوم (الفضيحة) القائم . وبملء صوتي أسأل ، متى تتطور مفاهيمنا عن الحب والفضيحة ليصير العار الحقيقي ليس أن يحب الرجل السياسي ولكن : أن يحب سراً أو أن يضبط السياسي في « فضيحة عدم الحب » وليس في « فضيحة حب » ! . أن يشهّر به لثبوت انه لم يخفق قلبه بصدق لجمال مر به ، اعتباراً من تاريخ معين ، (هو تاريخ موت العلاقة الإنسانية بينه وبين زوجته ، أو تاريخ اكتشافه أن هذه العلاقة لم تكن قط قائمة !) ، فمن لا يخفق قلبه للحب بصدق ، لا يشمئز قلبه من البشاعة التي هي الحروب والمرض والانانية والقسوة وكل ما يشكو منه عالمنا المعذب ! ... وعليه أن يحب أو يعتزل السياسة ! ! ...

فليس من المفروض أن يكون رجل السياسة (كومبيوتر زوجي) مثالي ، المطلوب منه أن يكون إنساناً ...

• • •

٢ / ١٢ / ١٩٧٤

نريد حاكماً عاشقاً !

أحد رؤساء الجمهوريات في أوروبا ..

بدأت الصرخات تتعالى مطالبة بإقالته (أو استقالته لا فرق) من رئاسة الجمهورية في بلده ... بتهمة الحب ! .

نعم ! ..

جريمته انه عاشق ! .. جريمته ان قلبه ليس مضخة رسمية . قلبه ينبض لغير الاوسمة الصدئة ، قلبه ينبض خارج قواعد لعبة البروتوكول والمؤسسات ...

إنه مجرم بتهمة الحب ! .. ألا يخجل هذا العصر ؟ ..

هذه النظرية العتيقة المهترئة يجب نسفها . تقول : رجل الدولة لا يحق له أن يعشق لانه يصبير عاجزاً عن حمل مسؤولياته ! .

هذا غير صحيح . بل العكس هو الصحيح ...

فالحب دليل على أن صاحبه حي إنسانياً ... الحب دليل شفافية ورقة وحساسية ووعي ، ودليل البعد عن الأنانية ودليل الالتصاق بالمعذبين في الأرض . وهذا العالم البائس حكمه حتى اليوم رجال من المحنطين صنعوا له البؤس والحروب والبشاعة — وتاريخ البشرية الحزين هو من صنع رجال لم يعرفوا الحب ! .

ولكن ليس من مصلحة تجار الحروب أن يحكم البلاد رجل عاشق . ليس من مصلحة جمعية المنتفعين من البؤس البشري أن تصطدم مصالحهم بأفكار إنسان شفاف ما زال قلبه « وجداناً ». لا «مضخة» ! «الرئيس» مدان بتهمة الحب ! متى ينضج هذا العالم ليحاكم كل من أقفل قلبه دون الحب ، ويجعل من شروط الحكم أن يكون الحاكم عاشقاً ؟ ..

١ / ٦ / ١٩٧٣

الجنس : البعد الأوحد للأخلاق ؟

« بروفيومو » جديد في بريطانيا اسمه اللورد « لامبتون » .

اضطر للاستقالة من منصبه الرفيع في الدولة لارتباط اسمه بفضيحة (كريستينية) ، ولوصول صوره إلى الصحف في أوضاع (غير لائقة) مع بنات الهوى .

وجميل أن تظل الاخلاق الحسنة شرطاً اساسياً لتولي المناصب العامة ، ولكن لماذا نتخذ دوماً من (الجنس) مقياساً وحيداً للأخلاق ؟ ... لماذا الاخلاق ذات البعد الواحد ، البعد الجنسي فقط ؟ ...

يبدو أن الجنس ما يزال مركز حساسية الأقوام كلها في الشرق والغرب ، ونقطة الضعف التي تستغلها المخابرات المعادية لابتزاز المعلومات من الرجال الأقوياء بتهديدها لهم بفضيحة أخلاقية .. ولكن ، لماذا يعتبر السياسي أن مخاطرة (الخيانة الوطنية) أهون من (الخيانة الزوجية) ، ويفضل أحياناً تسريب المعلومات على كشف فضيحة جنسية طائشة ، أو يضطر في أحسن الحالات إلى الاستقالة ؟ .

وإذا كان ذلك مفهوماً في المجتمعات الشرقية حيث (الشرف) مرتبط مباشرة بالجنس ، والجرائم الجنسية عندنا تسمى جرائم شرف ، فهل هذا ما يزال سارياً في أوروبا الغربية حيث سمح البرلمان البريطاني منذ أعوام بالزواج بين الرجال العشاق ؟!.

وما معنى ذلك ؟ ...

هل معناه ان الثورة الجنسية في أوروبا قشرة ، وارهاصات مراهقين حكموا الشارع في السنوات العشر الاخيرة بينما المجتمع الحقيقي الداخلي ما يزال عند مفاهيمه القديمة ؟ ..

هل التحرر موجة سطحية بدأت تنحسر وعما قريب تعود بريطانيا إلى مرحلة النفاق الفكتوري والتزمت العتيق ؟ ..

أكرر : جميل أن تكون الأخلاق شرطاً للعمل في الخدمة العامة ، ولكن الأجمل

هو الا تكون الاخلاق ذات بعد واحد هو البعد الجنسي ... وأن يكون التركيز على بقية النواحي الاخلاقية من نزاهة وصدق واخلاص وبعد عن المساومات معادلاً في أهميته لأهمية التركيز حالياً على النزاهة الجنسية ...

وإذا كان اللورد « لامبتون » يذهب إلى عشيقته خارج أوقات الدوام ، ما دخل الدولة به ؟ وإذا كان الخوف هو من أن يسرّب اليها اسرار الدولة ، فان الرجل الكثير الثرثرة قد يفعل ذلك في أي مكان وأمام اشخاص آخرين (محترمين) ولكن قد يكونون من الجواسيس أيضاً .. لماذا يرتبط الجنس في الاذهان دوماً بكافة انواع الخيانات بما فيها خيانة الوطن ؟ ...

ومتى يأتي اليوم الذي تطلب فيه المرأة الطلاق من زوجها لانه غير نزيه في تعامله الاخلاقي مع الناس ، لا لانها مثلاً ضبطته يغازل ابنة الجيران ؟ ...

متى يتخلص العالم من عقدة الجنس المهيمنة أكثر من أي هم إنساني أخلاقي آخر ؟ ...

٨ / ٦ / ١٩٧٣

نعم للحب . لا للرياء الاجتماعي ..

وأعود إلى اللورد « لامبتون » المسؤول البريطاني الكبير الذي استقال منذ اسابيع لتورطه في فضيحة جنسية شبيهة بفضيحة (بروفيومو وكريستين) منذ أعوام ...

الجدير بالذكران اللورد « لامبتون » كان قد تهجم بشدة على بروفيومو (الساقط) الذي يعاشر الغواني وانه كان يومئذ من أول الاصوات التي رفعت عقيرتها بمعزوفة الحفاظ على الاخلاق والشرف و (استهول) كثيراً ما فعله بروفيومو ...

وها هي الايام تكشف أن اللورد « لامبتون » لم يكن سوى (بروفيومو) آخر ...

وها هي الاحداث تثبت من جديد أن الغانية هي أكثر الناس قدرة على المحاضرة في الاخلاق ، والمجرم أكثر الناس حديثاً عن المسالمة ، والمسؤول الكبير المرتشي هو صاحب «المعلقات» عن النزاهة .

١٩٧٣/٢/٢

قصة الحب العربية تبحث عن مؤلف !

رغم ان الذين أحبوا وتعذبوا و « ماتوا حباً » وملأوا الدنيا توقاً ولهفة كثيرون ، كثيرون ، أكثر من نجوم السماء في ليلة صيف شفافة ، الا ان لروميو وجولييت مكانة خاصة في تاريخ العشق ...

ولكل شعب أساطيره عن العشاق الكبار ...

هنالك خسرو وشيرين ، وبيجن ومنيجة لدى الفرس ...

آرماندو وكاميليا لدى الاسبان .

عطيل وديزديمونا لدى أهل البندقية . . .

أنطونيو وكليوباترة ... وبول وفرجيني ، تريستان وايزولد ... وتتعدد الاسماء وتتبدل الجنسيات والحب واحد ، والحكاية واحدة ..

فجميع قصص الحب الخالدة هي قصص الحب المميت ، الحب ذو النهاية المفجعة ، الحب الذي يصفه « ديني دي رغمون » بقوله : « أيها الاسياد ، أيروق لكم أن تسمعوا قصة جميلة عن الحب والموت » ؟ .

لكن ، هل للحب السعيد قصة ؟ .

لا .

فما من قصة إلا عن الحب المميت ، أي عن الحب المهدد الذي أدانته الحياة ذاتها .

ولكن قصة واحدة ، هي قصة روميو وجولييت ، احتكرت دموع العشاق الصغار والكبار ، وصار اسماهما مضرباً للامثال في الحب ... وحتى حينما يقع العرب في الحب ، فانهم « يستوردون » هذا النموذج للحب المجنون المعذب ، نموذج روميو وجولييت ...

فلماذا ؟ .

تاريخنا العربي لا يخلو من العشاق الكبار ...

هنالك قيس وليلى ...

جميل وبثينة ... كثيّر وعزة ... عنتر وعبلة ... شهرزاد وشهريار ...

وفي اساطير أرضنا القديمة هنالك أدونيس وعشتار وعشرات غيرهم ... وفي كتب تراثنا مزيد من العشاق ... في كتاب الاغاني وحده (لابي الفرج الاصفهاني) قبيلة من الذين سقطوا صرعى على مذبح الحب ، ونزفوا شبابهم دونما ندم ... بل إنه يكفي أن ينبش كلاً منا ذاكرته لتطفو في عينيه عشرات من حكايا الحب التي عاشها بصدق وكان مستعداً أن يموت لأجلها بصدق ...

حينما صدرت رواية « قصة حب » لسيغال ، وضربت رقماً قياسياً في مبيعاتها ، وحينما تحولت إلى فيلم بكت له صبايا العالم الغربي وعجائزه ، أدهشت هذه الظاهرة العالم العربي .

فقصة الحب الاميركية هذه هي قصة بلا حب . انها عادية ، ساذجة ، بطلها الحقيقي هو « سرطان الدم » الذي قتل الحبيبة ... والمتفرج العربي لم يبك أمامها بالحرارة التي بكى بها الغربي ، لأن في حياة كل متفرج عربي « قصة حب » تفوق في عمقها وجنونها واندفاعها كل ما في الحب على الطريقة الاميركية ...

وفعلاً ...

مرت « قصة حب » لسيغال وتحولت اليوم إلى « فقاعة حب » ... وبطلاه اضحيا منسيين ...

وعاد روميو وجولييت ليحافظا على مركزهما كرمز عالمي للحب الخالد ...

ولكن ، لماذا روميو وجولييت ؟ ...

ليست مفاجأة أن نستورد الكومبيوتر والدبابة والرادار ...

ولكن ، أن نستورد أيضاً رموز الحب بدلاً من أن نصدرها ؟ ...

أليس في أساطير العرب وقصصهم عن الحب ما هو معاصر وإنساني الشمول وبعيد المدلول وقادر على أن يصير رمزاً للحب عندنا إذا لم ينتشر في الأرض قاطبة ؟ ...

لنأخذ حكاية قيس وليلى ... انها قصة معاصرة إلى أبعد الحدود ... قصة تمتع قراءتها حتى الطبيب النفساني الفرويدي .. انها حكاية حب المستحيل ... وعشق غير الممكن ، والتعلق بالحب لذاته إلى حد رفض الامتلاك ...

لنأخذ شهرزاد وشهريار ... انها قصة المرأة التي تريد أن تمتلك الرجل أطول

وقت ممكن وذلك بأن لا يمتلكها جسدياً ...

انها محاولة اطالة عمر الحب ... انها الوصفة السحرية للابقاء على انسانين على ذلك الخيط الرفيع الفاصل بين الفراق والاستنفاد ... بين الوداع والامتلاك النهائي ... انها محاولة ابعاد لحظة الاحتراق التي لا بد أن تتبعها لحظات صقيع الشبع ..

ومع ذلك فحكاية روميو وجولييت غزت العالم ، رغم ان هيكلها البسيط ، أي « الحدوته » فيها ، لا تخلو من الافتعال والميلودرامية والمبالغة ... وحكاية «قيس وليلى» المشابهة ، هي أكثر بساطة وعمقاً ورقياً انسانياً ، وأبعد عن الميلودرامية المفتعلة ...

وإذا كان من مبالغات روميو أن انتحر حين ظن جولييت ميتة ، وجولييت انتحرت حين صحت ورأت روميو ميتاً ، وكل هذه المصادفات المبالغ بها والسذاجة الميلودرامية ، فان كل ما فعله قيس هو انه ذات مرة أحرق يديه بينما هو مشغول عنهما بتأمل حبيبته ... كانت حرارة نظراتها تلهب ما تحت جلده أكثر من لسع النار على جلده ...

وهو انما جن حباً بالحب ذاته وهام على وجهه ، ولم يقم بمزايدات انتحارية في المدافن على طريقة روميو ... ثم إن حب قيس لليلى يجسد كل « المواصفات » للحب الخالد ، المعذب ، والعاشق الذي يعشق كنه الحب قبل عشقه للحبيبة ...

هذا من حيث هيكل الحكاية ومدلولها ... ولكن « روميو وجولييت » وجدا شكسبير العظيم ،الذي هو البطل الحقيقي لقصة حبهما الخالدة لانه كان هو خلودها.. أما « قيس وليلى » فما زالت حكاية حبهما تائهة في الصحـــارى تهومها الرياح مع عشرات من حكايا الحب العربية الاخرى المرشحة للخلود ... التائهة في ليالي شرقنا مثل ارواح قتلى لم يثأر لهم ... ولن يستريح ابطال هذه القصص، ولن تهدأ عذابات قلوبهم وغصاتها حتى يأتي الكاتب المبدع الذي يجسدها في عمــل أدبي مبدع خالد خلودها ...

وصحيح أن الشاعر شوقي قد فرّج بعضاً من كربة « قيس وليلى » المنسيين ... لكنهما ما يزالان يبحثان عن مؤلف ...

العشاق لا ينقصوننا أبداً ، الكاتب هو الذي ينقصنا ... وقصص الحب فيما يبدو هي من صنع المبدعين أكثر مما هي من صنع أبطالها الحقيقيين .

١٩٧٣/٢/٢

إذلال اسمه (الموضة) !

« الموضة نوع من البشاعة غير مقبولة لدرجة اننا نغيرها كل ستة أشهر ! » .
هذا ما يقوله الكاتب الانكليزي اوسكار وايلد .

والذي يتجـــول في شوارع بيروت ، ويتـــأمل واجهات الدكاكين العصرية جداً ، ويرى (فظاعات) الموضة التي يفترض أن ترتديها المرأة هنا ، يتأكد له ان اوسكار وايلد هو أفضل خبير ازياء في العالم .

ولكن الذي يرى المرأة العربية تتحول في « شارع الحمراء » ، ملتقى حسناوات العالم العربي ، المرتديات والشاريات لآخر الصرعات ، لا بد وأن تنتابه مشاعر أخرى أيضاً ، لا نحو الموضة ، وإنما نحو المرأة العربية بالذات .

فالموضة تبدو على المرأة الغربية « أقل بشاعة » مما تبدو على المرأة العربية . والسبب بديهي وبسيط ..

فجميع مصممي الأزياء العالمية غربيون ، وهم يرسمون ثيابهم للجسد النسائي الاوروبي لا الشرقي وللمناخ الاوروبي لا العربي . والمعروف إن المرأة الاوروبية — بصورة عامة — أطول قامة من العربية ، وأكثر نحولاً . والعربية أقصر قامة وتمتاز بالاكتناز — إن لم أقل السمنة — وبالارداف العريضة التي كانت من علامات الجمال (شاعر عربي قديم تغزل بحبيبته لأن « لها ردف إذا قامت أقعدها » !) ، وبالصدر الناهد (جداً) ، والاطراف الممتلئة .

نسل الخراف الاوروبية التي يشبه جسدها كلباً كبيراً يختلف تماماً عن نسل الخراف العربية ذات (الإلية) الشحمية المتدلية الرجراجة ، وهذا الاختلاف البيولوجي هو أمر واقع ولا مجال — ولا مبرر أصلاً — لتبديله لدى الخراف والنساء على السواء ! ...

إذن خبراء الموضة الغربيون يصممون ازياءهم « لحيوان » تختلف مواصفاته

الخارجية عن « الحيوان الانثوي » العربي ...

ومن البديهي أيضاً، ان الثوب الذي صمم لقامة طويلة نحيلة قليلة (المنعطفات)، شبه محرومة من (التلال والوهاد) ، سيبدو مضحكاً إذا ارتدته قامة لها المواصفات المعاكسة تماماً ...

ومع ذلك فالمرأة العربية مذ خلعت الحجاب والعباءة ، تقبل على ارتداء الموضة الاوروبية بدافع من التقليد الآلي الغبي ...

وعلى مر الاعوام وتبدل الموضات ، ظهرت في الشوارع مشاهد تثير السخرية والضحك ... في موضة « الشوال » التي تليق بقامة نحيلة بدت المرأة العربية مثل كيس يتدحرج في الشوارع ... في موضة « الميني جوب » ظهرت سيقان المرأة العربية القصيرة والممتلئة وغير الرياضية في الشوارع والازقة المحافظة لتكون تحدياً للذوق الجمالي قبل أن تكون تحدياً للمفاهيم الاخلاقية السائدة .

وهذا الصيف ، شاهدنا المرأة العربية عبثاً تجفف عرقها ومكياجها السائح وهي ترتدي البنطلون والجاكيت (البليزر) الطويل الاكمام والمصنوع من أقمشة سميكة ، فمثل هذا (الانسامبل) صنع لصيف أوروبا البارد ، وتم استيراده وتبنيه من قبل المرأة العربية بشكل آلي كأن مناخ بلادنا ملزم هو أيضاً باتبـــاع الموضة وليس العكس ... واترك لكل قارىء أن يستعيد في ذاكرته المناظر المؤذية باسم الموضة لسيدات مررن به وأضحكنه ! .

والمؤسف أن هذا التقليد الاعمى الغبي تتساوى فيه المرأة المتعلمة والجاهلة بل إن المرأة العربية العاملة تنفق راتبها لممارسة طقوس الموضة بشكل أعمى وهي تتوهم أن « التحرر » يعني فقط التمرد على أسرتها أو مجتمعها وتنسى أن التمرد الاصيل هو رفض كل ما هو غير منطقي وكل ما يستعبد انسانيتها وكل ما يشوه حقيقتها ولو كان الشخص هو السيد بيير كاردان أو تيد لابيدوس أو غيرهما من « أباطرة الموضة» الذين اعتقد انه لا أحد استطاع أن يسخر من المرأة ويذلها كما يفعل مصممو الأزياء ..

وهكذا كانت المرأة العربية جارية ، وهي اليوم بعد تحررها ما تزال جارية أمام الذوق الاوروبي الذي يستعبد قدرتها على الابتكار . كانت جارية محجبة ، وصارت اليوم جارية « بالميني جوب » ..

وحتى اليوم لم يأت مصمم الازياء العربي الذي يدرك أن تصميم الازياء ليس مجرد قص للقماش وتخييطه وانما هو نتيجة معادلة ذهنية ابداعية يجب أن يدخل في اعتبارها

شكل جسد المرأة العربية ، وطقس بلادنا ، وعاداتنا وتقاليدنا ، ومستوى معيشتنا الاقتصادي ، والمرحلة التاريخية التي تمر بها بلادنا ..

إذن تصميم الازياء عندنا بحاجة إلى الإبداع لا التقليد الاعمى الغبي ..

المطلوب « مبدع » أو « مبدعة » عربية ، تحررنا من استيراد الصرعات وتبرز جمال الشرقية بدلاً من أن تحيل مواطن حسنها إلى بشاعة ، وتفكر باستغلال الاقمشة المحلية للصناعات الوطنية ، وتستوحي تصاميمها من التراث بعد إلغاء ما لا يتناسب وحاجات العصر ، وتتذكر طاقات رجالنا المحدودة مالياً ، والمرحلة التاريخية التي تمر بها بلادنا والتي تفرض على الجميع مظهراً انيقاً ولكن متقشفاً ، لأن المرأة (الطاووسية) المظهر وسط صحراء بؤس شعبنا العربي تصير منفرة ونابية مثل منظر رموش مستعارة على عيني راهبة ...

إذا ظلت فوضانا على ما هي ، سيأتي يوم نترحم فيه على مزايا « العباءة » والحجاب ، على الأقل كانت عورات المرأة الفكرية مستورة تحتها ! ... وكانت توفر علينا كرنفال البشاعة والتخلف هذا ، وتوفر على دخلنا القومي ثمناً باهظاً في زمن من المفروض انه زمن حرب .

١٨ / ٤ / ١٩٦٩

يعيش الموت .. كي يستمر شعبي ! ..

سيدتي العربية اينما كنت أخاطبك ... مسترخية تحت «السشوار»، متسكعة على ابواب دور الازياء ، أو ملفوفة في حجاب فوقه حجاب ... أروي لك حكاية امرأة عربية من النساء اللواتي وعين حقيقة نرددها جميعاً كالببغاوات دون أن نفعل شيئاً ازاءها .. حقيقة اسمها قنبلة نابالم تترصد وجهك الجميل الذي تقضين الساعات في وضع « قناع » الخس والخيار والحليب لتنشيط بشرته وصبغه وتلوينه استعداداً لكرنفال اجتماعي تبدين فيه أكثر غموضاً وجمالاً من الجوكوندا ، وحفلة شيقة تبعثين فيها اجواء عصور الجوكوندا ...

سيدتي ، لست ضد الجمال ، ولكن لا جمال مع الذل .

سيدتي ، بينما تقضين دقائق صمت متوترة ، وعضلات يديك متحفزة تعمل بمهارة (ليس لأنها تقبض على قنبلة أو بندقية) وانما لانك تلصقين رموشك الاصطناعية مثلاً ، أحب أن أروي لك حكاية امرأة عربية مثلك اسمها أمينة دحبور .

أمينة دحبور ! سترفعين بقايا حاجبيك اللذين لما تتممي رسمهما بعد وتتساءلين : سمعت بهذا الاسم ؟ اين ؟ اين ؟ .. ستستعرضين آخر الفضائح الشهية التي كانت موضوع (صبحياتك) .

لا .

أمينة دحبور يا سيدتي امرأة تنتمي إلى عالم آخر لا تعرفينه وإن لم يعد هنالك مفر من أن يكون عالمك لتدافعي عن بقائك ..

الشتاء بارد وقارس . الصيف سياط نار ... طوابير الآباء تحمل بطاقات الذل ، بطاقات الاعاشة ، وتقف أمام دكاكين تخدير الشعب الفلسطيني : وكالة الغوث . لكل رغيف وكامة ... « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » يقولونها ، ويقيمون الصلوات الخمس ، وينامون على كلمة « توكل » وينسون الجزء الاساسي والاهم

« إعقلها » أي « اعمل » ...

أمينة دحبور عمرها اليوم ٢٣ سنة . فتحت عينيها في مستنقع الذل هذا ، حيث الفرد الفلسطيني محروم من أبسط الحقوق الإنسانية ...

ولكنها من جيل آخر ... جيل اكتشف الدرب الحقيقية والوحيدة من أجل حياة كريمة (في الدنيا قبل الآخرة !) ... الدرب الحقيقية والوحيدة : الثورة ...

الثورة لا بمعنى ثورة البنت المدللة على والدها المحافظ من أجل ارتداء زي فاضح ... واكتساب مزيد من النقود من الزوج بالدموع أو (غض النظر) ...

الثورة بمعنى العمل أولاً . (كانت أمينة تعمل مدرّسة) ...

والثورة بمعنى الوعي الفكري ... (وها هي تنضم إلى إحدى المنظمات التقدمية)...

والثورة بمعنى استرجاع الأرض ، واسترجاع الكرامة : أي حق الفرح والخير والجمال والحياة ...

عام وعام وعام ... الشتاء قارس يجلد الخيام بالصقيع (الخيمة ليست بالضرورة تلك التي نراها في الصور . كل دار بلا جذور هي خيمة لمتشرد بائس) ... الصيف تنين نار يجلد الخيام بسياط اللهيب ... وأمينة ، في مستنقع الذل تنبت وردة وحشية .. وردة من شوك بري أحمر ...

هزيمة ١٩٦٧ قالت لامينة دحبور ولنا أشياء كثيرة ... قالت للفلسطيني : ارم بطاقة الاعاشة واحمل إصبعاً من الديناميت ... وقالت لكل عربي في كل مكان : سيأتي دورك ... لن يبقى لك جدار .

ولأن الذي يعيش المأساة ليس كالذي يستمع اليها عبر الترانزستور ... لذا كان من الطبيعي أن ينضج الشعب الفلسطيني قبل بقية الشعوب العربية المحيطة به — التي لما يصل حد السكين إلى رقبتها بعد — ، (تماماً كما انضجت المأساة الشعب الجزائري من قبل) ..

وهكذا لم يكن هنالك فرق بين الذل في غزة ، والذل في مخيم البقعة الذي انتقلت اليه أمينة بعد احتلال غزة ...

لا ...

كان هنالك فرق ... في مستنقع الهزيمة نمت أشرف بذرة للنصر اسمها العمل الفدائي ...

وأمينة دحبور لم تعد ترضى بقيم موروثة تجعل منها عالة على الفدائيين .. انها واحدة منهم ..

أمينة دحبور الفدائية في الجبهة الشعبية اشتركت في عملية زوريخ الشهيرة كقائدة بديلة ...

كانوا أربعة ... تاء التأنيث في اسم أمينة لم تعد قيداً كما ارادت لها عصور التخلف أن تكون ...

مع الرفاق ، اشتركت في الهجوم على الطائرة الاسرائيلية ...

وحينما سقط قائد العملية عبد المحسن على الثلوج ودمه النازف يعلّم بياضها النقي حكاية الحرية ، لم تلعب أمينة دور الندابة الذي كُرّست له المرأة طيلة عصور (لو كان المشهد في فيلم عربي ، لأمر المخرج أمينة بأن « تدب الصوت » ، وتولول كندابات « زوربا » وربما تنشد اغنية مطلعها « يا دهوتي » .)

تقدمت أمينة من رفيق النضال المحتضر فوق ثلوج الغرب (وكانت أرض المطار يومها قلباً لا ينبض وتكسوه الثلوج ! قلب العالم الغربي) ، وانحنت على الجسد الذي لمسا تهمد الحياة فيه وفي شبه ابتسامة طبعت على جبينه قبلة ، لن اصفها الا بأنها نقيض قبلة يهوذا على جبين المسيح ! ... وهمست في اذنه بشيء ما ... ترى ماذا قالت له ؟ ...

ترى ماذا همست في اذنه؟.. يا بطل؟يا شهيد؟سنعود؟ لا...لا أظنها قالت أياً من هذه الشعارات المهترئة ... أظنها قالت له : أيها الأناني ... احتكرت شرف الرصاصة !

سيدتي ، تأملي صورة أمينة دحبور ...

انها متألقة ... أنيقة ... تضع الكحل في عينيها ... شابة وجميلة ...

الكحل ليس مرادفاً للتفاهة . التفاهة ان لا يكون في عيني المرأة الا الكحل ، وفي عيني أمينة تاريخ ...

سيدتي ...

تعبنا من الفهم السطحي لفكرة (المناضلة) و (المفكرة) والمرأة الجدية .. المرأة (المفكرة) ليست بالضرورة بشعة ، ولا عجوزاً ، ولا عانساً ، ولا يائسة ... انها انثى أخرى مثلي ومثلك تحب الحياة كما نحبها ، لكنها أكثر وعياً في هذا الحب ، ولذا فان سلوكها يتخذ صورة الدفاع عن أهم ما في الحياة : الكرامة ...

* * *

الصورة التقليدية للمرأة الفلسطينية اللاجئة : امرأة محنية الظهر ممزقة الثياب مشعثة الشعر منكسرة النظرات كأنها تستدر شفقة الدنيا ...

إن عظمة أمينة دحبور ورفيقاتها تكمن في نسف هذه الصورة البشعة التي ظن بعض إعلامنا الغبي طيلة أعوام انها سلاح مجد لكسب الرأي العام ... وقد كانت كذلك حقاً ولكن ، في كسب احتقاره ...

وبعد ، عذراً يا سيدتي إذا كنت قد خدشت مخمل اذنيك بصوت الرصاص ، ورائحة (بارفانك) برائحة الدم والبارود ...

لكنني لم املك إلا ذلك وانا اقرأ خبراً صغيراً في إحدى الصحف عن « حفلة المبتدئات » التي يزمع المجتمع البورجوازي البيروتي اقامتها لابنتك وبنت الجارة في شارع (وهم الرقي والاشعاع) ...

ربما كنت الآن تخيطين لها الفستان الأبيض الطويل ... وتجهزين لها القفازات البيض الطويلة لتطل بهما إطلالة جميلة على (المجتمع) على الحان الفالس والتانغو وعصور شتراوس ...

سيدتي ، خيطي لها لباس ميدان .. وحمّليها بندقية .. نحن مجتمع حرب شئنا أم أبينا . الحرب مفروضة علينا ... لا مفر ...

سيدتي ، اجعلي منها « مبتدئة » حقيقية ... مبتدئة « ساحة حرب » لا « ساحة رقص » ساحة « وعي ثوري » لا ساحة « مصارعة ثيران » المجتمع الدونجواني ...

الا تشمين رائحة النار ؟ الا تحسين باقتراب الزلزال ؟ ...

٢٨ / ١٠ / ١٩٧٤

نحن نكره أطفالنا ..

في بون في المانيا الغربية ، تظاهر عدد كبير من الاطفال احتجاجاً على ما اسموه « كراهية الكبار لهم » .

وقد حمل كل متظاهر لافتة كتب عليها : « انكم ايها الكبار تحبون الكلاب أكثر من الاطفال » ! وطالب المتظاهرون بالسماح لهم باللعب في الحدائق العامة أسوة بالكلاب والاهتمام بهم ... وإلى جانب الخبر نشرت صورة اطفال ألمان في صحة جيدة وعليهم علامات الرفاهية ...

وفكرت : لو تظاهر اطفال العالم العربي ، ماذا يقولون ؟ .. وكيف يبدون في الصورة ؟ وماذا يكتبون على لافتاتهم ؟ ..

تخيلتهم قافلة من الشاحبين والمتعبين — مع أقلية من المرفهين — ... ستعجز اجسادهم المصابة بالوهن وفقر الدم عن حمل اللافتات الكبيرة ... أكثر اللافتات ستطالب بالرغيف ، بالحليب ، بالكتاب ، بالفرح ، بالحرية ، بالعيد . ولا بد من لافتة يحملها طفل ما تطالب بالوحدة العربية ... الوحدة العربية التي يتضمن تحقيقها الحل لاكثر مآسينا العربية .

ولكن ، ما الذي نمنحه لاطفالنا في درب تحقيق الوحدة العربية ؟ وإذا خرجوا في مظاهرة ، ماذا نقول لهم ؟ وكيف نبرر لهم عدم اهتمامنا بهم ، إذ لو اهتممنا بمصيرهم حقاً لأولينا قضية الوحدة اهتماماً أكبر . ماذا نقول لهم ؟ سيصرخون في وجوهنا : انتم تكرهوننا لانكم تحرموننا من المستقبل ... والمستقبل الوحيد هو الوحدة . ماذا نقول لهم ؟ سنعترف لهم ...

سنعترف بأننا لا نزال نعامل الوحدة العربية كما يعامل الشعراء حبيباتهم : نتغزل بالوحدة العربية ... نتحدث عن محاسنها ... نتوق اليها ... نحلم بها ... نغضب لأجلها وحتى نقتل لاجلها ... ولكننا ببساطة لا نحققها ... وإذا حاول مخلص ما أن يحققها

اصطدم بآلاف العقبات التي يضعها في وجهه عشاقها المزيفون والغيارى عليها المدعون!

ولكن قلما يتزوج الشاعر حبيبته ، فالحب الخطابي شيء « والتنفيذ العملي » شيء آخر تماماً . والوحدة معرفة كما كل لقاء انساني معرفة . والوحدة حقيقة يجب أن نعيها في اعماقنا ، وهي حقيقة جماهيرية قبل أن تكون رغبة فردية من المسؤولين .

وجيلنا البائس المفسود شاهد فشل أكثر من تجربة وحدة عربية بين قطر وآخر ... ولم تكن النوايا وحدها مسؤولة عن الفشل بل الجهل أيضاً . وحينما أقول « الجهل » فأنا أعني الكلمة بمعناها البسيط والعادي ، أي بمعنى عدم العلم بالشيء .

وإذا سأل شخص ما نفسه عن بقية البلاد العربية لأذهلته ضحالة معلوماته الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ، القديمة والمعاصرة ... ولأذهله جهله بأهمية النتائج العملية للوحدة العربية .

إننا نعشق العروبة لكننا لا نعرف العرب ... إننا نحلم بالوحدة لكننا نجهل الذين نريد أن نتحد معهم ، ونجهل كم الاتحاد معهم محتوم إذا اردنا البقاء . رغباتنا مبنية على العواطف مع أن معرفة هذه الأرض الشاسعة وثرواتها الطبيعية والبشرية هي الركيزة الأولى للوحدة ولفهم حتميتها ... وإذا كان ملح جيلنا قد فسد فإن الاجيال الطالعة ليست خيراً منا . اننا نربي اطفالنا بطريقة انكلوساكسونية أميركية مروعة : « الكاوبوي » بطلهم القومي . زعيق سيارات السبور مهبط وحيهم . الكاراتيه صرختهم المفضلة . انهم يربون في احضان التلفزيون الفاسد والاذاعات المغتربة عن واقع رغباتنا .

قضية الوحدة في حاجة إلى العودة إلى أبجديتها ، وفي حاجة إلى غرسها في نفوس اطفال الجيل العربي الصاعد بشكل معرفة موضوعية . يجب أن نعلم اطفالنا الوحدة لا عن طريق المظاهرات والشعارات المرفوعة بل عن طريق مخطط واع مدروس وخاضع حتى لاشراف علماء النفس .

يخيل إلي أن إنشاء محطة اذاعة خاصة بالاطفال أمر لن يؤذي ميزانية الدول العربية الموسرة ... محطة اذاعة تشرف على برامجها وزارات التربية في البلاد العربية كلها ، تبث برامجها خصيصاً لخلق الوعي بالوحدة العربية كحقيقة موضوعية ، وزرعها في النشء منذ نعومة أظفارهم ... برامج تكرس ابطالنا القوميين العرب ، وتفتح عيون الصغار على جغرافية وتاريخ العرب في كل الاقطار ، وعلى واقعهم العربي الحقيقي ، فتربطهم بالتراث ربطاً غير مفتعل متحاشية ثقل الظل الذي يلازم عادة أكثر البرامج

التربوية الموجهة في بلادنا .

اننا في حاجة إلى منظمة أو مؤسسة للوحدة العربية تخطط عملياً لحلمنا الازلي ، وإلى اذاعة للاطفال العرب في كل مكان ، تعرض لهم منذ الطفولة واقعنا دونما مواربة تفهمهم سموه وسقطاته ، وتنعش حاسة الوحدة النائمة في دمهم ، وتغذيها بالمعرفة الضرورية لكل عمل ايجابي بناء ...

لو تظاهر الاطفال العرب لاختبأ الكبار ، ولواروا وجوههم بعيداً عن عيون الجيل الطالع الذي نربيه في أحضان التعتيم الاعلامي والتجهيل التام بموقعه من الكرة الارضية ومن وطنه الكبير وتاريخه وتراثه وبالتالي نربيه على الاغتراب ونخلق منه مهاجراً عن وطنه رغم اقامته على أرضه ! عملياً نحن نكره أطفالنا ما دمنا لا نمنحهم سلاحاً ليواجهوا به مستقبلهم .

ابدأوا باذاعة الوحدة للاطفال العرب . انها خطوة اولى في درب الوعي الحقيقي بالعروبة ، واعادة اكتشاف الذات العربية وبنائها ...

لا تقولوا لي أن الشعب العربي فقير ولا يملك الراديو ، الشعب العربي فقير لكنه يفضل « الترانزستور » على الرغيف . لقد ارتبط اسم الراديو « والترانزستور » بابشع هزيمة عرفها العرب ، وهي هزيمة عام ١٩٦٧ ، حينما حارب الشعب العربي من وراء « الترانزستور » وهزم بـ « الترانزستور » . هذه الآلة البغيضة ، المرتبطة في اذهان جيلنا بأغاني الترهل والاسترخاء والتخلف والهزائم ، عسى أن ينطلق منها صوت العروبة لكل الاطفال العرب . وبعد ان لعبت في عمر الآباء أبشع دور ، عسى أن تكفر عن ذلك وتلعب في عمر الابناء دوراً بناء مثمراً ! .

تراها صيحة في واد ؟ وسيظل أبناؤنا يتربون في أحضان « الكاوبوي » وزعيق السيارات السبور و « السوبرمان » الاميركي وأغاني «الطشت قاللي » والمواعظ الخطابية المحنطة ؟ ! .

ربما ! ...

ولكنني صرخت واسترحت .

١٩٧٤/٦/٢٤

علاقات تحت الشمس

لي صديق يسكن البحر . يعيش وحيداً منصرفاً بكليته إلى كتاباته وتأملاته وعالمه الروحي الثري . لا يزور وقلّما يزار . لا يستعمل الساعة ولا النقود ، وليست له علاقة بعالمنا المادي ، فهو مفكر عربي من قطر شقيق .

قرأ كلمتي التي اشكو فيها من « الحفارات » الآلية المحيطة ببيتي وضجيجها ، وجوعي إلى عالم من السكينة والهدوء لأكتب ، فهتف إلي ودعاني اليه لأكتب في عالمه البحري الهادىء .

هذا الصباح قررت الذهاب اليه لاكتشاف مغارته ، ولزيارته . شعرت ، ببساطة، انني اتوق إلى عالمه المسكون بالصفاء والعزلة ، فذهبت اليه ومعي أوراقي . في الطريق لقيت بالمصادفة صديقة أصرت على مرافقتي اليه لإعجابها بسطوره . ذهبنا معاً اليه . على باب المسبح سألت الموظف المسؤول عن موقع « الشاليه » الذي يقيم فيه ، وسرنا نحوه .

فوجئت وصديقتي بشاب يلحق بنا . يقول باصرار كالحفارة : « ممنوع الصعود إليه . سيهبط إليكما . »

وبالفعل ، ظننت للوهلة الاولى ان الشاب حارسه الخاص المكلف بحمايته (فهو ايضاً شخصية سياسية مهمة) وقلت له مطمئنة :« لا تخف عليه. لا ننوي اغتياله وليست معنا اسلحة . »

وكدت اطلب اليه تفتيشنا (كنت قد جئت أحمل المحبة فقط ، ولم اكن ادري انه لو وجدها لصادرها) . لكنه عاد يكرر: « ممنوع زيارته . سيهبط هو لاستقبالكما في الصالون . »

سألته بدهشة : « لماذا ؟ هل هو سجــين سياسي أم معتقل ؟ » (ظننته تحت الحراسة !) ...

بدا على الرجل الارتباك ولاحظت من ثيابه انه احد موظفي المسبح ، لا موظفي الصديق . قلت : « بصفتي صحافية اريد ان افهم لماذا غير مسموح بزيارته ! »
وانسحب الشاب بتهذيب صامت .

وبينما نحن نصعد الدرج قالت لي صديقتي : لماذا لا تفهمين ؟ انه ببساطة لا يريد ان نصعد لاننا « حريم » وصديقك « رجل » !

هكذا ، ببساطة ، لا يزال العالم مقسماً انطلاقاً من هذين الاعتبارين الشديدي التبسيط للاشياء .

وهكذا ، ببساطة ، ما زالت فكرة الصداقة بين المرأة والرجل غير متعارف عليها ، بل ويثير وجودها الدهشة وحتى الصمت (لذلك انسحب الموظف صامتاً ! لاحظ انني لا أتكلم لغته ، ولا أرى الأشياء كما يراها) .

الرجال فقط مسموح لهم بزيارته ، فهم اصدقاؤه . اما المرأة فهي كائن مشبوه حتى يثبت العكس . المرأة مدانة بالخطيئة حتى تثبت براءتها وليس العكس . وكل علاقات المرأة مع الوجود هي قسمين : أبيض وأسود . علاقات شرعية مع الزوج والاولاد والاهل ، وغير شرعية مع بقية الناس . كل رجل غريب هو « مرشح عشيق » أو « عشيق سابق » ! ..

لماذا يتوهمون ان المرأة لا تملك غير جسدها وبالتالي فكل تعامل لها مع أي رجل لا يمكن إلا أن يتم عبر جسدها ؟ !

إن رفض إمكانية وجود صداقة على الصعيد الانساني بين رجل وامرأة هو اعتراف ضمني بنظرة المجتمع المتخلفة جداً للمرأة ، ووهم خاطىء بأنها لا تملك أي فعاليات تمارسها غير فعالياتها « الحريمية » .

تعقد الندوات التي تتحدث عن حقوق المرأة ، فتجلس النساء في الفنادق الكبيرة ويكتفين بسرد مطالبهن وتوجيه مذكرات للمسؤولين حول ذلك . قضية المرأة لا تحلها التخطيطات الفوقية فقط وانما ثورة سلوكية تقوم بها المرأة عملياً . المطلوب تحريض المرأة على ان تتصرف ببراءة وبصدق وبعفوية ، دونما خوف من نظرة الاخرين لها ومحاضرهم الاتهامية . والمطلوب تحريض كل فتاة سنها فوق الـ ١٨ على التصرف بلا عقد مسبقة بالذنب ، والاصرار على المساواة عملياً ، واولى بدهيات المســاواة امكانية وجود صداقة بين الرجل والمرأة .

لا ادري كيف نتوقع ان تنشأ علاقات صحية وانسانية بين المرأة والرجل اذا

لم يكن مسموحاً لها بأن تنمو تحت الشمس وفي ضوء النهار .

أم أن علينا ان نلتقي اصدقاءنا في الستيريوهات المعتمة فقط ؟ ! .

في غرفة الصديق لاحظت وجود قارورة «سبراي» وقد كتب عليها « Air freshner » أي مطهر للهواء . وحملت القارورة ووقفت على الشرفـــة أرش الرذاذ المطهر على الريح وفضاء المسبح ، فقد احسست ان كل شيء ملوث ملوث وسخته نظرة الناس القاصرة إلى العلاقات والبشر ، وظللت أرش طويلاً لكن الشمس ظلت ذابلة والبحر بدا لعيني بركة وحل شاسعة وخيل الي أنني اسمع بكاء الاسماك وصوت حفارة جهنمية تلاحقني اينما ذهبت ...

وفرغت قارورة « مطهر الهواء » وظل العالم قذراً ، وظل البحر حزيناً رغم ابتسامة صديقي وظلت الحفارة تطاردني . حفارة ما ، بطريقة ما !

٩ / ٤ / ١٩٧١

نريد تجديداً لا تخديراً

التجدد هو من بعض ارادة الحياة في الطبيعة الام ... إنه قانون الحياة الاول ...

الطبيعة العظيمة هي أبداً ضد الرتابة ومع التجدد ، وليست رغبة المرأة المتفجرة في التبديل والتجديد الا جزءاً من رغبة الطبيعة ، بل هي دليل انتمائها الاصيل إلى الكل الواحد الشامل : الطبيعة ...

الطبيعة العظيمة هي الهة التجدد . انها لا تهدأ لحظة واحدة ... تأتي بالليل ليلونها بظلاله . ثم النهار ليلفها بثوبه الذهبي . البحر لا يهدأ لحظة ، يتجدد كل ثانية بالمد والجزر ، بجنون العواصف وبسكينة الليالي المقمرة ... الأنهار تغير مجراها ... الإعصار يغير وجه الغابات والجبال والوديان . الزلازل تغير زي الارض وقشرتها ... البراكين تتفجر . الينابيع تنبثق . كل شيء في حركة دائمة ... جسد الارض بأكمله يغير ثيابه أربع مرات كل عام منذ الأزل ... ربيع صيف خريف شتاء . والطبيعة ترتبط دورة العطاء والاثمار فيها بظاهرة التجديد الدائم في مظهرها الخارجي ... وعملية العطاء في الطبيعة مرتبطة أبداً بالتجدد : الطبيعة تخلع ثياب أشجارها . تبدلها كل عام . حتى السماء تبدل ثيابها كل لحظة . كل ما في الطبيعة في حركة دائمة . في تلون دائم . حتى الكرة الارضية بأكملها تجدها تبدل زي اليابسة عليها ... هنالك قارات باكملها يغيبها المحيط ، مشاركاً بقية قوى الطبيعة في تغيير زيها من تضاريس وألوان وأصوات وروائح وفصول ... أجل . كل ما في الطبيعة في حركة دائمة . في تلون دائم ... في إعلان دائم عن غليان الحياة فيه . وحيوانات الطبيعة تقودها غريزتها إلى التجدد الدائم تماماً كالأم العظيمة الطبيعة ، وعلى صورتها ومثالها ... الأفعى مثلاً تخلع جلدها وتخلفه ببساطة فوق الرمال وتتابع سيرها في زي جديد وفي نبض جديد للحياة ليس تبديل القشرة الا من بعض مظاهره ...

المرأة ايضاً...انها في حكايتها مع (الموضة والثياب) تعبر عن غريزة حقيقية وموجودة هي غريزة التجدد ... (وإن كانت تعبر عن هذه الغريزة تعبيراً خاطئاً أو مبالغاً فيه أو

تهريجياً أو تافهاً احياناً) .

وغريزة التجدد يجب ان تُفهم كما تفهم بقية الغرائز كلها ... وكما نعرف ان بقية الغرائز يمكن أن تنحرف أو أن تتضخم أو أن تسود الانسان بدلاً من ان يسودها، كذلك حال غريزة التجدد .

وكما ان غريزة الاكل التي كانت في البداية بسيطة تقتصر على قطف الثمار صارت لها اليوم مؤسسات ومعامل وشركات وصارت لها سلسلة من المطاعم ومجموعة من الطقوس التي تؤدى خلال ممارستها كذلك نجد ان غريزة المرأة البسيطة في رغبة التجدد صارت لها اليوم مؤسسات وطقوس وغير ذلك ... المطعم لارضاء غريزة الأكل مثل دار الازياء لإرضاء غريزة التجدد .

من هنا لا أستطيع ان أفهم لماذا لا يعترض الناس على المطاعم الفخمة ولا يعتبرونها هدراً للمال ولكنهم في الوقت ذاته يعترضون على دور الازياء التي هي مطاعم لإرضاء غريزة الجوع إلى التجدد ... وكما في عصر الرومان ، حين كان الاباطرة والاثرياء يأكلون ثم يعمدون إلى قذف ما أكلوه من معدهم بعد أكله مباشرة كي يعاودوا لذة الاكل من جديد ، وكي يمارسوا لذة اشباع غريزة البطن في أقصى درجات بهيميتها، فان ذلك هو بالضبط ما تفعله المرأة التي تبدل ثيابها عشر مرات في اليوم دون مبرر . إنها تسيء استعمال غريزة موجودة فيها ، لكنها لا تخترعها ! ... والانسان ثار على سوء استعمال بعض الفئات لغرائزه ولكنه لم يستطع مرة ان يلغي هذه الغرائز . كلنا ضد حكاية أباطرة الرومان مع الاكل ولكن ذلك لم يدفع أحداً إلى المناداة بإلغاء الاكل . بل ان الانسان اعتاد ان يكون عبداً لكل غرائزه إلا أجملها وأكثرها صدقاً وهي غريزة التجدد تلك . هناك مصانع كاملة تقوم بصنع آلات غريبة عجيبة يستعملها الناس اثناء ممارسة عملية الاكل ... إن أكل (حيوان اللوبستر أو الكركند) في مطعم (راق) يستوجب استعمال أكثر من سبع سكاكين وشوكات ومثاقب مختلفة الألوان والاشكال ويمكن ان تكفي لاجراء عملية جراحية لإنسان مشرف على الموت ، لكنها تهدر في هذا المجال دون ان يرتفع صوت للاحتجاج على ذلك ، في حين ترتفع الأصوات ضد مصانع الأزياء والعقود وبقية كماليات المرأة ... (وكلاهما يستوجب الرفض) إنني ببساطة أحاول أن أقول : إن غريزة التجدد مثل بقية غرائز الانسان كلها، قد أُسيء استعمالها على مر العصور .

وان المـــرأة حين تسيء استعمال غريزة حب التجدد ، لا تشكل ظاهرة بحد ذاتها ، وانما هي جزء من ظاهرة أعم واشمل هي ظاهـــرة اساءة استعمال

الانسان لغرائزه كلها على كل صعيد ...

إن رغبة المرأة في تزيين ذاتها هي أصلاً جزء من رغبة الانسان في تزيين حديقته وداره وجدرانه وحتّى حيواناته ... الرجل يزين سياراته ... يغير (ثيابها) كل عام... وقبلها كان يزين حتّى دابته ... واليوم يزين حتّى كومبيوتره ... وهو أيضاً يزين نفسه ... يمارس رغبته في التجدد وفي التفرد في حقل الازياء كما يمارسها في بقية الحقول الاخرى...لكنه يمارسها بحذر أكثر...بشكل سري وخبيث أكثر... الرجل لا يستطيع ان يكبح جماح رغبة التبديل لكنه أكثر مهارة في إخفائها وفي التحايل عليها (فالمرأة ما تزال بنت الطبيعة،ما تزال أقرب إلى الطبيعة،لذا فهي تعلن عن غريزتها هذه بعفوية وتمارسها ببراءة ساذجة كثيراً ما تسقط بها في هوة التفاهة والرخص والتهريج . أما الرجل ، ابن المجتمع المحنك — بحكم عوامل تاريخية لا مجال للخوض فيها الآن — فانه يعبر عن غريزته هذه بمداهنة مرائية جبانة) ... الرجل يبدل كل عام موضاته . صحيح انها تبديلات كانت إلى وقت قريب طفيفة ، لكنها موجودة . إنه يبدل موضع زره على الأقل ! . أو عدد ازراره . يستبدل بزته ببزة مشابهة لكنه يبدلها . صحيح انه يرتدي الكرافته منذ عشرات الاعوام لكنه يبدلها مع كل عام : مرة كرافته أكثر عرضاً . مرة اضيق . مرة زاهية الألوان . مرة داكنة . المهم انه يبدل في مظهره وينفق النقود الطائلة على هذا التبديل وينفق أكثر كي يظل هذا التبديل غير ملحوظ ... (ذَكَرُ بقية حيوانات الطبيعة أكثر صدقاً من ذكر المرأة . الطاووس مثلاً ، لا يخجل ذَكَره من أن الطبيعة خصته هو بالرياش الملونة) .

وهكذا نلحظ ان المجتمعات التي تسيء فيها المرأة استعمال غريزة حب التجدد ، هي نفسها المجتمعات التي يساء فيها استعمال غرائز الانسان الاخرى (الأكل حتّى البطر . الجنس حتّى التفكك الاخلاقي. المحافظة على البقاء حتّى انتزاع هذا الحق من الآخرين ... الخ) ...

إذن ، إن معزوفة : المرأة تهدر الاموال على الموضات ، ليست سوى نظرة محدودة وضيقة إلى المأساة الانسانية الأبعد شمولاً . إن (زي) المرأة ليس سبب شقاء هذا العالم ولا سبب حروبه التاريخية ولا سبب الجشع والقبح والبؤس الذي يغمر العالم ، ولكنه مجرد ظاهرة من الظواهر الكثيرة التي تعبر عن انحراف غرائز النفس البشرية وبالتالي شقائها ... ان الانفاق على صنع ثياب جميلة للمرأة هو أقل شراً في نظري من الانفاق على قنبلة ذرية ترمى كل عام في مكان ما . وإذا كان لا بد من الاختيار

بين الانفاق على مؤسسات كريستيان ديور وبين الانفاق على مؤسسات صنع النابالم وتطوير اسلحة الدمار لاخترت للوهلة الاولى الشر الاول ، ثم لقررت انه من الضروري ان يكون هنالك خيار ثالث ...

ولكن ما هو هذا الخيار الثالث ؟ هل هو الحل (الماوتسي تونغي) للمشكلة ، حيث اعلن في الصين عن توحيد الثياب وحيث يرتدي (٨٠٠) مليون انسان من ذكر وانثى ثياباً متشابهة تماماً قماشاً ولوناً وتفصيلاً ؟ . هل هو في الحل الروسي للمشكلة ؟ وإلى أي حد نجح الحلان ؟

هنالك دراسة طريفة حول الثورة الروسية تقول ان الشيوعية وجدت خصمها الأكبر في المرأة لان المرأة بطبعها ميالة إلى ان تكون فرداً استهلاكياً يشجع الموضة ويطالب بالكماليات .

هذه النظرة في اعتقادي ضيقة الافق وقاصرة وتحاول تجاهل حقائق أبعد غوراً في النفس البشرية . والواقع انه لدى الرجل والمرأة على السواء ، أي لدى الانسان ، رغبة قوية في التفرد وفي اثبات الذات – هذا بالاضافة إلى انضوائه في سلك المجموع – . فكل إنسان يظل فريداً ومختلفاً عن الآخر تماماً كما تختلف بصمات اصابع كل عن الآخر (لكل الناس اصابع ، ولكن بصماتها مختلفة) ... وهو بالتالي يميل إلى التعبير عن هذا التفرد في كل مجال – بما فيه مجال الثياب – والحكومة « الشيوعية » في الصين زمن الثورة الثقافية حينما تحاول توحيد الزي انما تحاول الاعلان عن رؤيتها الخاصة للانسان ، وهي بالتالي تصطدم ببعض مظاهر حب التفرد الانساني الذي يتجلى فيما يتجلى بالزي . واعتقد ان مؤلف هذه الدراسة اشار خطأ إلى اصطدام الشيوعية بحب المرأة للموضة بدلا من ان يتحدث عن ظاهرة اشمل : هي اصطدام الانظمة التوتاليتارية برغبة الانسانية (الجيدة أوغير الجيدة) في التفرد . وهكذا فقد صرنا من آن إلى آخر نرى عرضاً لازياء السيدات تقدمه عارضات روسيات ، ومن الخطأ ان نفهم ذلك على أنه انتصار رخيص للمرأة من أجل عرض مفاتنها ، وانما معناه الأبعد والأصدق هو ان الثورة في روسيا وقد انقضى عليها وقت من الزمن ، صارت قادرة على احتواء الطبيعة البشرية بعد ان كان من اهدافها ان تبدلها : الطبيعة البشرية التي تحب التفرد وتحب الجمال وتحتاج إليهما مباشرة بعد الخبز .

أما تجربة الصين في الزي الموحد فأجمل وأعمق دراسة قرأتها عنها هي دراسة البرتومورافيا في كتابه عن (ثورة ماو الثقافية) اذ يرى ان توحيد اللباس في الصين

انما هو جزء من محاولة « تشابه الجماهير والتساوي بينها » ولكنه يخرج من تجربته ككل بانطباع لا يخلو من الاعتراضات على كل مظاهر محاولة (توحيد التفكير واللباس) ... ويحاول لفت نظر تجربة الصين إلى ان للجمال ايضاً قيمة انسانية وتربوية ، وان الجمال ليس بضاعة استعمارية ، وان التفرد ليس ضد الاصلاح الاجتماعي ... والعدالة ... والثورة ...

وبعد ، في هذا العالم الذي تتنازعه قوتان . الاولى ماكنات ديور وبالمان وشانيل التي تحاول تحويل رغبة الانسان في التفرد إلى سلعة استهلاكية واحياناً كرنفال مهازل ، والثانية تحاول ان تطبق قانون توحيد الزي (الفكري والجسدي) ، بين هاتين القوتين اللتين تتجاذباننا ، لا أعتقد ان على المرأة العربية ان تختار ... بل اعتقد ان المطلوب هو ابتكار حل ثالث ينبع من اصالتها ، ومن تاريخها ، ومن مناخ أرضها وطبيعة طقسها ، ومن الظروف الاجتماعية والانسانية التي يمر بها وطننا العربي في هذه المرحلة.

ونحن بانتظار ان يولد (ديور) عربي ، أو (ماري كوانت) عربية ، تكون مصممة أزياء مبدعة ، مبتكرة لا مقلدة ، تستوعب اول ما تستوعب الظروف الاقتصادية لشعوب المرأة العربية (٧٠ بالمائة فلاحات ، ٥ بالمائة بدويات ، ١٠ بالمائة فقيرات يغيرن الفستان مرة كل سنتين ، ١٥ بالمائة فقط قادرات على كل شيء !) في وطن بحالة حرب لا ترحم ، ترى لو وجدت مثل هذه المصممة المبدعة . هل كانت تختار للمرأة العربية في هذه المرحلة غير الثوب الفدائي المرقط ؟ ...

لا أدري . كل ما أدريه هو ان الكفن هو الثوب الوحيد الذي لا يبدله الانسان ! . فهل نحن في مرحلة تحتم علينا ان نرتدي اكفاننا منذ الآن ؟ ربما ... وربما لا ... ربما كانت ذروة النمطية في السلوك والمظهر ، الموجودة لدى النحل والنمل هي السبب الاساسي في توقف تطور مجتمعاتها ...

ولذا ، رغم كل ما يحيط بنا من ظروف موضوعية مؤلمة قد تجرنا إلى اختيار النمطية كحل على كل صعيد ، لا مفر من ان نظل نذكر ان التفرد هو (إلى جانب النمطية) المحرك دوماً وأبدا لكل تطور انساني ولكل ابداع حقيقي ...

١٩٧٢ / ١١ / ١٠

التحقيق ... مع الجثث !!

فلسطيني توفي في مكان ما من هذا العالم ... بالضبط في بورتوريكو ...
وعادت الطائرة بجثمانه إلى مطار اللد حيث أهله العرب ينتظرون ...
وهبطت الطائرة ... وانتظر الأهل طويلاً ...
ولاحظوا ان حالة الطوارىء أعلنت ...
وانه جيء بالجثمان إلى غرفة المحقق ...
واعترفت اسرائيل بأن رجال الامن قاموا بتفتيش الجثمان خوفاً من وجود قنبلة في أحشائه ...
مثير أن نرقب اسرائيل وهي تفقد أعصابها ... وتخاف من العرب حتى بعد موتهم .. وتخضع حتى جثثهم للتحقيق... فالقاتل وحده هو الذي يخشى جثة ضحيته ...

٩ / ٢ / ١٩٧٣

قراءة عابرة لفنان غير عابر

رجال في الشمس . ما تبقى لكم . أم سعد . عائد إلى حيفا . العاشق . الأعمى والأطرش . برقوق نيسان ...

روايات لغسان كنفاني ، بعضها نشر وقرأناه ، وبعضها ينشر للمرة الاولى (الاعمى والاطرش — العاشق — برقوق نيسان) بعد ان حال الموت بين غسان ومخطوطاته .. فلم يتمها ونشرت ناقصة ...

هذه كلها نجدها في مجلد واحد، هو المجلد الأول للآثار الكاملة لغسان كنفاني الذي أصدرته « لجنة تخليد غسان كنفاني » عن دار الطليعة في بيروت .

مجلد من ٦١٣ صفحة، تراه، وبدلا من أن تفرح بصفحاته الكثيرة ومضمونه الادبي والانساني المبدع ، تتذكر آلاف الصفحات المبدعة التي كان يمكن لغسان أن يكتبها لو لم تمزقه متفجرة قذفت بيده بعيداً عن جسده كأنها كانت تستهدف تلك اليد بالذات ... وعلى الغلاف ، يطل وجه غسان ، بعينيه الواسعتين المليئتين بالتحدي ونظرته التي تخترقك كالسكين بإبهام غامض ... وبين أصابعه لفافة لما يحترق أولها ، كأنها حياة غسان التي اختزلت منذ البداية، وهو في ذروة القدرة على العطاء والاشعاع .. والخاتم الزوجي في اصبعه ، لا يذكرك فقط بزوجته وطفليه : فايز وليلى ، وانما يذكرك بالقضية الفلسطينية أيضاً ، فقد كان غسان متزوجاً منها أيضاً ، وكان فنه منذوراً للقضية في زواج كاثوليكي لا انفصام لعراه ... كان فن غسان والقضية مثل التوأم السيامي الملتصق الذي لا حياة لأحدهما دون الآخر .

وحينما تنتزع نفسك من صورة غسان على الغلاف الاول ، هارباً إلى الغلاف الثاني ، يحاصرك بحروفه ذلك الحصار الذي لا فكاك منه ... إنه حصار الابداع ، اذ تطالعك سطور منه مكتوبة بخطه الواضح الشرس الذي يعرفه كل من عمل معه ذات مرة في المجال الصحفي ... وتقرأ « ... كان الفرار موتاً » ... وتحس بأن موت غسان

كان فرار الموت من قضيته ومن حروفه ...

وتقرأ « عندما جاء نيسان ، أخذت الارض تتضرج بزهر البرقوق الاحمر وكأنها بدن رجل شاسع ، مثقب بالرصاص» ... وتتذكر جسد غسان المثقب الممزق بالبارود، كأنما كانت حياته نفسها متفجرة هائلــة الطاقة وكأنه كان لا يمكن أن يموت الا هكذا ...

وتقرأ « ان المعجزة ليست أكثر من الجنين الغريب الذي ينمو في رحم اليأس ، ثم يولد على غير توقع من أحد ليضحي جزءاً من الاشياء ، تبدو ثمة ناقصة من دونه»... وتحس بأن غسان كان يصف نفسه دون أن يدري ... فقد كانت عبقرية غسان المعجزة – وكل عبقرية معجزة – ، « هي الجنين الغريب الذي نما في رحم اليأس » ولكنه طلع إلى الحياة بمخاض الامل والعزم على الكفاح والتصميم على الجهاد من أجل جسد الوطن المثقب بالرصاص ، ولكن الصامد والنابض والمستمر عبر أجيال من الاطفال والرجال والبنادق ...

وتهرب من غلاف الكتاب لتعاود قراءة أعماله ... وتحاول أن تقرأ بحياد ، ولكن هل الحياد ممكن حينما يتعلق الامر بانسان عرفته ، وتنفس واياك في غرفة واحدة ، وعملت واياه في دار واحدة ؟ ... تقول : الحياد . وتقرأ .

رجال في الشمس ١٩٦٣

تظل هذه الرواية ، أولى رواياته ، من أجمل ما كتب . ربما كانت عظمتها تكمن في ذلك الانسجام والتكامل بين المبنى والمعنى . بين الاسلوب والفكر . بين البناء الغني المذهل للرواية ، والمضمون الوطني المكثف عبر الرموز ، القريب إلى قلوبنا عبر البساطة الممتنعة التي هي الابداع ... فابطال « رجال تحت الشمس » هم بشر بسطاء ، هم نبلاء ذلك النبل الانساني الآسر الذي لا افتعال فيه ، ولا شعارات ، ولا خطابات وطنية في حواره ، ولا كليشيهات ... انها قصة ذات نكهة فلسطينية ، وأبطالها فلسطينيو الاحزان والهموم والعذاب ولكنهم أيضاً « انسانيون » بالمعنى الشامل للكلمة ... في هذه القصة استطاع غسان ان ينطلق من المحلية إلى الانسانية دونما عناء ، وببساطة مدهشة ..

انها تروي حكاية رجال ثلاثة وجدوا أنفسهم فجأة بلا وطن بعد أن اغتصبت أرضهم فلسطين . أحدهم كهل . الآخر شاب . الثالث في مطلع الصبا . ثلاثة أجيال ،

كل منهم وجد نفسه مضطراً للتفتيش عن الرزق في عالم مضطرب قاس ... وفي ظروف لا ترحم . لقد فقدوا الارض وفقدوا معها جوازات السفر ولكنهم لم يفقدوا ذاتهم . فالانسان ليس مجرد « تذكرة هوية » وتمزيقها لا يعني الغاءه من هذا العالم الوحش .

ولا يبقى أمامهم سوى الرحيل إلى الكويت عبر الصحراء المترامية خلف البصرة... وهنا يأتي دور المستغلين وسماسرة التهريب الذين يستثمرون فجيعة شعب بأكمله من أجل جمع المال ... وأخيراً يوفقون برجل هو أبو الخيزران الذي يعرض عليهم تهريبهم في صهريج سيارة الشحن التي ينقل بها المياه . الخطة بسيطة . سيفرغ الصهريج من الماء، ويخبيء الرجال فيه . انه يطمئنهم : لقد سبق لي ان فعلت ذلك . سأخفيكم في الصهريج بين نقطة الحدود العراقية ، والنقطة الكويتية . ثم انه لم يسبق له أن تعرض للتفتيش ، وكل هذا مقابل « عشرة دنانير » من كل فرد أو أقل ، وهو ثمن رخيص بالنسبة لتسعيرة سوق التهريب البشري .

ويضطرهم واقعهم التعس للقبول ، لانه خلف كل رجل منهم حكاية ومأساة ...

وحينما يصلون إلى نقطة الحدود والشمس تجلد الصحراء بسياط الموت ، يُدخلهم أبو الخيزران في الصهريج الملتهب كفرن ، ويحاول جهده أن يسرع في معاملات المرور على الحدود ، لكن بعض رجال الامن يصرون على المزاح مع أبو الخيزران (فاقد الرجولة جسدياً) . وأما موضوع المزاح فهو الموضوع الخالد (المرأة) الذي يستهوي الحديث حوله الرجال المكبوتين كبتاً تاريخياً طويلاً ، فيطول الحديث والهزر ، وحينما يفلسح أبو الخيزران في الافلات من قبضتهم ، يمضي بعيداً عن أنظار حراس الحدود ، ويوقف سيارته راكضاً إلى الرجال السجناء داخل الصهريج ... فيجدهم قد ماتوا جميعاً ... شوتهم الشمس وخنقهم الصهريج . ويمضي بهم في الليل ليرمي بهم إلى صمت الصحراء ، حيث يضيعون مع عشرات من أمثالهم الذين أكلتهم الوحوش وهجرهم أدلاؤهم بخسة ... وها هو يرمي بهم ، ويجد نفسه أكثر تعباً من أن يدفنهم . ويتابع ارتكاب الجريمة الكاملة . يزيل آثار عجلات سيارته من الصحراء ، ويشوش الاثر تماماً . يعود إلى الجثث لينتزع من جيوبها ما تبقى من نقود قليلة ، ومن يد (مروان) أحد الضحايا ساعته ... وفجأة « تفجرت فكرة مفاجئة في رأسه ... بقي واقفاً متشنجاً في مكانه محاولاً أن يفعل شيئاً ، أو يقول شيئاً ... لقد شعر بأن رأسه على وشك ان ينفجر » .

... انزلقت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه « لماذا لم يدقوا جدران

الخزان ؟ » ... لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقولوا ؟
لماذا ؟

وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى : لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ...

بهذا التساؤل المذهل تنتهي الرواية ، ويتركنا غسان نتساءل لماذا ، ونجد عشرات من الاجوبة ، ونبحر عبر الرمز الانساني الصغير إلى عوالم فكرية عن الهروب والنضال وأخلاقية الاستشهاد الانتحاري .

هذه الرواية « رجال في الشمس » فيها ما يذكر بهمنغواي من حيث صراع الرجال مع الطبيعة التي لا ترحم ، وصحراء الشمس القاتلة ، والصحراء البشرية حيث القسوة واللامبالاة والجشع أنياب منشبة في مصائر الرجال المكافحين ...

ما تبقى لكم ١٩٦٦

أسلوبه فيها يشبه أسلوب فولكنر الصعب في رواية (الصخب والعنف) . ويقول غسان في مقدمته لها (ان الصعوبة الكامنة في ملاحقة عالم مختلط بهذا الشكل هي صعوبة معترف بها ، ولكن لا مناص منها أيضاً اذا كان لا بد أن تقول الرواية ما اعتزمت قوله دفعة واحدة) ... وهذه الرواية جميلة وحزينة ... ربما كانت أعمق أعمال غسان. جاذبيتها لا تكمن في توتر الاحداث فحسب بل في شاعريتها ... انها أكثر شاعرية من أي عمل من أعماله ... تحسها مضيئة ومحرقة مثل صندوق ألعاب نارية انفجر في وجهك فجأة ... الرمز فيها غني إلى حد الاعجاز ، كثيف وموجز ... أجمل رموز القصة رمز الساعة ... واذا كان رمز الساعة عند فولكنر في روايته (الصوت والغضب) رمزياً سلبياً اذ إن البطل يكسر عقارب ساعته راحلاً خارج أحزان الزمان والمكان ، فإن رمز الساعة في « ما تبقى لكم » محرض ومفجر للغضب والعنف ... و « تكات » الساعة التي تسمعها طوال القصة تصير في آخرها مثل « تكات » ساعة التفجير لقنبلة موقوتة ...

وفي آخر الرواية إشارة إلى مولد شخصية الفدائي دون ذكر لاسمها أو أي استغلال دعائي ... انها شخصية ذلك الطالع من رحم الحزن وأرض المأساة ، الواقف وحيداً في الصحراء ، أمامه عدوه ، وفي يده خنجر ، وليس هنالك ما يخشى فقدانه .... لقد نبت فجأة في الصحراء كطائر الرعد ، وها هو يثير الذعر والمفاجأة في نفس

الاسرائيلي الذي تدل تذكرته على انه قادم من يافا ... بلده هو ...

« ما تبقى لكم » هي أرقى أعمال غسان فنياً وتقنياً ... بناؤها الفني متقن وأسلوبها آية في الجمال والشاعرية المتدفقة من الموقف لا من اللفظة .

عائد الى حيفا

مثيرة . حية . متحركة . مؤثرة . واقعية ، كأنها مذكرات انسان نعرفه ونكاد نميز خطه .. وأحزانه ... انها حكاية رجل وزوجته هربا من حيفا عام ١٩٤٨ وخلفا طفلهما الرضيع في السرير . نسياه في غمرة الخوف .

رحلا ، ولم يرحل خلدون من ذاكرتهما ، ومولد طفليهما خالد وخالدة في القدس ، لم ينسيهما خلدون المنسي في فراشه مثل عشرين عاماً لامنسية . وبعد هزيمة ١٩٦٧ يصير بوسعهما ان يذهبا لزيارة حيفا . بيتهما هناك على حاله ... ينتظران ابنهما الذي ربته امرأة اسرائيلية . يجيء ... واذا باسمه قد صار « دوف » . واذا به جندي في الجيش الاسرائيلي . لقد خسراه إلى الابد لانهما هربا ... « فالانسان هو في نهاية الامر قضية » كما يقول لهما دونما مبالاة .

ويبقى عزاء الاب في ولده خالد ، الذي انضم إلى الفدائيين ، والذي قد يواجه ذات يوم شقيقه خلدون (دوف) . ولكن ، من قال إن خلدون شقيقه ؟ ان الانسان في النهاية ، قضية ؛ وعلاقات الدم وغيرها تأتي في المرتبة الثانية !

عائد إلى حيفا واضحة . ذكية . متحركة . إنها نقطة تحول في فن غسان كنفاني ، فيها مزيد من الاقتراب من طرح الافكار بمباشرة لا تفسدها الخطابة ... ونلحظ انه بعدها مباشرة تبنى أسلوبه فيها ، بل أغرق في المباشرة في « أم سعد » ...

أما رواياته غير المنتهية ، التي كانت مخطوطات منعه الموت من اتمامها ، فانك لا تستطيع أبداً أن تقرأها بحياد . لا تملك الا أن تحس بغصة موجعة مع كل كلمة ... إنها سمفونيته التي لم تتم ...

٢٠ / ٤ / ١٩٧٣

يكتب . يرسم . يستشهد

غسان كنفاني الاديب لم يكن سراً .. أما غسان الرسام فهو المفاجأة التي لم يكن يعرفها سوى اصدقائه الحميمين الذين كان يوزع لوحاته عليهم ! .. وها هي لجنة تخليد غسان كنفاني تعود اليوم لتقدم لنا وجهاً آخر من وجوه عطاء ذلك الأديب الكبير وتدق أبواب الاصدقاء وتُخرج اللوحات من صمت بيوتهم وقلوبهم وتنفض عنها غبار دمعهم لتعرضها على الجمهور العربي .

مفاجأة ؟ ربما للوهلة الاولى . ولكن ، كما كان جبران خليل جبران كاتباً ورساماً ، كذلك كان غسان .

لا مفاجأة ..

فالفنان أتون من الابداع ، يتبلور أحياناً عبر القلم وأحياناً عبر الريشة .. حنجرته اللغة أو الخط . دماء عطائه الحبر أو الأصباغ الزيتية والمائية .

وغسان المتوقد عطاء مثل كوكب في ذروة التهابه ، لم تكفه أحصنة اللغة ، فأسرج اقمشة اللوحات . ولم تستوعب الكلمات دفق ابداعه ، فحاول أن يسكب ما تبقى في لوحاته .. (وما تبقى لنا) كثير ..

أبرز ما يميز هذه اللوحات تنوعها من حيث الموضوعات ، ومن حيث المدارس . كان حراً كعاصفة حين يرسم . لوحـات انطباعية . لوحات تجريدية . لوحـات (بورترية) . لوحات رمزية . وألوانه كان يغرفها من قوس قزح . لم يكن لديه لون مرفوض ، كل الألوان خاض أنهارها ، كان جريئاً في لعبة الالوان ، يمزج البرتقالي بالأرجواني بالأصفر محطماً كل القواعد والأغلال التقليدية في الرسم (كما في أدبه) . أجمل لوحاته لوحة غير منتهية (أم تراها منتهية وهو أرادها كذلك ؟) ، تمثل رجلاً لاجئاً وقد جلس والحزن يقطر من عينيه ويده على خده ، وحوله لم يرسم أفقاً أو لوناً

(ولذا نظنها غير منتهية) وإنما رسم كل ما حوله باللون الابيض .. رسمها عام ١٩٦٦ فهل كان قد تعمد ترك افق اللاجيء ناصع البياض وترك رسمه للأيام المقبلة ، واذا به قدر الفداء وفجر التهاب المقاومة ؟ ..

هنالك أيضاً موضوع أحبه غسان ورسمه أكثر من مرة بألوان مختلفة .. انه يمثل صبياً صغيراً جالساً في غرفة خاوية من أي اثاث ومن أي باب أو نافذة إلا من كوة عالية تطل منها السماء مضيئة كالأمل وتسقط عبرها حزمة من أشعة الشمس ، والصبي جالس في بقعة النور يقرأ ..

لديه ايضاً لوحات تجريدية ، أخضرها محروق كبيادر وبيارات أرض مغتصبة ، وتتوزع فيها بقع برتقالية حارة تذكر بمولد الأحمر الثوري ، وتبشر بعودة الحياة إلى الجرح المحروق ..

وغسان المنفتح على الثورات العربية كلها، رسم وجهاً في عينيه نظرة تحد وتهديد. نظرة الشعب إلى جلاديه .. في اللوحة خناجر تطل من العينين العربيتين الواسعتين ، ولهيب يتصاعد من الثوب الاحمر الدامي ، وتكاد تشم في اللوحة رائحة لهيب ثورة شعوب شمال أفريقيا ويقظتها .. وتكاد تسمع فيها خطى الملايين الراكضين لتمزيق أغلال الاستعمار والتخلف ..

جولة بين لوحاته تعيدنا إلى عوالمه التي عرفناها في كتبه ... الرجال المكافحون من أجل قضية .. والرجال في مواجهة الوجود .. جولة تعيد الينا غسان ، ليصفعنا برد الشارع والواقع حين نخرج من معرضه !

٢٧ / ٤ / ١٩٧٣

آني كنفاني .. مناضلة كسبناها

آني كنفاني

بطلة من بطلات الكفاح الفلسطيني الصامت .

جاءت من بلادها المثلجة في أقصى الشمال ، من الدانمارك ، لتدرس القضية الفلسطينية فلفحها وهج الثورة، وصارت زوجة لغسان كنفاني وللثورة ... كان ذلك منذ أكثر من عشرة أعوام، ومن يومها نذرت آني كنفاني كل امكانياتها وثقافتها لمساندة زوجها المناضل ، وللتعريف بالقضية الفلسطينية في أوروبا ...

آني كنفاني ...

قضيت ليلة البارحة اقرأ كتابها « غسان كنفاني » بالانكليزية ، الذي تتحدث فيه عن زوجها الشهيد ، عن نشأته وكفاحه وأعماله ، وعن علاقته بها وباولاده ...

سطور مؤثرة ... موجعة ... أعظم ما فيها البساطة المعاصرة التي كتبت بها ...

تبدأ الكتاب بوصف ليوم الحادث ، دونما تفجع (خنسائي) ، وانما بوصف صادق وواقعي لما حدث ــ ألا يكفي الواقع لتمزيق حلوقنا ونحن نقرأ سطورها ؟..

بعد وصف مشهد الاغتيال المروع ، تبدأ حديثها بهذه الجملة البسيطة : « أنا أرملة غسان كنفاني ، أحد كبار شهداء الثورة الفلسطينية » ... وتتوالى صفحات الكتاب ، ونعيش مع غسان الذي ولد في فلسطين ، والخروج الحزين بعد مذابح دير ياسين ، عمله في الكويت ، لقاؤه بالدكتور جورج حبش ، عمله في الصحافة ، ثم مصرعه الموجع . وبين صفحة وأخرى تطل علينا صور غسان الأب بين ولديه فايز وليلى ، ومع أسرته ، وفي مكتبه ...

كتاب انساني مؤثر اجتمع فيه الأسلوب الذكي العصري لمخاطبة الناس، والمعلومات عن الثورة الفلسطينية ، وحس المرأة المطعونة بمصرع زوجها ، ولكن بكل كبرياء واعتزاز بالقضية التي مات من أجلها ...

إن الخدمات العظيمة التي قدمتها آني كنفاني للثورة الفلسطينية ليست سراً ...
وها هي بعد مصرع زوجها تتابع السير على خطاه في العطاء والتضحية ..

آني الدانمركية هي واحدة من بطلات الثورة الفلسطينية والعربية ...

آني الاوروبية التي آمنت بعدالة قضايانا ، وضربت لنسائنا مثلاً يحتذى في العطاء والعمل ...

واذا كانت الشهيدة أم يوسف التي افتدت زوجها بنفسها ودافعت عنه كاللبوة تمثل وجهاً من وجوه النضال النسائي الفلسطيني ، فان آني كنفاني تمثل وجهاً آخر لا يقل عظمة ...

إنه وجه الصمود ، والاستمرار ، والعمل الهادىء الصامت الذكي الدؤوب ...

آني ، ايتها الرائعة ، كتابك أفضل ما يخاطب العقل الاوروبي ، وانت مثال يحتذى للمرأة العربية ...

٢٠ / ٤ / ١٩٧٣

كمال ناصر : الموت حباً .. بفلسطين !

بمصرع كمال ناصر بعد غسان كنفاني ، تسقط نهائياً تلك النظرية الخاطئة التي كانت من ردود فعلنا بعد هزيمة ٥ حزيران ١٩٦٧ ، والتي دفعت بنا إلى احتقار حملة القلم ، والمطالبة بكسر القلم وحمل البندقية ... فالواقع ان المفكر والاديب هو بوصلة الثورة ، والمقاتلين هم مدفعها .. والثورة بحاجة إلى بوصلة وإلى مدفع في آن واحد ... الاديب قد لا يعرف كيف يحشو مسدساً ، لكنه يحشو نفوس الشبيبة بالروح الثورية ويعمق وعيهم بمدلول كفاحهم وأهدافهم ..

ودور الاديب المناضل في الثورة لا يقل اهمية عن دور حامل القنبلة . واسرائيل اثبتت صحة هذه النظرية حين استهدفت اغتيالاتها طائفة من المبدعين الثوريين الفلسطينيين ... وادركت ان دماغ غسان كنفاني اخطر عليها من عضلات محمد علي كلاي ... ووعت أن ذلك الشاب الرقيق النحيل المضطر إلى حقن نفسه « بالانسولين » كل ٢٤ ساعة كي لا يغمى عليه ، والمتألم باستمرار لنوبات مرض النقرس ، هذا الشاب الهش الجسد يشكل بصلابته الفكرية خطراً عليها أكثر من مصنع اسلحة ! فنسفته .

وها هي اليوم تحشو بالرصاص حنجرة فلسطيني مبدع آخر هو كمال ناصر ... كمال ناصر ، الشاعر ، الاديب ، الفنان ، الثوري المناضل على طول تاريخه ، العاشق دوماً لارضه ، المتذكر أبداً بحنان أمه الصامدة في « بير زيت » قرب القدس ... كمال ناصر صاحب ديوان « جراح تغني — دار الطليعة — الطبعة الاولى عام ١٩٦٠ » وصاحب اشعار اخرى كثيرة لم يتح له استغراقه في العمل الثوري الوقت لجمعها وطبعها ...

اهداء ديوانه شبه نبوءة بمصرعه ، اذ يقول فيه :

إلى الذين برعموا في مقلة الجراح
وأورقوا على رؤى النضال والكفاح

وصلبوا مصيرهم في خاطر السلاح
واستشهدوا ، ليولدوا في ثورة الصباح

* * *

إلى رفاق الموت في مواكب الحياة
إلى الذين عانقوا المنون للنجاة
وانتصروا على الردى العقيم في سماه
فكان كل واحد في موته اله !

* * *

وكان كمال ناصر في موته من الذين « عانقوا المنون للنجاة » ، شهداء الامة الذين « انتصروا على الردى العقيم في سماه » ...

ان من يطالع ديوانه بعين جديدة ، يصعقه رثاؤه لنفسه كما لو كان يعرف انه لا مفر له من الموت غيلة .. تماماً كما مات .. ها هو في احدى قصائد الديوان المكتوب قبل ١٣ سنة من مصرعه يخاطب امه قائلاً :

لا تطرقي .. !
فان جراح الحياة بصدري
تعذب صدري
وان نداء القدر
يلون بالثأر عمري
ويقذفني للخطر
ويحيا على خاطري في عذاب
وينسجني في الركاب
فأمشي إلى مصرعي
ويمشي إبائي معي
وتمشي بدربي جراح الشباب
... ...
مصيري .. مصيرك بين الحراب
وهذا الذهاب ! !

* * *

وكان كأي فنان حقيقي مؤمنـــاً بحرية الفكر ، فقد صدّر لقصيدته « الانبياء الصغار » بعبارة فولتير : « قد لا اتفق معك في الرأي ، ولكني مستعد لبذل دمي في سبيل ان تكون حراً في ابداء رأيك » ... وها هو قد بذل دمه لانه أبدى رأيه في عدوانية اسرائيل وغطرستها واضطهادها لشعبه ، شعب فلسطين ...

« جراح تغني » ليس ديواناً شعرياً يحمل نبوءة ثاقبة بمصير المناضل ضد اسرائيل الوحشية الغدر فحسب ، بل هو يرسم ما يلقاه المناضل من تشرد وسجن واضطهاد حتى داخل وطنه العربي في هذه المرحلة الثورية الموجعة ... وكان كمال ناصر في أكثر فترات حياته مشرداً أو داخلاً إلى السجن أو خارجاً منه ... وذات مرة ، كان الشاعر مختفياً ، وكان يبعث بمقالاته وقصائده إلى الصحف العربية والمحلية باسم مستعار ، وكانت الشاعرة فدوى طوقان صديقة لكمال تقرأ ما يكتب في الصحف ، ففطنت إلى اسلوب ونفس كمال ناصر رغم كتاباته الموقعة باسم مستعار ، فكتبت اليه قصيدة وفاء واخلاص تقول فيها :

يا طائري السجين فاصدح لنا
من خلف جدران الدجى والعذاب
غن ، فقضبان الحديد التي
تسد ، في وجهك رحب الفضاء
لن تحجب الغناء عن سمعنا
يا طائري ، غن فدرب الرجاء
ما زال يمتد مشع الضياء
رغم انطباق الليل من حولنا

وردّ عليها كمال بقصيدة قال فيها :

سفحت دمي فاستفاقت جراحي
تلون صدر الذرى بالخضاب
واحببت داري فلذ لقلبي
بلوغ المنى واقتحام العباب
اتوب ؟ معاذ العلى أي يوم
مضى شاعر للمعالي ، وتاب

الذين يعرفون كمال ناصر عن قرب ، سيوجعهم مصرع ذلك الشاب المرح

بسخرية سوداوية ، الذكي ، « النبي الصغير » ، الوفي لامه والمردد لذكرها بحرارة طفل انتزعوه من بيارته وكرمه وملاعبه ورموا به إلى وحشية العالم اللامبالي بمأساة وطنه ...

لقيته للمرة الاولى منذ عشرة اعوام تماماً في القاهرة . كانت اول مرة اغادر فيها دمشق . ففي سهرة عائلية بمنزل الاديب احسان عبد القدوس (ان لم تخني الذاكرة) شاهدت يومئذ للمرة الاولى ودفعة واحدة الاستاذ محمد حسنين هيكل وسليم اللوزي وعبدالحليم حافظ واحمد بهاء الدين ...

كانت أول مرة ارى فيها اولئك الذين طالما سمعت بهم . كنت ما ازال صغيرة وقادرة على الدهشة والاعجاب ، وفي غمرة فرحتي جاءني صوت شاب اخضر العينين رماديهما يقول لي : تبدين كفتاة القرية التي تسهر في المدينة لاول مرة ! ...

وكان ذلك صحيحاً ... وكان صاحب العبارة كمال ناصر ...

والتقيت به ثانية في بيروت عند صديقتي المرحومة سميرة عزام ... وثالثة في بيت الاستاذ شفيق الحوت وزوجته الصديقة بيان ... وتوطدت الصداقة بيننا ... لقيته في دمشق بعد ذلك حيث اقام فترة وتابع نضاله من خلال الحزب الثوري الذي كان يؤمن به ... والتقينا ثانية في بيروت بعد عام ١٩٦٥ ... والتقينا في باريس عام ١٩٦٦ ، كنت عابرة سبيل ، وكان قد اقام هناك فترة .. وقرأ علي اشعارا في غاية العمق الثوري والتطور ، وحاولت انتزاعها منه وارغامه على نشرها لكنه أصر على تنقيحها أولا ... ومرت الايام .. وأقمت في لندن ... وكنا نتراسل ... ثم عدت إلى بيروت ، وأبعد هو من فلسطين المحتلة إلى عمان ... وعادت مراسلاتنا ... تشاجرنا كثيراً ، فقد كان عنيفاً حين يتعلق الامر بنقاش سياسي وتصالحنا كثيراً ...

ها أنا مثل بحـــار عجوز اركض إلى كهوف الذاكرة ومغاورها ، أبحث عن بصمات اصابـــع كمال على جدراني ... هـــا هي رسائله ، اقرؤها فتعيده الي حياً نقياً بكل ما يملك من سخرية .. حتى في رسائله نبوءة بموته ... كتب الي من عمان بتاريخ ١٩٦٨/٣/٢ (أي بعد هزيمة حزيران بأشهر) يقول فيما يقول : « يسعدني ان تكتبي لي .. لعلك نافذتي الوحيـــدة على الخارج .. لقد بدأت انساه ذلك الخارج ! الضجيج الذي يأتي من هناك يلتقي بالذي هنا .. فلا يحدث أي تغيير .. وما تزال الدوامة الوحشية تلف وتلف .. وتلف ... اكتب لك من مقري الجديد — جناح فراس — وفراس هو طيار اردني قتل في المعركة ، وشقيقه ضابط كبير سابق وهـــو

صديقي ، وقد بنى باسمه منزلا وشققاً للسكن واعطاه اسم شقيقه الشهيد .. وبالرغم من جمال المكان الا انه مأساوي بحكم التسمية ، وصوره المعلقة والتي تطاردني دوماً تذكرني بالمأساة وكأنني بحاجة إلى من يذكرني بها ...

حرارتي مرتفعة — اصابتني نزلة (افرو — اسيوية) كأنما لا يكفينا نزلات الغرب والشرق لتتآمر علينا حتى دول الحياد » ...

رسائله كانت شبه سجل تاريخي وقومي مما دفع بي ذات يوم إلى استئذانه بنشر بعض مقاطع منها في المجلة حيث أعمـــل . كانت كلها من هذا النوع مثلا .. يقول « لا علاقة لي بالقلم أو الورق الا في تلك اللحظات التي اجلس لاكتب فيها لك هذه الاسطر القليلة .. عملي السياسي يأكل كل وقتي . لقد اقمنا ندوة من اجل انقاذ القدس التي يستعجل اليهود بتهويدها ، وقد انبثق عنها لجنة تنفيذية وربما سيكون لنا نشاط عربي قريب خارج حدود الاردن » ...

لكن فكرتي عن نشر مقاطع من رسائله المليئة بمعلومات سياسية تهم العرب لم ترق له وها هو يرد علي ساخراً « تسألين ان كان باستطاعتك ان تنشري بعض ما اكتبه لك من احاسيس عامة — وخاصة في رسالتي السابقة . وأنا اقول انني لم ادرك وأنـــا أفيض لك أن هناك ثمة ما يستحق ان ينشر أو يذاع .. بقع الدم التي تلطخ بعض احرفي بين الفينة والفينة ابقيها جسراً يعبر عليـــه من احبهم من اصدقائي بين الحـــين والحين .. وان كنت تصرين على اطرائي فاحتفظي برسائلي هذه فقد اصبح مشهوراً يوماً ما مثل فريد الاطرش فتبيعين رسائلي لمصلحة جمعية خيرية كما فعلوا بمذكرات شكوكو عام ١٩٦٣ » ...

كم تبدو النكتة الان موجعة ... ها أنا ألملم رسائله ... ورسائل احبائي الذين تساقطوا قبله .. سميرة عزام .. وغسان كنفاني .. اكومها واحرقها ورقة ورقة وارى سطورها تتلاشى في النار وتحفر كوشم من جمر في قلبي ...

هل أنسى أن كمال ناصر كتب لي مرة « بالمناسبة لست حزيناً ... ومن حقك أن تخافي مني علي .. كيف استطيع أن أرمي بثقل التاريخ عن كتفي .. علميني فتحبك أمي كثيراً » ...

يا أم كمال ناصر ... لا أحد استطاع ان يعلم كمال ناصر كيف يرمي بثقل التاريخ عن كتفيه ... حتى ولا رصاص اسرائيل ... فاغفري لنا وله ...

والعنيهم في صلواتك ...

٢٠ / ٤ / ١٩٧٣

محضر ضبط بإنزال اسرائيلي !

في الساعة الثانية ظهراً صبيحة يوم عدوان اسرائيلي ، والقهر يأكلني لاجل بيروت المستباحة ، واصدقائي الذين تنسفهم قنابلها واحداً بعد الآخر ، والشمس تسوط نفوسنا المحمومة بلهيب يكاد يفجر غضبنا عنفاً اعمى . أوقفت سيارتي إلى جانب الرصيف المقابل لمبنى النفوس دون ان اطفىء محركها ، وبدأت افتش عن احدى الاذاعات لاستمع إلى نشرة الاخبار ... وقبل ان اتحرك بها لامضي من جديد فوجئت بشرطي سير في الشارع الخاوي وقد كاد ينتهي من تحرير مخالفة وقوف ممنوع يطلب اوراقي ! كان مختبئاً كعنكبوت تنتظر ضحيتها . رجوته أن يسرع بتحرير المخالفة لانني على عجل . ضايقه ذلك . كان يريد مني أن أقدم لغروره الولاء الكافي بأن ارجوه اطلاق سراحي . ولم اكن في مزاج لارضاء غرور احد ، بل كنت قادرة على اغتيال أي شخص يحول بيني وبين سماع الاخبار في تلك اللحظة . اعطيته اوراقي بلا مبالاة لم يعتدها من ضحاياه من السائقين المساكين خصوصاً انني ظللت متوقفة في مكاني ما دمت قد دفعت ثمن هذا الحق بضبط مخالفة « وقوف ممنوع » ... كدت اصرخ في وجهه : اين كنت حين رست اسرائيل على شواطئنا دون ان يحرر بها شرطي واحد على الاقل محضر ضبط ، ومخالفة وقوف ممنوع ؟ ... كدت الطم وجهه بسؤالي : لماذا انتقى لك رؤساؤك هذا الشارع الساكن الهادىء لتصطاد للدولة ضحاياك مستغلاً حرفية النص القانوني دون روحه ؟ ... لماذا لا يوقفونك ورفاقك لحراسة بيوت الفدائيين اذا لم يكن لديهم دبابات مثل التي تحيط بالسفارة الأميركية لحراستها؟... لقد تجسدت نقمتي على السلطة في شخص ذلك الانسان المسكين الذي يمثلها بميكانيكية مروعة ، ويجسد العلاقة الاستغلالية بين السلطة والمواطنين ...

فالسلطة في بلادي تستخدم موظفيها لاضطهاد المواطن لا لخدمته ... تنشط على صعيد جمع الضرائب وتختفي على صعيد تأدية الخدمات العامة ... في شارع مجاور

مجرور هوايته الانفجار ، والنتيجة اختفاء موظفي البلدية من الشارع لمدة اسبوعين مع تردد شرطة السير على الشارع كل يوم لتحرير محاضر ضبط بالسيارات التي اضطر أصحابها إلى صفها بعيداً عن المياه الآسنة ...

هذا مثال ، ولدى كل مواطن عشرات الأمثلة عن نشاط الدولة الخرافي في مجال جمع الأموال من المواطنين ضرائب أو مخالفات ، وكسلها لا بل اختفائها ساعة تأدية الخدمات ... والذنب ليس ذنب الشرطي ، وانما هو ذنب رؤسائه الذين لم يعلموه اننا نحن الذين ندفع رواتبه كضرائب ورواتبهم أيضاً .

المطلوب معاقبة هذا الشرطي وأمثاله برفع راتبه — كي تتضاءل أسبابه الشخصية للنرفزة — وارغامه على قراءة كتب مبسطة عن المعنى الحقيقي لعمله ودوره في المجتمع كي لا يظن نفسه نيروناً صغيراً ...

والمطلوب تزويد كل مواطن بأوراق ضبط استفزاز يحررها المواطن بالموظف الذي يستفزه دون وجه حق ... وكل موظف يرد بحقه أكثر من ٧ ضبوط استفزاز في الاسبوع يحقق معه وقد يعاقب ...

٧ / ٥ / ١٩٧٤

زهرة .. لفدائيي الخالصة « العادلين » !

شعرت بخيبة أمل حقيقية حين قرأت تصريحات لبعض رجالاتنا وزعمائنا الذين نحمل شيئاً من التقدير لهم ، يستنكرون فيها العملية الفدائية لأبطالنا الثلاثة في الخالصة ، الذين ذكّروا العالم بان اسم « كريات شمونة » ليس الا اسماً مستعاراً وثؤلولاً على جلد التاريخ ...

أحد العقلاء اليساريين الذين نقدرهـــم شجب العملية لان عدداً من الاطفال « والابرياء » الاسرائيليين ذهبوا ضحيتها ، وهو يحب العدالة ويرفض العنف !!!

وأنا أيضاً أكره العنف وأعجب بتماثيل العدالة ...

ولكن ــ هذه ال « لكن » الاساسية دائماً ! ــ لماذا نطلب من الشعب الفلسطيني ان يمارس وحده « العدالة الشعرية » ، العدالة المطلقة كما يراها الفلاسفة والمفكرون في عالم لا يمارس فيه أي شعب ادنى حد من حدود العدالة النسبية تجاه الفلسطينيين ؟

لماذا نريد من الشعب الفلسطيني ان يذهب ضحية ممارسة العدالة المطلقة ، ولا نسمح له ولانفسنا بممارسة عدالة العالم القائم والعصر القائم ؟ ! .

طبعاً من السهل تعداد سوابق اسرائيل وتاريخها الطويل مع تقتيل الاطفال الابرياء، من فلسطينيين ومصريين وسوريين ولبنانيين (مجزرة بحر البقر في مصر . مجزرة دير ياسين . مجزرة جنوبي لبنان اليومية) ، ولكنني لست هنا في معرض مناقشة قضية « العين بالعين والسن بالسن والبادىء اظلم » . ان ما اريده هو مناقشة قضية العدالة الفلسطينية دونما لف أو دوران ...

هكذا : لنفترض ان اسرائيل استطاعت ، بطريقة ما ، ان تستولي على ما استولت عليه دون قتل أي طفل عربي عمره تحت الرابعة عشرة ، فهل ذلك يعني انها عادلة ؟ .

ولنفترض ان الفدائيين . في غمرة كفاحهم العظيم والنبيل من اجل الحرية ، قتلوا بالصدفة بعض الاطفال ، فهل يعني ذلك انهم ليسوا عادلين ؟ ! .

من المسؤول الحقيقي عن موت الاطفال الاسرائيليين في أي عملية فدائية ؟

المسؤول الحقيقي هو ، ببساطة ، كل من ينجب طفلاً على أرض مغتصبة ويحاول اعطاءه هوية غير عادلة .

كل أب اسرائيلي هو مجرم في حق أولاده ، لانه يعرضهم للخطر حين يحاول تربيتهم في وطن مسروق وأصحابه مطرودون ...

كل امرأة اسرائيلية تنجب هذه اللحظة طفلاً في فلسطين ، هي مجرمة تعرض حياة طفلها للخطر ، وهي مسؤولة عن نتائج هذا التصرف غير العاقل ، وهي بطريقة غير مباشرة ترشحه للقتل لحظة ولادته ...

العدالة ؟ ! .

انني لا اؤمن بالعدالة على طريقة ألبير كامو في مسرحيته « العادلون » . واذا كان خصمي ، الذي يجب ان يموت لأحيا ، حاملا طفله بين ذراعيه ، فسوف أرمي بالقنبلة لانه هو المسؤول عن سلامة طفله لا أنا ، ولانني انا طرف من اطراف اللعبة ولست رب هذا العالم لأرى الاشياء بحياد مطلق .

الحياد مستحيل ، ولا مفر للانسان من أن يكون طرفاً في هذا العالم الوحش . فحين يُسرق بيتك وحقلك ومصدر رزقك . ، وتضطر إلى الركض بحثاً عن هوية وبندقية ، لا يمكن لاي عاقل ان يطلب منك أكثر من تحقيق عدالة نسبية ...

حينما يهاجمك شخص ليقتلك ، لا مفر لك من ان ترمي بقنبلتك دفاعاً عن نفسك ، ولا يشفع للقاتل ان يكون قد اصطحب معه ابنه مثلاً لرحلة القتل ... وصورة العدالة بالنسبة إلى إنسان يمارس اليوغا في قصره تختلف عن صورتها في عيني إنسان وجد نفسه بقوة السلاح مشلوحاً على اشواك الطريق ، والعاصفة تلتهم اطفاله وعمره واحلامه ، وكل من حوله مصرّ على تخديره كي يسقط ببطء في مستنقع الرمال المتحركة التي اسمها النسيان — ولا نريد لاسم « العدالة » ان يصير قرصاً إضافياً من اقراص التخدير ! ! !

تذكروا ان أبطال الخالصة الثلاثة ماتوا ايضاً في ربيع العمر ، وكان في وسعهم ان يكونوا في هذه اللحظة جالسين في احد مقاهي الأرصفة في عاصمة عربية ما ، يناقشون فكرة العدالة وقضية فلسطين ، ويشربون القهوة والسجائر ، ويتثاءبون ويتفلسفون ، كما نفعل نحن وكما يفعل الذين لا يخجلون من ادانتهم ! ! !

* * *

لقد شاهدت صور النساء الاسرائيليات اللواتي كن ينتحبن لاجل اولادهن القتلى في حرب ٦ اكتوبر . لم اشعر بالشماتة ، بل شعرت بانه قد يصير في وسع الفرد الاسرائيلي ان يفهم حقيقة الموقف الذي زج بنفسه فيه والذي لم يكن ، فيما يبدو ، يعي تماماً مدى مخاطره . لقد تحالف زعماء الصهيونية والامبريالية لرسم صورة خاطئة لحقيقة الشعب العربي « المتخلف » وصوروا اسرائيل على انها الحل السهل لمشاكل يهود العالم ولمشاكل التخلف في المنطقة .

ان قتلى اسرائيل يجب ان يكونوا وسيلة الاحياء الباقين لفهم المأزق الذي زجوا بأنفسهم فيه لعلهم يدركون ان لمغامرتهم مخاطر حقيقية، وان « الحدود الآمنة » اسطورة، وان فدائيي الخالصة الابطال قد قاموا بانعاش ذاكرة الفرد الاسرائيلي على ذكريات ٦ اكتوبر ، وحرضوه على مناقشة وضعه من جديد ، ورؤية الامور بغير المنظار الكيسنجري العجائبي لها ...

١٩٦٨/٨/٢

كانت فنانة عظيمة ...

سميرة عزام .

أن ارتدي السواد ذاك الاحد الماضي لانه انقضى عام على اختفائك ؟ .

أن أشبك ذراعي في ذراع والدتك المقتولة بفقدك ؟ – لو ترينها الآن – .

أن أسير في الموكب المفجوع إلى الكنيسة ؟

أن اسمع الصلوات تتلى لروحك ؟

أن تختلط دموعي بشهقات أمك وزوجك ورائحة البخور وحسرات الاصدقاء ؟ ..

ولكن ، لماذا ؟ ...

نحن الذين عرفنا مدى صدقك : عايشناه فيك وفي حرفك ، لماذا أدهشنا أن ينفجر قلبك النبيل ، ونحن نعرف جيداً ما كان يصطخب فيه من عذابات شعب نبيل ، تشرد مرتين ، وذبح مرتين ، وصلب مرتين ؟ .. لماذا صعقنا – نحن الذين نعرفك جيداً – ان ترحلي عنا ؟ .

ولماذا يسمون اختفاءك موتاً ؟ كان لا مفر من أن ترحلي عنا حزناً بعد ٥ حزيران .. أنت الفلسطينية التي ظلت اعواماً تنزف عبر حروفها غضباً وتحفزاً ..

وكيف نبيح لأنفسنا حق بكاء موتك ، كما لو كنا أكثر حياة منك ؟

نحن الذين ما زلنا نتابع حياتنا ببساطة رغم كل ما كان قبل وبعد ومنذ وإلى ، ولم تقتلنا الفجيعة ، لأن الموتى لا يُقتلون ! ! ..

موكب البكاء عليك ، والصلاة لك ، ألسنا نحن احوج اليه منك ؟

لو وعينا مدلول رحيلك عنا ، ورفضك العيش في اطاراتنا الذليلة ، لأسمينا موكبنا الاحد جنازنا نحن لا أنت ، نحن الاموات بلا نعوش ، كل منا نعشه جسده ، وموته قبوله باستمرار ذله .. ودموعه تكفير عن استسلامه للتخدير والنسيان ومعايشة العار ...

والصلوات ، نتلوها عن أرواحنا ، ما دامت حياتنا موتاً مستمراً مخجلاً ..

وارتحالك عنا عقابك لنا ... وعبر حروفك الفلسطينية الثائرة المتمردة الرافضة للذل والنسيان والمساومة عتبة لدرب خلاصنا ...

سميرة ، يا صديقتي الكبيرة ، رغم ايماني بكـــل ما اقول ، يظل منطق العقل مشلولاً امام حسرة الفؤاد ، واللغة مدحورة أمام نزف الاعماق ، وأظل اختبىء وأبكيك برعونة حيوان صغير جريح .. أموء اعوي انتحب اهذي ؛أقول اشياء مفككة ساذجة : أفتقدك ، يا لهفي عليك . أشتاقك حتى التحجر والذهول ، وحتى الحقد والانزواء والشراسة والصمت .

٣١ / ١٢ / ١٩٧٣

أمثال وأحزان

ذكرت صحيفة النيويورك تايمز انـــه في احدى جلسات مؤتمر جنيف استعان كيسنجر بالامثـــال العربية واليهودية الشعبية لدعم اقتراحاته في مجال حل القضيـــة الفلسطينية ...

واختار المثل العربي القائل : « اللي فات مات » بينما اختار المثل اليهودي القائل : « ان لم اكن لنفسي ، فمن لي ؟ »

ومن الطبيعي أن تختار أجهزة كيسنجر الصهيونية — الاميركية المنحازة هذا المثل العربي من بين كل امثالنا الشعبية الاخرى ، وان تحاول تكريس التخلف الذي يعبر عنه بعضها الآخر ..

ان كيسنجر فضل مثلاً الاستشهاد بمثل « اللي فات مات » بخصوص الارض العربية والفلسطينية والحق العربي ، بدلاً من المثل العربي القائل « ما ضاع حق وراءه مطالب »

وكم يبدو مثل « اللي فات مات » موجعاً في هذا المجال !

أحقاً « فات ومات » كل من استشهد في الدفاع عن الحق العربي منذ عام ١٩٤٨ ؟ والقدس ؟ وكل ذرة تراب في فلسطين ؟ والدمار في شوارع دمشق ؟ وجثث المقاتلين المشتولة في سيناء هل يمكن أن تموت دون ان تنبت في الموسم القادم — أي الحرب القادمة — غابات من المقاتلين ؟ هل هنالك عربي يستطيع ان يقول بقناعة « اللي فات مات » ؟

ولكن ، لا بد من الاقرار ان بين أمثالنا الشعبية ما يعبر تعبيراً مؤثراً عن واقع قديم متخلف . هنالك مثلاً : « اللي يعوز الكلب بيقوله يا سيدي » — أي : من يحتاج الكلب يقول له يا سيدي !

و « الايد اللي ما بتقدر عليها بوسها وادعي عليها بالكسر » — أي : اليد التي لا

تستطيع مقارعتها . قبّلها ، ثم أدع عليها سراً بالكسر !

وليس المهم أن تغير أمثالنا الشعبية — اذ انه من السهل اصدار مرسوم في هذا الشأن — بل المهم أن نغير أنفسنا . ان نكف عن التصرف في كل مجال وفقاً لبعض الأمثال التي تكرس سلبيتنا وتخاذلنا وتشجعنا على الانتهازية وايجاد خطة للهرب .

المهم أن نثبت لخبراء كيسنجر اللغويين ، الذين يزودونه بمثل هذه الامثال كمفاتيح لفهم العقل العربي ، أن العقل العربي تغير ، وانه ليس صحيحاً أن « ما فات مات » ، وأن هنالك أمثالاً أخرى يبدو انه يجهلها هي أصدق تعبيراً عن واقعنا اليوم ومنها « ما ضاع حق وراءه مطالب » ...

... وان مئة وخمسين مليون عربي يطالبون ، ويطالبون ، ولم ولن ينسوا ما فات !

* * *

١٩٧٤ / ١١ / ٢٥

تقاسيم منفردة على عود الحزن

احرقوهم ولكن من رمادهم سينهضون ... ومن اجسادهم الفلسطينية المصلوبة بمسامير النار تنبت قيامتهم العظيمة ، قيامة الشعب الفلسطيني المعمدة بالدم والنار والشوك والصمود ...

كل ما فعله اولئك الفدائيون الثلاثة هو انهم قرروا ، ذات فجر ، العودة إلى بيوتهم في بيسان ... وكان الصهاينة في استقبالهم ... رموا بهم من النوافذ على طريقة « الغانغستر » الاميركية ... سلخوا فروة رأسهم على طريقة مخرجي هوليوود ... جرجروهم على درب الجلجلة على طريقة بني اسرائيل ... وصلبوهم على طريقة يهوذا ... واحرقوهم بالنار على طريقة الافران النازية ... فهل استراحوا ؟ ! .

من قال إن الشهيد يموت حين يقتل ؟ .. الشهداء يولدون من رحم الموت ، وتتكون اجسادهم داخل رحم النار ، ويولدون ولادتهم الحقيقية في حمامات الدم...

وشهداء بيسان سيضيئون علامات في الطريق الحقيقي للعودة إلى فلسطين ... ومنارات تهدي الضالين عن المرفأ الحقيقي بين صخور الحلول الاستسلامية وسرابها ...

* * *

للتو قرأت ما كتبته ، وشعرت بأسى عظيم ! .. ما أكثر الكلمات المشابهة التي سيخطها آخرون ... أجمل قليلاً أو اسوأ قليلاً ولكنها كلها مثلما كتبت : كلمات ... كلمات للاستهلاك المحلي ...

وماذا يجدي ذلك ؟ ..

ماذا يجدي الموقف « الخنسائي » من القضية ؟ ماذا يجدي رثاء أبطال بيسان ، أو التنديد بالعدو الاسرائيلي ؟ .

أجل ، ماذا تجدي أقلامنا المتفرجة ، الراثية أو الغاضبة أو النادبة ؟ .. كل الكلمات في ظرف كهذا أحسها كالصمغ في فمي . كل الكلمات كأقراص «الفاليوم»

المهدئة ، أو كأغنية « يا ليل يا عين » في ليل عاشق سلبي ... كل الكلمات مثل تقاسيم منفردة على عود الحزن ...

* * *

تلك الاجساد الفلسطينية العظيمة التي احترقت في بيسان لتضيء ثلاثة نجوم في درب مجرة العودة ليست في حاجة إلى تفجعنا ... ولا إلى دهشتنا أو رثائنا أو استفظاعنا ...

الشعب العربي كله يعرف البدهيات التي نكررها ... الشعب العربي كله ليس في حاجة إلى تحويل احزانه إلى « تطريب » : رثاء ، مديح ... إلى آخره .

ماذا يبقى لنا نحن الكتاب ؟ .. قد يريحنا أن نغني ملحمة الشهداء على الصعيد الشخصي ، لننام وقد أرحنا بعض ضمائرنا المختبئة خلف المحبرة والقاموس ، ولكن ... ولكن واجبنا الحقيقي يكمن في الفعل هناك ...

واجبنا الحقيقي يكمن على الأقل في ايصال صوت الحقيقة إلى العالم الخارجي ، وهذا أضعف الايمان ...

* * *

ليسقط القلب الذي لا يشارك العقل في التخطيط لأحزانه ! .

ليسقط القلب الذي لا يوظف العقل لتحويل بكائياته إلى فعل مقاومة ايجابي ! .

لتحترق اقلامنا إذا كانت ستكتفي بغنوة « أوف » امام الجسد الفلسطيني النازف كجسد المسيح ، مهما كان الصوت جميلاً والغناء رخيماً ! .

فليسكت القلب قليلاً ، القلب العربي الشاسع كالصحراء ، القلب العربي العميق كبئر الدهور ... فليسكت ، وليترك العقل يتكلم بعيداً عن رائحة الأجساد الطاهرة المحروقة وشظاياها التي تلطخ وجوهنا جميعاً ، نحن الجالسين في مقاعدنا الهزازة نقرأ أخبار الشهداء الذين ماتوا بالنيابة عنا هذه المرة ! ..

* * *

الحادث بشع .

العالم الغربي لا يزال مفتوناً باسطورة اسرائيل المتحضرة في قلب صحراء التخلف العربية ..

الشعوب الاوروبية والاميركية لا تزال تعطف على الاسرائيليين الذين يمثلون العالم

المتحضر الصامد في وجه « العرب – الوحوش » الذين يريدون أن يقذفوا بهم إلى البحر ...

الإعلام الاسرائيلي المتفوق يكرس هذه الاسطورة . الإعـــلام العربي في الغرب لا يزال اسوأ محام لأعدل قضية .

هذه الحادثة الرهيبة في بيسان يجب أن يقل الحديث عنها على الصعيد العربي ، وأن يكرس لفضحها في العالم الغربي مزيد من الامكانات العربية المالية والفكرية ... من الضروري إطلاع العالم الغربي على أن أفران الغاز النازية ، التي لا يزال الصهاينة يبتزون شفقة العالم من ورائها ، هذه الافران ليست سوى اختراع إسرائيلي جربه النازيون فيهم قبل ربع قرن ونيف ! .

* * *

في الداخل : قليلاً من الكلام عما حدث ، فليس فيه مفاجآت وانما هو بدهيات بالنسبة إلينا نحن العرب الذين نعرف اسرائيل جيداً .

في الخارج : لا يجوز أن تمر الحادثة مثل سقوط حجر في مستنقع . إنطلاقاً منها يجب فتح سجل اسرائيل معنا ، وبشكل فعال .

لا يفيدنا كثيراً أن تشتري الاموال العربية « برج ايفل » « والامباير ستيت » و « الموناليزا » وراقصات « الكانكان » و « كازينوهات » مونتي كارلو ...

اشتروا لنا قنالاً في تلفزيون غربي ، القنال نفسه الذي تبث منه اسرائيل دعايتها . (رسالة من قارىء في بريغتاون في انكلترا ، وصلتني هذا الاسبوع ، تشكو من فيلم اسرائيلي دعائي بثته الـ B.B.C.2 في لندن . ورسائل أخرى من لندن في هذا المعنى كلها تشكو من الدعايات عن اسرائيل ، « جنة التكنولوجيا المتحضرة » !) .

ايتها الاموال العربية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ... ايتها الاموال العربية ، كفري عن خطاياك ... ايتها الأموال العربية ، حولي معزوفاتنا المنفردة ، نحن الفنانين ، إلى فرقة سيمفونية تروي للعالم حقيقة ما يدور ، وتكسر طوق التعتيم الاعلامي الذي تتقنه اسرائيل ...

فقد تعبنا من « مواقفنا الخنسائية » ، من قضايانا الوطنية وتعبت منا فلسطين ! .

٢٦ / ٧ / ١٩٧٧

فلسطين المحتلة ؟ بل التي تحتلنا ! ..

رافقت الزميلة فاطمة ناعورة السردوك إلى الأخ أبو اللطف .. الزميلة سجلت تحقيقاً صحافياً وأنا لعبت دور الشاهدة الصامتة تماماً . كنت الخرساء المثالية ، لكن قلمي يرفض التواطؤ مع صمتي .

ها نحن في الدرب إلى مقره . نتغلغل في احشاء الزحام . نصل ، ومقره محاط بالبيوت اللبنانية التي تغلفه وتحتضنه كالرحم . إنه احتضان الشعب للثورة بالحب كله وتلاحمه معها . فلسطين المحتلة ؟ بل فلسطين التي تحتلنا من محيط القلب إلى خليج الشريان . فلسطين التي تحتل ذاكرتنا وتاريخنا ومستقبلنا . الأرض المحتلة ؟ انها رقعة الجسد العربي والوعي العربي وهذه المئة والخمسين مليون مستعمرة تحتلها بأكملها فلسطين . هذا ما يقصدونه بـ « فلسطين المحتلة »(*) ! ..

* * *

أبو اللطف يقدم لنا قهوته وسجائره وابتسامته ومروحة كهربائية وحبة كرز والود الفلسطيني كله ، ولكن خيل الي انه يقول لنا أيضاً بصمت : لم يبق ما يقال أيها الحمقى . لم يبق على وجه الكرة الارضية مكان لم يغسله الدم الفلسطيني . تلك هي ابجديتنا .. انتهت المقابلة الصحافية .

لانني الشاهدة الصامتة ، كان بوسعي أن اسمع الحوار الذي لم يقل . كانت هناك آلتا تسجيل واحدة لفاطمة وأخرى لأبو اللطف ، وكانت اعماقي تسجل صوتاً آخر .. قالت له : أنا محامي الشيطان .. من هذا المنطلق سأطرح الاسئلة .. وقررت : إنها صحافية ممتازة حقاً .

ولكنني سمعت صوت الفلسطيني يصرخ عالياً حتى حدود الرعد في البرية : كلكم « محامي الشيطان » حينما يتعلق الأمر بنا . معنا فقط تتذكرون (الموضوعية) و (لغة الأمر الواقع والعصر والكومبيوتر والتعقل .. مع سوانا هنالك دوماً « لغة القلب »

(*) نشر المقال في مجلة « فلسطين المحتلة » .

وتقدير الظروف .. كم انتم حاذقون في قسوتكم !) .

المصور يدور حول ابو اللطف يلتقط صوره .. أسمعه يصرخ بصمت : أوقفوا اضواء الفلاشات .. الرصاصة ليست بحاجة لغير بريقها الخاص لحظة إطلاقها . كذلك بريق الخنجر لحظة الطعنة .. لقد التقطتم لنا ملايين الصور ولكنكم حتى اليوم لا تعرفون صورتنا الحقيقية ! ..

عراه وظهورنا ملصقة إلى جدار الإعدام وليس لدينا ما نخسره حتى ريشنا .. وفي أعماقنا زخم الثورة حتى ثمالة الغضب .. فاحذروا المقامرة معنا ..

* * *

خلفه صورة قبة مسجد الصخرة .. لا تبدو لي تذكاراً سياحياً .. تبدو لي صرخة تحذير : حذار من السياحة فوق الجرح الفلسطيني . هذه ليست صخرة إنها (لغم) .

إلى يساره أربع تلفونات . أبيض . أحمر . أزرق . أخضر .. « لماذا الحوار الصحافي ؟ ربع قرن ونحن نحدثكم بألوان الدم كلها ، بنبرات القلب كلها ، بالأبجديات كلها .. شريط الهاتف الوحيد الذي ينقل صوتنا هو فتيل الديناميت ، والهمسة الوحيدة التي يسمعها العالم هي طلقة (الكلاشن) ! .

علاقتنا بلبنان وجماهيره كعلاقة حب . شرسة وحادة ، وخلاقة ومبدعة . كطعنة سرية في القلب توقظ ضرباته ! ..

* * *

يدخل شاب ويهمس في اذن أبو اللطف . اتأمله وأغص . انه مشروع شهيد . كل فلسطيني هو شهيد مع وقف التنفيذ .

على الجدران أربع خرائط : تحاصرنا فلسطين من الجهات الاربع . أتقدم وأمشي داخل الخارطة عبر الجدار . ها أنا في الداخل ... لا أستطيع الخروج ولا أريد الخروج.. سوف نلتهب معاً ، نحترق معاً أو نضيء معاً . فلسطين المحتلة ؟ بل فلسطين التي تحتلنا ! !..

١٥ / ٦ / ١٩٧٣

والثائر يلهو أحياناً ...

القرار القاضي بمنع التجول بين الواحدة ليلاً والخامسة صباحاً لم ينس أن يلفت أنظارنا إلى أن رواد الملاهي يستطيعون البقاء داخلها أثناء ساعات منع التجول أي بين الواحدة ليلاً والخامسة صباحاً ... وهكذا ، وبعد ان كانت برامج الكاباريهات تنتهي مع الرابعة صباحاً صار روادها مرغمين على اطالة سهرتهم حتى الخامسة صباحاً وممنوع الملل قبل ذلك وممنوع الخروج من الملهى قبل الخامسة ...

ولكن ذلك كله خارج الموضوع ! ...

القضية هي أن هذا القرار ربما كان حكيماً من الناحية الاقتصادية ، فهو نابع من الحرص على عدم (ضرب) قطاع الملاهي ، إلا انه طريف من الوجهة النفسية .. فهو ينطوي على فهم تقليدي خاطىء لمفهوم الثائر والثوار والحزبيين والمناضلين أو حتى المخربين ... فهذا القرار يفترض ضمناً أن البشر ينقسمون إلى فئتين : فئة ترتاد الملاهي وهي فئة (غير فعالة) سياسياً وبالتالي لا مانع من تجمعها في مكان (مسالم) هو المقهى لا تشهر فيه المسدسات إلا من أجل سيقان الراقصات ، وفئة أخرى هي بقية أفراد الشعب الذين يمكن أن يكونوا (خطرين) وتحرم تجمعاتهم وتظاهراتهم ...

وهكذا فهذا القرار يفترض ضمناً أن فئة عشاق السهر والطرب هي خارج دائرة الأحداث وخارج إمكانات التمرد والشغب والعنف والديناميت ... وهذا خطأ فرعي ناجم عن نظرتنا الخاطئة أصلاً إلى مفهوم الثائر أو الحزبي أو المقاتل أو أي إنسان غارق في قضايا مصيرية تشغله .

المناضل في نظرنا ما يزال يحمل صورة تقليدية بحاجة إلى تبديل ...

اننا نطالبه بأن يكون (عذراء) بعيداً عن النساء والمرح والضحك والموسيقى ، وجهه مكفهر ، لا يدخن ولا يتزوج ، وان فعل فمن أجل الانجاب لا المتعة ، لا ينطق إلا بالحكمة ، ويتجنب المرأة كما لو كانت وباء ضد الوطنية ...

وهذه نظرة قاصرة وخاطئة ... فالمناضل إنسان .. وكلما كان أكثر التصاقاً بإنسانيته كلما كان أصدق بطولة ... والمناضل ككل البشر يمكن أن يرتاد الكاباريه أحياناً وليس صحيحاً ان عشق اللهو والطرب لا ينسجم مع عشق القضية والوطن ... فالانسان الذي لا يعرف كيف يحب ويلهو لا يعرف كيف يكون جاداً ويحارب ..

اعتقد أن هذا القرار يتضمن إهانة ضمنية لرواد الملاهي ...

اقترح عليهم الاضراب عن السهر لأن القرار استثناهم وبالتالي وصمهم بتهمة المسالمة والحياد ، والحياد في مرحلتنا الحالية هو تهمة (الخيانة العظمى) ...

اقترح عليهم الخروج في تظاهرة مطالبين رد الاعتبار اليهم وعدم السماح لهم بالتجمع أسوة بأي تجمع حزبي .

بل واقترح عليهم رفع قضية امام المحاكم المختصة ، والمطالبة بتعويض عن الإهانة الضمنية التي لحقت بهم ...

ما رأي الصاحين من عشاق الليل والسهر ؟ ...

١٩٧٣ / ١٠ / ٢٠

... ونسوا أنهم عبروا النهر ليلة الميلاد !

عريب أمر هذا العالم ! فجأة صار بعض الصحافيين الاميركيين والغربيين عاطفيين أكثر من روميو ، رقيقين أكثر من سيرانو دي برجراك ، متمسكين باخلاقيات المبارزة أكثر من الكونت دي مونت كريستو ! ..

ففي أكثر الصحف والمجلات الغربية التي طالعتها في الاونة الاخيرة ، لاحظت ان الكتاب يركزون على ان مصر هاجمت اسرائيل يوم الغفران المقدس ... وان عبورها القناة واليهود مشغولون بشعائرهم الدينية عمل غير أخلاقي .

من الضروري تذكير أولئك السادة بأن بطلهم جورج واشنطن سبق له ان عبر نهر بوتوماك (نهرأميركي) بجنوده ليلة عيد الميلاد كي يفاجيء الجنود البريطانيين . وانه اغار عليهم بينما كانوا مشغولين بتناول عشاء الميلاد « الكريسماس » . وهم يدرّسون هذه الواقعة في كتبهم المدرسية بكل فخر ، ويعتبرون هذا العمل من دلائل ذكاء بطلهم القومي !..

* * *

اليزابيت تايلور رعت حفلاً في روما لتأييد حرب اسرائيل وجمع التبرعات لها ، وكانت الامبراطورة السابقة ثريا تمنح الحفل « بركتها » ! .

ليزا مانيللي الموهوبة ، التي أحببناها في فيلم « كاباريه » ، تصل قريباً إلى اسرائيل « لترفه » عن الجنود هناك .. الاميركي داني كاي وصل وباشر نشاطه « الترفيهي » ! .

انريكو ماسياس ، ليونار كوهين ، توبول ، وغيرهم من الفنانين جددوا ولاءهم لوطن اللاولاء للانسانية ! .

الامبراطورة ثريا هي مجرد امرأة عادية عاثرة الحظ ، وممثلة فاشلة ، وليس لانحيازها لاسرائيل أي مدلول فكري . ربما كانت ضجرة تلك الليلة فذهبت إلى أول حفل دعيت اليه ! .

ولكن ماذا عن بقية الفنانين الذين لا يخلو بعضهم من الموهبة ؟ يمكننا القول ببساطة : أكثرهم أو كلهم من أصل يهودي ، ولذا انحازوا إلى اسرائيل . ولكن هذا التفسير يصلح للحديث عن الناس العاديين ،حيث الولاء العشائري فوق الولاء الفكري . ولكن ماذا عن المبدعين ؟ أليس من المفروض أنيكون ولاء المبدع الوحيد هو للحقيقة وللعدالة ، أي للجمال وللحب ولكل ما هو انساني في هذه الحياة ؟ إن الإنسان لا يستطيع أن يكون فناناً مبدعاً إلا إذا كان يحمل البراءة والعدل إلى العالم ، وكان ولاؤه الوحيد هو للحقيقة قبل رابطة الدم أو الدين. الفنان هو الذي انعتق من تدجين الولاءات العادية ليصير جندياً في معركة الحقيقة والصدق والإنسانية ، فكيف يمكن لمن هو كذلك أن يصير مرفّهاً عن جيش مكرس للعدوان والاغتصاب و لتدمير العدالة والفرح والحب ؟ ! .

من هنا ان أي فنان حقيقي هو حكماً عدو لاسرائيل ما دامت اسرائيل عدوة لكل المثل والقيم التي يحيا الفنان ويموت لأجلها ...

ولكن يبدو إن الشخصية اليهودية ما تزال بدائية الولاء والانتماءات حتى لدى مفكريها وفنانيها (إلا في ما ندر ، مثل المستشار كرايسكي الذي كان ولاؤه للنمسا لا لأصله اليهودي) .

فإذا كان هذا حال مبدعيها ، فعلى أية درجة من التخلف العشائري نجد بقية أفرادها ؟! ان تيه بني اسرائيل ، الذين يضربون في الأرض ، ينبع من داخلهم ، من حسهم الموهوم بالتفوق إلى حد ولاءهم لشهواتهم بدلاً من ولاءهم للإنسانية والعدالة... ولن يكون هنالك سلام لا لهم ولا لنا قبل أن يطوروا حسهم الإنساني بقدر ما طوروا حسهم التجاري . ومجيء فنانين من أصل يهودي إلى اسرائيل للرقص في وليمة العدوان هو إدانة اضافية للشعب هناك ، واثبات ان العشائريــة لا العقل تتحكم بسلوك حتى فنانيه ومبدعيه .

مبدعوه ؟ .

عفو الكلمة ! . فالابداع سلوكية كونية راقية .

* * *

« عندما يقضي « الجيتان » في الحرب ، يحتفل ذووه بموته فيقيمون الولائم . أما عندما يولد لهم طفل ، فانهم ينتحبون لدخوله هذه الدنيا حيث سيلاقي العذاب ، لا مناص . » (من كتاب « الحقيقة ولدت في المنفى » لفانتيلا هوريا) .

وعندما كان الاسبارطيون يذهبون إلى الحرب . كانت الام تقول لابنها : « ارجع بدرعك أو محمولاً عليه » .

وحينما قامت حرب التحرير في أوكرانيا . بقي بين « الستش » المقاتلين أربعة فقط كبار في السن . فلم يكن ممكناً أن تجد بينهم اناساً طاعنين في السن ، إذ لا رجل من زابورجي مات ابداً ميتة طبيعية . كلهم يموت في الحرب فقط ! .

من زمان كان العرب يبعثون بأولادهم إلى البادية كي يتعلموا الشعر والفروسية . اليوم إلى أين نبعث بأولادنا ؟ .

* * *

في ٥ حزيران اعتنقنا الحزن .

في ٦ تشرين اعتنقنا الفرح .

متى نعتنق الحقيقة ؟ .

أرسطو قال : « الجاهل يؤكد . العالم يشك . والعاقل يتروى »

متى نتروى في الحزن والفرح ؟ .

١٥ / ١٠ / ١٩٧٣

« عيد الغفران » العربي !

عيد الغفران ...

تقول غولدا مائير اننا هاجمناهم يوم « عيد الغفران » ، « عندما تكرس اسرائيل يومها للصلاة والصيام » ، على حد زعمها .

والمدهش أن يكون لاسرائيل عيد واحد من هذا النوع كل عام ! ...

فحينما يتزلق في عيوننا شريط انتهاكات اسرائيل للشرائع الإنسانية والاخلاقية ، نشعر بأن عليها تكريس كل أعوامها الباقية ، للصلاة من أجل الغفران ، وأن عليها أن تتحدث عن « أعوام الغفران » لا عن « يوم الغفران » .

وحينما تصف غولدا مائير الهجوم العربي الصاعق بانه لم يراع التقاليد الاخلاقية (!) نشعر بحاجة إلى الانفجار في الضحك والغضب معاً ، تماماً كما قد نشعر أمام غانية تحاضر عن الفضيلة في جمعية « الدفاع عن مكارم الاخلاق » ! (التقاليد الاخلاقية الاسرائيلية العريقة (!) كانت وراء ضرب المدنيين العزل في دمشق وحمص واللاذقية) .

عيد الغفران ...

كان يوم ٦ اكتوبر يوم عيد الغفران الاسرائيلي ، فصار يوم عيد الغفران العربي .

انه عيد غفراننا لأنفسنا خطيئة ما بعد ٥ حزيران ، وعيد غفران التاريخ لنا ...

لقد سقطنا بعد هزيمة ٥ حزيران في هوة الحزن واليأس والعار ، وحملنا الهزيمة مثل حجر القبر فوق صدورنا . رزحنا تحت وطأة الشعور بالذنب . وكما يقول الدكتور يوسف ادريس : « في البداية ، كنت مثل أغلب زملائي شديد القهر للنفس والتبكيت لها والمعاتبة والاحساس بانني أحد اسباب الهزيمة . ثم بدأت اكتشف إن الهزيمة الحقيقية هي أن نقف هذا الموقف المكسور » ...

« الموقف المكسور » كان من بعضه أن انسقنا إلى تمجيد قوة عدونا لنبرر أمام

أنفسنا هزيمتنا ... ووجدت اسطورة اسرائيل التي لا تقهر ارضاً خصبة في نفوسنا المكسورة ... ونسينا طرح قضية احتمالات الحرب ، وتوقفنا عند الحديث عن حالة « اللاسلم — اللاحرب » التي توهمنا ان اسرائيل فرضتها وكرستها ولا راد لقضائها !

إلى ان كان يوم ٦ اكتوبر ... يوم عيد الغفران العربي ... يوم استعدنا الامكانية الأشرف والقدرة الأنبل : القدرة على الحرب .

نصر ؟ هزيمة ؟ ... لا يهم ! فالحرب جولات ... المهم اننا انتصرنا على « موقفنا المكسور » ...

* * *

حينما تنفجر الحرب ، اية حرب ، تصير « الكلمة » للبندقية ، ويصير « السيف أصدق انباء من الكتب » ، ويقرر زند المقاتل مصير الامة ، ولذا يشعر الفنانون — بصورة عامة — بشيء من الخجل الضمني ، ويقفون حائرين ، ويغمى على الكلمات فوق شفاههم . يصيبهم احساس الاخ الصغير الذي يرقب صراع اخيه مع عدو لا يرحم ، ويرى الدم يسيل ولكنه لا يملك إلا الصمت أو نظم قصيدة مدح في شقيقه أو تطيير برقية تأييد له ووعده بشرح عدالة قضيته للعالم ... وفي ٥ حزيران كفر الفنان العربي بالقلم ، فلغة البندقية في زمن الحرب هي لغة الحوار الوحيدة الممكنة ... وكثيرون أعلنوا في نتاج تلك المرحلة عن أسفهم لأن « مهنتهم » غير مجدية لأمة مكتوب عليها أن تحمل السلاح لتحيا ...

ولكن ، ما مدى صحة هذا الشعور الآني ، الموجع ، باللاجدوى ؟ .

لقد أصاب بايرون ذات يوم مثل هذا الشعور ، فكسر قلمه والتحق بالثورة اليونانية عام ١٨٢٢ لانه آمن بها . كان شاعراً عظيماً ومقاتلاً سيئاً ، ومات بعد التحاقه بالثورة اثر مرض عضال ونوبات صرع ، فجسده الهش لم يقو على ضريبة الدم في الحرب ... ولكنه لو عاش لاستطاع أن يمنح ضريبة الفن ، ولغنى الثورة والثوار ، ولخلدها كما فعل بيتهوفن الذي كان أكثر وعياً بحقيقة مهمته كفنان في زمن الحرب . بيتهوفن كان معجباً بنابليون ، ولكنه لم يقدم طلباً للانضمام إلى صفوف الحرب وانما انزوى في غرفته ليقوم بمهمته الحقيقية التي أهلته الطبيعة لها ، وهي العطاء الفني . وكتب بيتهوفن واحدة من أجمل سيمفونياته الخالدة هي السيمفونية الثالثة واهداها إلى نابليون ، (ثم عاد وحرمه منها لأن نابليون تحول في نظره من بطل للشعب إلى عدو للشعوب المسالمة حين نصب نفسه امبراطوراً فالثائر في نظر بيتهوفن أكثر أهمية من

الامبراطور وشهية الحكم تفسد النقاء الثوري) ، فعاد وسمّى سيمفونيته تلك سيمفونية البطولة (هيرويبكا) . واليوم ، حينما يستمع الثوار في كل مكان إلى سيمفونية البطولة ، يشعرون بأن بيتهوفن كان يغنيهم جميعاً . لقد خرج بيتهوفن بتجربته من حدود بطولة فرد وشعب إلى البطولة الإنسانية وصراع الشعوب المناضلة كلها من أجل الكرامة والعدالة ... ولو ذهب بيتهوفن إلى القتال لكان مقاتلاً آخر سيئاً كبايرون ، ولخسر العالم كنزاً من العطاء هو موسيقى ذلك المبدع الكبير ... الفن والحرب معاً على طريقة أبي فراس الحمداني ؟ ربما ، ولكنني أذكر بالمقابل همنغواي الذي التحق بالحرب الاسبانية فكان نصف مقاتل ونصف مبدع ولم يرق قط إلى مرتبة بيتهوفن الابداعية .

ربما كنت أخط هذه السطور لأقنع بها نفسي ، قبل أن اقنع العالم ! لانني ، وانا جالسة في مقعدي اخط هذه السطور — الآن الساعة الثانية من يوم الاربعاء ١٠ اكتوبر — ارى عبر النافذة معركة جوية بين طائرات العدو وأخرى عربية . ها هي طائرة تهوي إلى البحر ... تهوي ... تهوي ... وانا مسترخية في مقعدي (يا لخجلتي) ! ويهوي القلم من يدي .

١٢ / ١ / ١٩٧٣

إرادة الرد على العدوان !

لا شيء أكثر مهانة من الصفعة التي لا ترد . والجرح الذي تتستر الضحية عليه أكثر من تستر القاتل ، والعار الذي تسدل الأمة عليه ستار النسيان ...

وهزيمة ١٩٦٧ لم تكن هزيمة ستة أيام بل هزيمة ستة اعوام ... فقد بدأنا منذ أيام عامنا السادس من أعوام التكتم على الانهيار المستمر ، والتستر على ضعفنا وتهربنا من مواجهة المسؤولية العملية واخفاء ذلك كله بغطاء جوي من الحرب الخطابية الطنانة . عاماً بعد عام بعد عام ...

وصارت أرض الهزيمة مستنقعاً من الرمال المتحركة نغوص فيها ببطء دون أن نلحظ انها توشك أن تبتلعنا نهائياً ...

وانتابتنا حالة من الخدر . حالة من التسمم بالسلم المفروض علينا بالقوة من قبل اسرائيل ، تسمم بطيء ولكن مستمر ، مثل تسمم أهل الكهف بالهواء الفاسد ... مثل تسمم الأسر الفقيرة بوعاء الجمر الذي لم يشتعل جيداً ، فاطلق غازاته القاتلة ومات أهل الدار وهم نيام دون أن يدروا ماذا حل بهم ...

وألفنا الهزيمة ...

قبل هزيمة ١٩٦٧ كانت عبارة « الصلح » وحدها كافية لإلهاب الشارع والقلوب والذاكرة الوطنية ... والذاكرة الوطنية تخدرت اليوم وألفت المهانة ، وصرنا نستمع إلى الحوار عن الصلح ونقرأ عنه بلا مبالاة كأننا نقرأ نشرة جوية عن حالة الطقس قبل عشرة أعوام في استراليا مثلاً ! .

العمليات الفدائية وحدها كانت من وقت إلى آخر تنعش ذاكرتنا المشلولة ... ومع ذلك يتابعها الكثيرون كما يتابعون أفلام جيمس بوند ... يفرحون بالبطولة ويصفقون ثم يعودون إلى النوم العميق ... خدر على خدر . والكل لا يعي حقاً التهديد الحقيقي والعملي الذي تشكله اسرائيل بالنسبة لكل أسرة وبيت يقطن هذه المنطقة من عالمنا

العربي ، ولو كنا حقاً نعي ذلك لتبدل سلوكنا اليومي بأكمله ... ولالتهبت المنطقة بالثورة على الذات العربية ... ولكن ...

وهكذا ، والناس لما يصحوا بعد من سكرة ليلة رأس السنة ، والاوراق الملونة والطراطير والزمامير لما تكنس بعد من شوارع العالم العربي والبالونات ما تزال تتفجر في سمائها ، سمعت انفجارات من نوع آخر في سمائها ... لا انفجارات البالونات والضحكات والرقصات ، وانما انفجارات الصواريخ وهدير الطائرات ... والمتزلجون فوق ثلوج فاريا فوجئوا بطيار سوري يسقط بمظلته في حلقة خدرهم يوقظهم من وهمهم انهم في سويسرا الشرق ... ويذكرهم انهم بحالة حرب .

معركة ...

معركة جوية ، لا من طرف واحد ... طائرات اسرائيل لم تأت هذه المرة إلى سماء لبنان في رحلة تأديبية واستجمامية كعادتها وانما كانت مطاردة ...

المقاتل السوري رد على العدوان ، ودخل في معركة جوية مع قوات العدو الذي كاد يصير أسطورة كالغول والعنقاء والتنين وبقية اساطير العرب .

بغض النظر عن النتائج ... عن حجم المعركة وعن قيمتها بالنسبة للحرب ككل ، وعن خسائر العدو فيها أو خسائرنا ...

بغض النظر عن آراء (الكومبيوتر) حول هزيمتنا الحتمية في أية حرب نظامية ندخلها الآن مع قوات العدو لتفوقه في الامكانات ، وبغض النظر عن الكلام العاقل والمنطقي حول الحرب الذي نعرفه جميعاً ، تظل هنالك حقيقة واحدة ... هي ان المعركة أنعشت ذاكرة الناس جميعاً .

رد شعب سوريا في هذا الوقت بالذات ، ذلك الرد العفوي المستميت الشرس أيقظ في النفوس الحنين (النوستالجيا) الوطني المتراكم في وجدان الإنسان العربي منذ قرون والذي لا يسهل غسل دماغه منه بربع قرن من الاذلال ..

٣ / ١٢ / ١٩٧٣

مصرع « البطل » التوراتي في ٦ تشرين !

يوماً بعد يوم ، تتصاعد نغمة البكاء والنواح في اسرائيل ، وتأتينا صور العويل واللطم كلما اكتشف الناس مدى خسارتهم البشرية في حرب تشرين ١٩٧٣ .. بكاء ونواح تمرس فيه اليهود قروناً عند حائط المبكى .. وهكذا اضطرت اسرائيل إلى إخفاء الرقم الحقيقي لقتلى الحرب ، ولم يخف مدير الصحة العقلية الاسرائيلي أن الذين طلبوا العلاج بسبب الانهيارات العصبية والحزن قد ازدادوا بنسبة ١٠٪ منذ نشوب الحرب ...

يلفت النظر في المناحة الاسرائيلية الجماعية ، انها اتخذت ما يشبه ظاهرة العصيان المدني وتقريع المسؤولين والحكام ... والذي يتأمل في صور الندابات يرى في العيون ما هو أبعد من الحزن : إنه الحس بالخديعة والغضب ، بل والدهشة ... أجل دهشة غاضبة مذهولة ، لأن هنالك من خدعها وتخلى عنها ... ومع تصاعد أرقام القتلى ، كانت تتصاعد الصيحات المطالبة باقصاء المسؤولين العسكريين عن (الكارثة) ... ولكن لماذا يكون في الامر كارثة غير عادية ؟ ...

لأن الاكذوبة الصهيونية حول (السوبرمان) الاسرائيلي ، (الاكذوبة التي اطلقوها هم وكانوا أول من صدقها) ، تنص بنودها على أن الاسرائيلي قد يُجرح لكنه لا يُقتل ... وان حرب الإبادة التي يشنونها ضد الفلسطينيين والعرب لن تكبدهم من القتلى أكثر من قتلى « الويك اند » بحوادث السير ! ...

ليس بين شعوب الأرض كلها على طول تاريخها من دخل حرباً وهو على هذه الدرجة من الغرور ، وغسيل الدماغ الجماعي إلى حد التوهم بأن افراده يستعصون على القتل ... وحتى الاغريق في أساطيرهم الحربية — منذ ٣ آلاف عام — التي كان يشترك فيها أبناء جوبتر وغيره من ارباب الاولمب كانوا يسمحون لأولادهم الهابطين من جبال الأولمب بان يقتلوا في الحرب بأيدي أعدائهم ... ان من يدرس أدب الاسرائيليين

واساطيرهم على طول تاريخهم تذهله ظاهرة لا وجود لها — على هذه الدرجة من الحدة — في أي تراث إنساني ! ... انها ظاهرة « السوبرمان الصهيوني » ... البطل لديهم دوماً متميز ومتفوق على كل شعوب الأرض ، وهذا التميز يمنحه (عذراً) لقتل أو ابادة أو على الأقل ممارسة الخداع المالي مع بقية البشر ! ... وفي كتاب الراحل غسان كنفاني عن أدب المقاومة ، نجده يشدد على هذه الملاحظة في الأدب الصهيوني ويتحدث عن ظاهرة « البطل المعصوم الذي يتمتع على الدوام بشعور واضح بالتفوق واحتقار واضح لكل ما عداه » كما انه شدد على ان هذا الحس الموهوم بالعظمة كان دوماً « سلاح الانعزال اليهودي ، والمتراس الذي من ورائه رفض معظم اليهود مبدأ الاندماج بالشعوب الأخرى ، وقد حفلت الاعمال الأدبية اليهودية بشواهد دامغة ولا تُرد على ذلك » ...

ويعود بنا إلى عصر التلمود « الشواهد على هذا في التلمود أكثر من أن تحصى ، والواقع ان البطل اليهودي في قصص التورات تمتع دائماً بالقوة الخارقة والبطولة التي لم تنتكس لحظة واحدة » ...

والذي يقرأ بعضاً من روايات الأدب الصهيوني تذهله هذه الظاهرة ، واسمها ظاهرة « جنون العظمة » أي « بارانويا » واستمرارها في أكثر نتاجهم . وثمة تصاعد في جنون العظمة يلفت النظر في أدب ما بعد ٥ حزيران الاسرائيلي ، وحتى يائيل دايان التي كانت عصرية في معالجتها لموضوع « البطل » ، انضمت إلى جوقة المؤلهين للصهيوني ... ومن هنا كانت الحرب السريعة الخاطفة هي المفضلة لاسرائيل ، لا لأسباب اقتصادية وعسكرية فحسب ، بل لأسباب نفسية وسيكولوجية تتعلق بطبيعة الشعب الاسرائيلي والوهم الكبير الذي يعيشون فيه ... ومن هنا كانت الحرب الطويلة الأمد للعرب محتومة ضرورية. وبمثابة العلاج الوحيد لبقية الاسرة الصهيونية من جنون العظمة ووهم الخلود والظن بأن أولاد اسرائيل من نسل أكيليس — أو أخيلوس — (البطل الاغريقي الاسطوري الذي غمسته امه يوم ولد في دن خمرة الآلهة كي تمنحه الخلود ، ولكن كعبه الذي أمسكته به وهي تغطسه في الدن لم تمسه الخمرة المقدسة. ولذا كان مستعصياً على القتل إلا إذا أصابه سهم في كعبه) .. حتى أكيليس هذا سمحت الأساطير بأن يُقتل ذات يوم ، فهل تُعلّم الحرب الشعب الاسرائيلي بأن كل من يَقتُل يمكن أن يُقتَل هو أيضاً حتى ولو كان بطلاً توراتياً ؟... وهل تجعلهم الويلات ، ويلات الحرب المحتومة يعون إنسانيتهم المنسية ، ويتفهمون ان ما

حدث عام ١٩٦٧ مع العرب كان مصادفةً لا قاعدة،وان من يحارب يجب أن يتفهم سلفاً إمكانية سقوط عدد كبير من الاحياء قتلى ؟ ...

نداءات اسرائيل لا يبكين ابناءهن وانما يبكين (البطل التلمودي) الذي لا يُقهر ولكنه قد قُهر. انهن يبكين الحلم لا الرجل، يبكين الوهم والاسطورة ويركعن أمام قبر الأسطورة لا قبر الولد فحسب .

١٩٦٨/٩/٢٠

مجرم عاقل خير من حاكم جاهل !

خبر تناقلته وكالات الانباء العالمية لطرافته : اذاع راديو براغ نص بيان وقعه مجرمو تشيكوسلوفاكيا والخارجون على القانون فيها من قطاع طرق ومزورين وأشقياء ، واعلنوا في بيانهم هذا الكف تماماً عن ممارسة (نشاطهم) والاقلاع عن انتهاك حرمة أي قانون ريثما تعود الحياة الطبيعية إلى البلاد وتتجاوز امتهم الازمة التي تهدد كيانها ... وان (نقابتهم) اتخذت هذا القرار مؤازرة منها للسلطات وكي تتيح لقوى الامن فرصة التفرغ لمواجهة الازمة السياسية التي تمر بها بلادهم تشيكوسلوفاكيا ...

هذا البيان الذي تذوقت الصحافة الاجنبية حلو طرافته ، وتسابقت على نشره ، لا يتذوق العربي منه سوى مرارته .

بيانهم يذكرنا باننا نعيش في عصر بلغ الرقي الإنساني ببعض شعوبه إلى حد وعي حتى مجرميه بمسؤولياتهم القومية ، ذلك الوعي الذي يبدل الخارجين على القانون والسلطة إلى (ملتزمين) بالقانون والسلطة ، حينما تمر بلادهم باحداث خطيرة ...

الخبر يفتح أكثر من جرح عربي في أكثر من قطر ... إذ يذكرنا بنوع آخر من الإجرام نجده في أكثر من قطر عربي ، وهو إجرام السلطات بحق الشعب . لدينا مأساة آلاف من الخارجين على القانون في البلاد العربية دون أن يكونوا بالضرورة من المجرمين ، بل هم غالباً من المحتجين على إجرام السلطات بحقهم ! ... انهم ليسوا فئة الخارجين على القانون وإنما فئة الخارجين على خروج السلطات عن الدستور والقانون ، وعن المسؤولية القومية الملقاة على عاتقها وقصورها عن تحقيق أماني شعوبها القومية (وتشليحها) لهم بالتالي من انسانيتهم وكرامتهم ولقمتهم ..

وبعد فان ذلك البيان يلخص بعفوية متناهية الشيء الاساسي الذي تفتقر اليه العلاقة بين المواطن العربي وبعض سلطاته الحاكمة والمسؤولة.. شيئاً اسمه الوعي.. الوعي القومي

من قبل الطرفين .. وتوأمه الآخر الملتصق به واسمه : الثقة المتبادلة .. والثقة والوعي كالتوائم الملتصقة كلها ، يموت احدها بموت الآخر ...

الثقة والوعي وجهان لحقيقة واحدة . حقيقة اسمها : النصر ... فعلام كانت الدهشة يوم هزمنا ؟ ...

١٩٦٩/٦/٦

عن الأمير وبائعة البنفسج !

عن « الامير وبائعة البنفسج » كنت أنوي أن أكتب ...

عن رجل كان أبداً أقرب إليّ من طلقة نارية تخترق جبيني ، عن أمير في البروليتارية قررت أن أخط سطوري هذه المرة ...

حكاية عشتها ، كانت مضيئة كالفرح . قصيرة كعمر الشهب . حزينة كالخيام . لا تنسى كطعنة خنجر ...

« موعد نشر الصفحة سيتصادف في اوائل حزيران . بالضبط في ٦ حزيران ... تذكرين طبعاً ... »

وكنت أذكر ذلك جيداً حينما صممت على ان احدثكم عن « الامير وبائعة البنفسج » وذلك الرجل الذي كان أبداً أقرب إلي من طلقة نارية تخترق جبيني ...

أجل أذكر جيداً ...

٥ حزيران ١٩٦٧ .

٥ حزيران ١٩٦٨ .

٥ حزيران ١٩٦٩ ... حزيران آخر ... لكنني لن أنصب طواحين الكلام الذي اعتدنا اجترّاره في (الذكرى السنوية) لنكباتنا ..

لا .

لن انظم للذكرى ملحمة رثاء بازميل السجع والطباق والجناس .

لن أفجر كلماتي قنابل مسيلة للدموع .

لن ارجم بحصى الابجدية (الشخص) إبليس الهزيمة في (وقفة خداع الذات) ، ومهرجانات التنصل ورشوة الضمير الذاتي ..

ليس لأننا تعبنا من عكاظنا التاريخية وتعب الناس من حربنا الخطابية . وليس لأن كل ما يمكن أن يقال قد قيل ، وحتّى ما لا يقال تطوع بعض فدائيي الفكر بقوله .

وليس لأنه في البداية انطلقت موضة تأنيب الذات و (النقد الذاتي) تحت شعار (من اعترف بذنبه فلا ذنب له) كأن الاعتراف بالهزيمة يمحو الهزيمة . وبدلاً من أن يكون النقد الذاتي وسيلة إلى اصلاح الاخطاء ، استحال إلى غاية بحد ذاته وبقيت الاخطاء . وبعد موجة شتم الذات جاءت نغمة جديدة ظاهرها ايجابي لكنها ليست سوى امتداد لظاهرة شتم الذات !! ... وصارت هنالك موجة تشاؤمية خطابية رد عليها آخرون بموجة تفاؤلية ولكن خطابية أيضاً ...

وليس لأن المقالات الموضوعية القليلة التي استطاعت أن تخطط للعمل ، وتطالب بالتبديل ضاعت كصرخة في واد محروم حتى من الصدى ، لأن ردة فعل الناس منها كانت أيضاً خطابية ! انقسم الناس بين مؤيد وناقد . فلا المؤيد بدأ التنفيذ ولا حتى الناقد جابهها بالعمل ولو السلبي ... انقسمنا إلى جمهور نصفه يصفق ونصفه يصفر ولا أحد يفعل شيئاً ... وليس لانني قررت للوهلة الاولى أن أترك هذه الصفحة بيضاء ، إلا من سطر واحد أقول فيه : اخواني في الهزيمة ، لانه لم يبق ما يقال في ذكرى الخامس من حزيران ، فقد قررت بهذه المناسبة ألا أقول شيئاً . وسأتابع حديثي عن ذلك الرجل الذي كان أبداً أقرب إليّ من طلقة نارية تخترق جبيني ...

ليس لهذه الاسباب كلها عزفت عن الكلام في ذكرى الخامس من حزيران ، ولكن لايماني بأن اليوم ليس ذكرى ٥ حزيران ١٩٦٧ ، لسبب بسيط ، هو ان اليوم ما يزال ٥ حزيران ١٩٦٧ ... وليس ١٩٦٩ كما تدعي (الروزنامة) . فنحن ما نزال نتابع عيشنا في ذلك النهار الطويل الطويل الذي امتد على طول عامين ولا أدري حتام يستمر .. أن تمزيق اوراق الروزنامة وتبديل اسماء الايام لا يبدل من مضمونها شيئاً ... ونحن فشلنا حتى الآن في تبديل أي من مضمون الايام .. والهزيمة ما تزال قائمة ، تماماً كما هي ... واليوم إذن ليس ٥ حزيران ١٩٦٩ وانما هو ٥ حزيران ١٩٦٧ كما كان البارحة وأول البارحة والغد وبعد الغد إذا ظل كل شيء على حاله ...

وقبل ان أُحدثكم عن ذلك الرجل الذي كان أبداً أقرب إلي من طلقة نارية تخترق جبيني ، أود أن أصرخ بملء فمي : سادتي مزقوا تقاويمكم ولتهجر أسماء الايام ذاكرتكم ، فكلنا ما نزال نعيش منذ عامين يوماً واحداً طويلاً اسمه ٥ حزيران ١٩٦٧ ...

الدليل ؟ ...

بقدر ما تكون الحقيقة واضحة ، بقدر ما يصبح التعبير عنها بسيطاً وسهلاً .. ولذا

اخواني في الهزيمة ، ببساطة أقول : ليطرح كل منا على نفسه هذا السؤال :

لو شنت اسرائيل اليوم حزيران ١٩٦٩ حرباً عدوانية كالتي شنتها حزيران ١٩٦٧ ، ما الذي يتبدل في ردة فعل كل مواطن منا عملياً لا خطابياً ؟ ...

في حزيران ١٩٦٨ قلنا اننا هزمنا لاننا لم نحارب . لأننا خضنا حرب الترنزستورات التي كانت تبث انباء كاذبة عن انتصاراتنا الموهومة ، ونتنقل بين الملاجيء ومقاهي الارصفة ننتظر أن يمن الله علينا بالنصر (ونسينا ان الآلهة ليست مظلة جوية . وأصابع المصلين ليست أصابع ديناميت) . اليوم بالذات لو قامت الحرب فجأة ، ماذا لدى أي فرد منا ما يفعله غير ما فعله في حزيران ١٩٦٧ ؟ ... لو اطلقت صفارة الانذار في هذه اللحظة بالذات ، ماذا سوى ترانزستوراتنا وملاجئنا وثرثرتنا في مقاهي الأرصفة ونغمة نقد الذات وشتم الذات ثم شتم شتم الذات ؟...

كم عدد أولئك الذين صاروا أعضاء في تنظيم شعبي عملي رسمي أو غير رسمي خطط لكل منا سلفاً أين يجب أن يكون وماذا عليه أن يفعل في حال قيام الحرب ؟ ...

والخنادق التي حفرناها في حفلات تطبيل وتزمير دعائية ستكون قبورنا ما دام كل منا لا يعرف ما سيكون دوره فيما لو قامت الحرب أكثر مما كان يعرف منذ عامين ! ... وقصورنا التي نشيد ليست سوى خيام من طراز « لوي كانز » و«خيام ستيل مودرن » ما دام شيء لم يتبدل .

اني أصرخ بملء صوتي ، من وجد تنظيماً عملياً رسمياً غير العمل الفدائي فليقل لي . ماذا فعلت بعض الانظمة العربية من تقدمية وغيرها طوال عامين لنا .. ماذا فعلت ليس لتقنعنا أو لتخدرنا أو لتوهم العالم بانها تعمل وانما لتبدل عملياً من موقف كل فرد إذا شبت الحرب ، ولتجند عملياً كلٌ في مكانه لو أطلقت صفارة الانذار ، ليكون كل منا جزءاً من جسد متكامل متماسك يعرف بوضوح تام دوره ووظيفته وعمله لحظة المعركة ؟ ... لا شيء ... وحتى الآن لما نتجاوز مرحلة الانتكاس ، والعمل الفدائي وحده ستر عورة هزيمتنا لكن لا يحق لأي فرد منا أن يحول العمل الفدائي إلى أغنية كلثومية يترنم بها ويتخدر بها ، ولا يحق لأي نظام أن يوهمنا ان العمل الفدائي الفلسطيني هو البديل ومهمتنا تقتصر على الاعجاب به خطابياً ! ..

عن « الامير وبائعة البنفسج » والرجل الذي كان أبداً أقرب إليّ من طلقة نارية تخترق جبيني يبدو انني عاجزة عن ان احدثكم ! ..

وعار الهزيمة الذي حملته منذ عامين إلى لندن ، لأتخدر وأنساه ، عدت به منذ

عام لانني اكتشفت ان العار ليس يوماً استطيع أن أقلب صفحته ، ولا ثوباً استطيع ان اخلعه ، وانما هو أنا بقدر ما هو كل فرد عربي جذوره هنا في مستنقع العار مهما هرب واينما رحل ...

ظننتني يوم رحلت عن وطني رحلت عن عاري ، واكتشفت اننا عاجزون عن الرحيل ما دام الوطن يقطننا قبل أن نقطنه ... وعاري مقيم بي ما دام مقيماً بأرضي ...

ولكن ، سنظل مغتربين في أرضنا ، ساقطين في عار يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ الطويل الطويل حتى تستطيع أنظمتنا أن تخطط لكل مواطن منا ببساطة ووضوح دوراً ليوم جديد ومعركة جديدة ...

وإلا فلترحل انظمتنا عنا كي لا نظل مغتربين في وطننا ، وكي لا يظل وطننا مستنقع عارنا ، وكي نمزق ٥ حزيران ١٩٦٧ حقاً عن صفحة تاريخنا وليس فقط عن تقويماتنا ...

بالمناسبة ، في أحد التقويمات العربية المعروفة ، التي تزين صفحاتها بالامثال العربية العريقة قرأت حكمة اليوم التي تصادف ان كانت في صفحة (٥ حزيران) ١٩٦٧ : (الكذب ملح الرجال) ! ! ... وقرأت العبارة نفسها في تقويم العام الحالي ...

هل هي مصادفة حقاً ؟ ؟ .

٢٢ / ٤ / ١٩٧٤

« ثورة الشبان » تفرحني دائماً !

حين غادرت الطائرة في مطار استمبول لأرتمي في أول تاكسي وأغمض عيني إرهاقاً ، خيل الي انني اركب في أحد تاكسيات عاصمة عربية ... كان المذياع مرتفع الصوت ، والغناء يقتحمني ويعطل حاسة النشوة باكتشاف مدينة مجهولة أقبل عليها لأول مرة ...

وبدت لي الموسيقى عربية ... وخيل الي للوهلة الاولى انني سمعتها مرات كثيرة من قبل ... قلت في نفسي : انه ذلك التقارب الطبيعي في الموسيقى الشرقية ... و (توارد خواطر نُواحيّ) ممكن ...

ولكن نغمة النواح كانت أكثر من مألوفة ... وبعد دقائق وجدتني أتذكر كلمات الاغنية بالعربية ... والتمع في ذهني اسم (ملحنها) العربي ... وتساءلت بحياد : من سرق من ؟ ولولا (الحصانة المَرَضيّة) ضد النقد التي يتمتع بها عدد كبير من فنانينا لذكرت الاسماء مع مزيد من التفاصيل .. ولكن مشكلتنا مع أكثرهم هي انهم باستمرار يصدرون نشرات طبية عن أمراضهم الموهومة والحقيقية ، وان مجرد طرح الموضوع ولو على سبيل التساؤل قد يتسبب في نوبة مرضية لا تحب تحميل ضميرك نتائجها ! ...

ولكن ذلك ليس مهماً . مَنْ سرق مَنْ ليست القضية . القضية هي ايجاد سبيل للخروج من دوامة النواح في الأغنية العربية ذات الاصل العثماني التركي فيما يلوح لي ، وايقاف (توارد الخواطر النُواحيّ) عند حده ...

اني احيي الملحنين الذين سرقوا (عفواً ، تأثروا) بمقاطع من بيتهوفن وموزار وشتراوس وشوبرت ... إنهم على الأقل اختاروا إبداعاً حقاً ، واختيارهم يشهد لهم بالذوق ومعرفة الأفضل !! ...

ولا أدري أي التهمتين أبشع للملحن : ان يسرق ، أو ان يكون قليل الذوق فيما يسرقه ؟ !...

* * *

أهم المتاحف مغلق في استمبول خوفاً من الطلاب والثوار الشبان الذين سبقت لهم الاغارة على أحد المتاحف .

واذا كان اصرارك على زيارة متحف (ضولمهبخشي) شديداً فعليك بالطريقة اللبنانية الخالدة : التوسط لدى الدولة مشفوعاً برسالة توصية من قنصل دولتك يشهد لك بعدم (الثورية) أي بالسلوك الحسن من وجهة نظر الحاكم . وبداء المفاصل وارتفاع الضغط وغيرها من امراض اللامبالاة والكسل والتخمة . وبعدها تفتح في وجهك الابواب الموصدة ...

والسياح في استمبول (واغلبهم فوق الستين) يشتمون الطلاب وتحركاتهم التي ادت إلى حرمان عيون العجائز الاميركيات من مشاهدة جواهر العثمانيين وثرواتهم ...

أما أنا فقد غمرتني السعادة ...

فالكنز الانساني الذي يمتعني دوماً الاصطدام به هو : « ثورة الشبان » بكل مظاهرها ، وحتى التخريبي منها ...

ففي هذا العالم الهرم العفن البشع إلى أقصى الحدود ، لا أظن ان مظاهر العنف الطلابي يمكن ان تجعله اشد بشاعة لانه لم يعد بالامكان أبشع مما كان ! .. ولكن تحركات الشبان تظل وحدها صرخات الرفض والانذار في مدنية عالم يستلقي أهلها في أحضان التخدير ...

اننا نحزن كثيراً لأجل الاطفال ، لكن الذين يستحقون حزننا واهتمامنا ، هم المراهقون: أي الاطفال في نقائهم ، والكبار في قدرتهم على الرفض. لكن كل القوانين مكرسة لكبح رغباتهم في تصليح قلب هذا العالم الصدىء كمضخة جهنمية مخربة .. كل القوانين هي ضد الذي « تحت السن القانونية » .. وصرخة « ويلهايم رايش » التي اطلقها منذ ٣٠ سنة تقريباً لأجل الشباب ظلت صرخة في واد ...

وتذكرت شارات المرور التي كسرها طلاب بيروت خلال تظاهراتهم الاخيرة ، والتي لم تصلحها الدولة بعد ... كأنها تتلكأ في اصلاحها كي تخلق نقمة شعبية ضد الطلاب... كما لو أن كل شيء في لبنان يسير وفقاً للضوء الاخضر والاحمر إلا شارات المرور التي كسرها الطلاب ! ويقول المواطن اللبناني المقهور : انا الغريق فما خوفي من البلل ! ... وليكسر الطلاب مظاهر النظام الزائفة الممثلة في اضواء السير لانه لا شيء في حياتنا يمضي حقاً في مجراه ! ..

هذا ما كنت أفكر به كلما مررت بمتحف ضولمهبخشي في استمبول ، وتأملت بابه المغلق برضى يشبه الشماتة !

٢٥ / ٥ / ١٩٧٣

عن النمر الآسيوي البشري !

ذكرت صحيفة «اللوموند» أن « النمر الآسيوي » مهدَّد بالانقراض ...

النمر الآسيوي ...

ذلك الكائن الجميل النبيل ، القريب الشبه في أخلاقه وطباعه من أقوام آسيا وحضاراتها العريقة .

فالنمر الآسيوي لا يأكل الجيف وهو الوحيد الذي ينتحر إذا كاد يسقط في الاسر . انه يصعد إلى قمة صخرة ويرمي بنفسه من شاهق ليموت بلا إذلال .

وقلبه الشجاع مليء بالحنان ، فهو يحتضن أنثاه تسعين يوماً حين تضع وليدها ...

وله طباع الشعراء ، فهو نواسي المزاج يهوى شرب الخمرة ، ويعمد الصيادون إلى وضع وعاء كبير من النبيذ في الغابة ،فيثمل النمر ويتم إيقاعه في الفخ دون إصابته بالرصاص وثقب فروه الذي يباع لزوجات (الأثرياء) بأثمان مرتفعة ...

واندثار النمر الآسيوي رمز موجع لاندثار شعوب آسيوية كثيرة عن طريق ابادتها ... وكما يتم اصطياد النمر ليصير معطف فراء ترتديه زوجة سياسي ترافق زوجها لمحادثات (السلام) ، كذلك يتم اصطياد الشعوب الآسيوية الآمنة لتتحول عيون أطفالها لآلئ تباع في أسواق المدنية الاستهلاكية ...

وكما قامت الحملات من أجل إنقاذ بقايا الهنود الحمر المبادين في أميركا (بعد أن تمت أبادتهم طبعاً !) ، تقوم اليوم حملة لأجل انقاذ النمر الآسيوي ...

بعض الممثلات التقدميات (جين فوندا – ميا فارو – فنيسا ريدغريف) دعين إلى الاضراب عن ارتداء جلد النمر حفظاً لحياته ...

والطريف أن مقر لجنة انقاذ النمر الآسيوي هو في واشنطن ، أي في المقر الرئيسي لإبادة النمور الآسيوية البشرية ...

يخيل الي أن الحضارة الغربية التي ساهمت في اغتيال النمور البشرية والشعوب

النبيلة في آسيا ، تحاول ان تقدم كفارة عن خطيئتها ، عن طريق رشوة الذات واسقاط جريمة قتل النمر البشري على جريمة قتل النمر الحيواني ... وإلا ، فما هو تفسير كثرة خروج المظاهرات في أميركا وأوروبا من أجل الدفاع عن الطيور ضد صيدها : وتصاعد هذا النوع من المظاهرات بالذات خلال تصاعد أعمال الابادة في فيتنام وفلسطين وغيرها ؟

تاريخنا المعاصر ليس بحاجة إلى مؤرخ بل إلى طبيب نفساني ! ...

١٩٧٤ / ٩ / ١٦

عباس بن فرناس على الطريقة الأميركية !

اسم الرجل لا يهم . تصادف انه الاميركي كنيفل . وهو قد يكون في هذه اللحظة ميتاً أو مليونيراً . ذلك ايضاً لا يهم .

المهم هوانه قرر ركوب صاروخ يطير به بسرعة ٦٤٠ كم في الجو ، فوق وادي نهر الافاعي الذي يبلغ عرضه ٤٠٠ متر ، ثم يهبط بالمظلة ... وفي حال فشل العملية فان الرجل وصاروخه سينتهيان حطاماً في وادي الافاعي وسيجرفهما النهر ، وستستمتع أفاعيه بوجبة دسمة ! .. هذه المغامرة ستتم امام ٣٥ الف متفرج ، بيعت لكل منهم بطاقة بـ ٢٥ دولاراً ، وسيأتون من كل ارجاء أميركا ليرقبوا الرجل يموت أو يصير مليونيراً ...

وقد يكون كنيفل رجلا يؤمن بانه يريد ان يمتلك كل شيء أو لا شيء . ان يصير مليونيراً أو يموت . وقد يكون عاشقاً للمغامرة ، لا يعرف لذة إلا مع حس الخطر ... ويفضل ان تكون حياته قصيرة ومثيرة كاصبع ديناميت ، على أن تمضي به برتابة وأمان كعربة بيع الخضراوات . هذا كله لا يهم ...

المهم هم أولئك الـ ٣٥ ألف إنسان الذين دفعوا نقودهم ورحلوا طويلاً ليتفرجوا — لمدة عشر ثوان فقط — على رجل قد يموت ... رجل يغامر... رجل يؤدي رقصة الحياة على حد اسنان افعى قد تلدغه في أية لحظة ...

ما الذي جاء بهم ؟ ! .

هل كل منهـــم هو ذلك الروماني العتيق الذي كان يذهب بشهية إلى حلبـــة « الكوليزيوم » في روما ليتأمل الرجال وهم يصارعون الوحوش المفترسة ، والدماء تتدفق من جراحهم ، وهم يهتفون للمشهد « الجميل » بحماس فائق ؟ ألم يتبدل الانسان طوال ٢٠٠٠ سنة من العنف والبشاعة والعذاب الذي تعاقب على تاريخه ؟ ألم يسأم لعبة الغاب ؟ وها هو ، في عصر الصاروخ للصعود إلى القمر ، يحول الصاروخ إلـــى

« كوليزيوم » روماني قديم ، ويجيء بسياراته الأوتوماتيكية ليشهد بالشهية نفسها أحد طقوس العنف ، عنف حيوانات الغاب ؟ ! . أما الصاروخ والسيارات والبطاقات التي طبعها الكومبيوتر فمجرد ادوات عصرية لممارسة الدمار العتيق والبشاعة الحيوانية العتيقة المستمرة في ابناء عصر الذرة !

أم أن الامر أبعد من ذلك ، وال ٣٥ ألف متفرج القادمين لمشاهدة مصرع كنيفل - أو إثرائه ، ليسوا جلادين بقدر ما هم ضحايا ؟ ! .

ضحايا يعيشون حياة رتيبة ، منتظمة ، متكررة . أي انهم يعيشون موتاً يومياً . روتيني الطقوس ، في مجتمع رأسمالي مدمر للفرد ، وها هم يجيئون ليروا شخصاً يطير ! ..

الطيران ... أن نطير عن واقعنا الرتيب ... أن نطير على أيامنا المتكررة ... ان نطير نطير لأن الانسان لم يوجد فقط ليسير على الأرصفة ويقف في المصاعد الراكضة داخل احشاء ناطحات السحاب ، لكنه وجد أيضاً ليطير ... وكل ما حولنا وجـــد ليمنعنا عن الطيران ... كل الانظمة الاجتماعية هي أحزمة أمان تلجمنا باستمرار إلى مركبات المؤسسات التي لا تطير ... وها هم يأتون ليشاهدوا إنساناً قرر ان يطير ، سيركض الدم في جسده وسيحس بملايين الانفعالات وسيكون حياً فعلا — ولو لمدة عشر ثوان فقط — وبعدها ، قد لا يكون هناك بعدها ... لا يهم ! المهم انه عاش لمدة عشر ثوان ! .. وكثيرون هم الذين يولدون ويموتون دون ان يعيشوا خلال مكوثهم الطويل بيننا حتى ولا خمس ثوان ...

لعل الناس يدفعون ٢٥ دولاراً لا ثمناً للشماتة بالرجل الطائر ، ولكن ثمناً للحلم . كل منهم سيحلم خلال هذه الثواني العشر انه هو داخل الصاروخ ، وهو الذي يطير ... يطير ... يطير ...

في كتاب جوناثان ليفنغستون « النورس » ، اكثر الكتب مبيعاً في العام الماضي ، يجسد الكاتب «باخ» جوع الانسان إلى التحليق عن ارض المكرسات التقليدية والواقع الموروث حتى ولو كان الثمن إحراق جناحيه بالشمس أو الصقيع .. وحتى لو لم يكن كنيفل عباس بن فرناس آخر اصيلا وانما مجرد مغامر يستغل جوع الناس إلى الطيران ويوظفه لجمع ثروة (ربما كانت العملية مدروسة ومنظمة بحيث لا خطر على حياته اطلاقاً) ، فالمهم ليس ما يفعله وانما ما يمثله ، المهم هو جوع الناس إلى الطيران ... إلى التحليق ...

ربما كانت المخدرات تمنح الانسان لحظات طيران عن مستنقع الواقع ! .. ربما كانت الكحول أحياناً تساهم في ذلك ! ..

لكن الحب يظل أول اختراع للتحليق عرفه الانسان ...

الحب ... حين تتسارع ضربات القلب أكثر من تسارعها لدى راكبي الصواريخ.. وتستحيل الشرايين شلالات ضوء وموسيقى ... وتنبت في المسامات أفراح الطفولة ... وتمتلىء « بطاريات » الجسد الصدئة بقوة الحياة من جديد ...

... الحب هو وحده تذكرة سفر إلى كوكب آخر ... جسد الحبيب قاربه، وذراعاه مجذافه . وككل الرحلات ، قد يتحطم الشراع وتتعطل البوصلة ويلتهب الكوكب ويستيقظ بطلها وقد هوى من شاهق محطماً عائداً إلى مستنقع الحياة اليومية .... لكنها رحلة تستحق المغامرة ، وقد يحيا خلالها (هو . لا اسمه في سجل الاحصاءات) أكثر بكثير من عشر ثوان ...

* * *

ويظل التحليق بواسطة الطريقة العتيقة — الحب — اثمن تجربة انسانية يمكن للانسان ان « يتعطاها » ... فالتحليق « بالنيابة » ، كما في حالة كنيفل الذي سيحلق بالنيابة عن ٣٥ الف انسان ، تجربة يظل المتفرج فيها سائحاً لا مواطناً فضائياً ... واذ نجح الرجل ولم يسقط في وادي الافاعي ، اعتبر كل واحد ذلك نجاحاً شخصياً له . واذا سقط الرجل تدمر فرح كل متفرج وحمد ربه لانه لم يكن هو داخل الصاروخ ! انــه « يرقب » التجربة ولكنه لا « ينتمي » إليها . أما في حالة الحب ، فالانسان رابح دائماً .

إنه يربح اكتشاف ذاته ومدى إستعداده الحقيقي للعطاء ، ومدى قدرته على ان ينطلق ليحب العالم كله من خلال انطلاقته عبر حبه لفرد . والخاسر الوحيد في علاقات الحب هو الذي لم يحب حقاً ! .. التحليق « بالنيابة » تجربة تنتهي لحظة تحطم الصاروخ أو نجاته ... والتحليق بالحب تجربة تبدأ لحظة انطلاق صاروخ الحنان ولا تنتهي حتى بدماره ... فالدمار الحقيقي هو ألا نحب ...

* * *

١٩٧١ / ٩ / ٢٤

طواحين التخلف العربي !

كنت أستمع إلى نشرة الاخبار في إحدى الاذاعات العربية . كانت نشرة مؤلمة ، تمس اوتارنا الجريحة كلها ، تتحدث عن مآسينا ، مع اسرائيل ، مع العالم المتحضر ، ومع ذاتنا ... أخبار موجعة تذكرنـــا بتدهورنا الذليل منذ عام ١٩٤٨ ، وتعيد إلى الأذهان ذيول هزائمنا المستمرة منذ صيف ١٩٦٧ ... وانتهت نشرة الاخبار ، وغرقت في صمت كئيب حانق ، وامام عيني انزلق بسرعة شريط تفتتنا الداخلي — العربي ، والاعتداءات المتكررة على حدودنا ، والاراضي العربية السليبة وكل ما يمكن لنشرة أخبار عربية ان تثيره في النفس من (امتدادات) وخواطر ... وقطع ذلك علي صوت المذيعة يبلغنا بأغاني ما بعد النشرة ، (طائفة من الاغاني الشعبية) وكانت : « قولوا لعليوة يدلعني » . « الطشت قلي قومي استحمي » . « ما اشربش الشاي اشرب ازوزه انا » ... « عالكورنيش عالكورنيش » ... وبدأ الزعيق : قولوا لعليوه يدلعني ...

والذي لم يقله صوت المطربة الذي يتدلع هو اين تريد ان يدلعها « الاخ عليوه » . في سيناء أم في القدس أم في السويس أم في جنوب لبنان ؟

اغان كثيرة لا استطيع ان امنع اذني من التقاطها في التاكسي وفي الشارع وفي المخازن (ليت لأذني جفناً اسدله عليها فلا أسمع شيئاً كما يسدل الإنسان جفنه على عينيه فيكف عن الرؤية ويستريح) ... أغان كلها تفاهة : الطشت قللي ... ادلع يا رشيدة على وجه المي ... آه يا أم حمادة ... يا ستي يا ختيارة ... كايده العزّال انا من يومي ... العتبة قزاز ... على قد ما بحبك زعلان منك ... الخ ... (ومئات غيرها لا مجال لذكرها الآن) ...

« قل لي ماذا تغني أقل لك من انت » ... فمن نحن اذا كانت هذه اغانينا ؟ ... عفواً نسيت اغنية « يا بهية خبرينا عالي قتل يا سين » ... اجل ؟ شعوبنا العربية تتمزق ، وشعب عربي — هو الشعب الفلسطيني ، الهنود الحمر في المنطقة ! — يكاد

يتم اغتياله وقتله ، ونحن ما نزال نسأل الست بهية منذ ٥٠ سنة عن الذي قتل الاخ ياسين . (وعلى أية حال ، من يمكن أن يكون قتله غير التخلف ؟) ... ومع ذلك ما يزال هنالك من هو قادر على (الزعل) لاسباب أخرى مثل بطل اغنية (قد ما بحبك زعلان منك !) ... أعرف ان الاغنية الاخيرة هي من « الفولكلور » فهي أغنية قديمة (لصالح عبد الحي ؟) مثل أغان اخرى كثيرة ، ولكن يخطىء من يظن ان « الفولكلور» و « التحنيط » كلمتان مترادفتان . الفولكلور ضرورة فنية ، شرط ألا يتوقف الانسان عندها ، وانما أن يعتبرها نقطة بداية وركيزة أساسية ينطلق منها إلى تطوير وتجديد كلي. والتجديد هنا لا يعني ان صالح عبد الحي كان يغني (قد ما بحبك زعلان منك) مع العود والتخت القديم وكل ما علينـــا ان نفعله للتجديد هو أن نغنيها مع (الغيتـــار ـــ الكهربائي) مثلاً . لا . هذا مفهوم سطحي لكلمة تجديد ، ووعي قاصر لكيفية الافادة من عظمة التراث بدلاً من المتاجرة به ! ... وليس هنالك من ينكر أهمية الفولكلور والتراث ، ولكنهما مثل كل سلاح ، اذا اسيء استعماله انقلب على صدر صاحبه واصاب منه مقتلا .

وقطع الطريق على المتاجرين بالفولكلور أضحى ضرورة وطنية ، فالمطلوب هو احياء الفولكلور وتطويره وليس الانحدار به ، وتحويله إلى أفيون جماهيري جديد ... ولا بد من ملاحظة : ان الاغاني المستوحاة من الفولكلور تلقى نجاحاً جماهيرياً مثل أغنية « العتبة قزاز والسلم نايلون » ولكن هل هذا يعني ان الشعب العربي (نايلون) ، وأنه مكتف بتراثه راض به لا يريد له تطويراً ولا تبديلاً ؟ ابداً . والدليل أن اغنية معارضة لهذه الاغنية انطلقت في السويس تغني وتصرخ : « عتبتنا مش قزاز ، عتبتنا نار وكاز » . هذا مثال صغير عن روح المعارضة المكبوتة لدى الفرد العربي الذي يتوق إلى فن عربي يواكب تطلعاته ويعبر عن مشاعره ورغباته ... والواقع ان اغانينا يمكن ادراجها فيما يلي :

١ ـــ اغاني تجار الفولكلور ، وهم فئة اكتفت بتقديمه كما هو دونما أي تطوير حقيقي . وقد لقيت هذه الفئة نجاحاً بسبب عاطفية الفرد العربي وطواعيته أمام كل ما يمكن ان يهز أياً من اوتاره ولو عبر القلب ودون المرور بالرأس !

٢ ـــ تجار النكسة : وهم أسوأ من الفئة الأولى (اذا جاز التفضيل بين الاستغلاليين) وأعني بتجار النكسة على الصعيد الفني اولئك الذين استغلوا جوع الفرد العربي إلى الثورة والحرب ، وأعطوه اغنيات وألحاناً غبية رجعية النغم ، خطابية الشعارات

الثورية ، ايجابيةُ ألفاظها مباشرة ومتكلفة وفجة وتعليمية ... وأكثرها يدعي (الواقعية الاشتراكية) ولكنه يفتقر تماماً إلى (الفن) لحناً ومضموناً . فأغاني (التراكتور) قد تكون أكثر رجعية بتفاهتها وخطابيتها من (دلع رشيده على وجه المي) .

٣ ـ أغان نادرة جداً وقليلة جداً جداً استطاعت ان تستوعب تطلعات أمتنا عبر تطوير تراثها وبث روح ازدهار جديدة فيه ـ (لست في مزاج لذكر اية أمثلة رغم أنها « لكثرتها » لن تأخذ أكثر من سطر !) .

٤ ـ أغان سيئة جداً جداً بلا أي هوية سوى الكثرة .

باختصار : الفن العربي على صعيد الغناء ظل قاصراً عن اللحاق بالتطورات الحاسمة في المنطقة ربما على صعيد الكلمة وعلى صعيد السلوك ، ولكن قصوره على صعيد الموسيقى والاغنية كبير إلى حد يلفت النظر . الانسان العربي يعيش في عصر و (سنين ضوئية) تفصله عن العصر الذي ما تزال تغط فيه الاغنية العربية ! ... واغانيه (الملتزمة) والحماسية والتي تدّعي التجديد اسوأ من اغانيه العتيقة المكررة لانها لا تحمل اليه أي تفجير ابداعي جديد ، رغم ادعائها ذلك .

هنالك هوة قائمة بين تطلعات الجمهور والفنان العربي ، والأخطر منها الهوة القائمة بين الفنان العربي وبين المأساة العربية المعاصرة .

رغم الغضب الذي لا بد ان يمتلىء به صدر الانسان حينما يعي ان (مارسلييز) العالم العربي الثوري هي اليوم مزيج من (قولوا لعليوة يدلعني) و (العتبة قزاز والسلم نايلون) و (ما اشربش الشاي أشرب قازوزه أنا) و (الطشت قلي) وغيرها من (السيمفونيات) الخالدة ، فان هنالك ملاحظة حيادية لا بد من تسجيلها ودراستها بامعان : هنالك شيء مشترك بين هذه الاغاني (السيئة) كلها وهو انها قصيرة نسبياً وسريعة الايقاع والحركة ... والسرعة وقصر الاغنية ، ونزق اللحن والايقاع هذه كلها سمة اغنية العصر لانها تواكب ايقاعه السريع ... فهل يكون نجاحها الجماهيري ليس فقط نتيجة لجوع الجمهور العربي العاطفي إلى اية اغنية تستطيع ان تحرك أي وتر فيه ـ ولو كان وتر الفولكلور الخام ـ وهل يكون سبب نجاحها أيضاً هو انها تمس فيه وتراً آخر معاصراً هو وتر السرعة والنزق الذي تتميز به الذات المعاصرة أو الثائرة المحاربة ؟ لا أدري .

كل ما أدريه هو ان بعض الملحنين العرب الموهوبين قد وعوا هذه الحقيقة (أحدهم قال لي ذات يوم : انتهى عصر مطرب التخت والتطريب والكرسي والآه .

اني افتش عن مطرب يتحرك لا على المسرح وانما بين الناس ... مطرب لا يلتصق بالميكروفون مثل المومياء المخدرة ، وانما يحمل الميكروفون المتحرك ويدور به ويرقص فوق شريطه ، ويملأ المكان بالحياة والحركة لا بالخدر والجمود) ... اذن الحس بضرورة التجديد حتى في ايقاع الاغنية العربية وطولها امر موجود .

ويبقى التطبيق وخلق بديل حقيقي وتفجير قنبلة في ركود المستنقع .

وبعد ، مطلوب اغنية عربية جديدة تنقذنا من مستنقع التفاهة هذا ... اغنية تمد في التراث جذوراً تمتص أصالة الذات العربية وتاريخها ، وتجد في الإبداع المعاصر ما يربطها بالشخصية العربية الحالية ، وبتطلعاتها وأحداثها واحزانها وثوراتها ومجازرها وطموحها ونزقها وروح العصر فيها ...

وريثما يتم ذلك ، آمل لا تكون هذه الكلمات (أغنية) إضافية في طاحونة التخلف العربي .

١٩٦٥/٥/٣

أذكروا محاسن .. الفيلم العربي

من وقت إلى آخر يتعرض الجمهور العربي إلى خطر مشاهدة افلام أجنبية جيدة كان اخرها فيلم « زوربا » عن رواية للكاتب اليوناني كازانتزاكيس بالاسم نفسه .. فمثل هذه الافلام الراقية قد يرفع من مستوى الذوق العام، الأمر الذي يهدد المصنوعات الوطنية السينمائية بالكساد ...

و «زوربا» لم يكن مجرد فيلم جيد حائز على جائزة التصوير ويحكي مأساة عاطفية، وانما كان تحفة فنية لتعاقب الانسانية بما فيها من أفراح وأحزان ، وفظاعة الطبيعة البشرية الغامضة . وهو يدفع بأي متفرج إلى عقد مقارنة بين السينما الغربية والعربية .. يخرج المتفرج ببعض النتائج التي لا مفر من اكتشافها .

واستباقاً لكارثة كهذه ، أسارع إلى تعداد بعض مزايا الفيلم العربي .

ففي الفيلم العربي صفات لم تتوافر لأي فيلم غربي... فهو مثلاً فيلم (عملي) يصلح لإنسان عصر الذرة المسرع ... فالمُشاهد يستطيع أن يكتفي بالمشهد الاول أو بالمشهد الاخير من الفيلم ليفهم البقية كلها ودون أن يفوته شيء ، أو يعطل اعماله واوقاته ..

وفي الفيلم العربي تسهيلات لذوي العاهات ، فاذا كانت طريقة « برايل » تمكن الاعمى من قراءة بعض الصفحات الخاصة فان الفيلم العربي يمكن المصابين بالصمم من متابعته والاستمتاع به كالاصحاء تماماً وذلك لخلوه من أي حوار ذي قيمة وللتفكك الكامل بين الشخصيات والاحداث ...

وشخصيات الأفلام العربية تنطبع في النفس إلى حد ان المتفرج يستطيع أن يميزها ويتنبأ بقصتها فور ظهورها ...

فمثلا يكفي ان يرى فتاة ترتدي قميصاً (رجالياً) سيىء الكي حول ياقته المرتفعة ما يشبه ربطة العنق ، و (تنورة) كحلية واسعة ، وقد رفعت شعرها بإهمال، ووضعت

نظارات طبية ، حتى يدرك فوراً انه أمام دكتورة أو من هي بحكم الدكتوره ، تطالب بحقوق المرأة والمساواة مع الرجل حتى في شؤون الحمل والرضاع ، ثم تلتقي برجل (حمش) يعيدها إلى مكانها في المطبخ تائبة نادمة ..

والفيلم العربي يمتاز بقدرته على (إدهاش) المتفرج خصوصاً اذا تصادف أن البطل مطرب معروف أو البطلة ... حينئذ يصبح رد الفعل الوحيد في الحالات كلها هو الغناء، فالحبيبة التي حاولت الانتحار تنتظر انتهاء أغنية البطل المنتحر قبل استدعاء الطبيب ، والزوجة المطرودة التي نتوقع منها ان تبكي أو تسترحم أو تصمت أو تنادي التاكسي تسير في الشوارع رافعة عقيرتها برثاء منغم ...

ربما كان من حق الفيلم العربي علينا ان نقول انه حديث النشأة ولم يتوافر له الزمن الكافي للنضج ، ولكن من حق المتفرج — الذي لم يعد من السهل استغفاله — ان يطالب (نجومه) بمشاركته في مقاعد النظارة لمشاهدة هذه الافلام الرائعة . وربما كان في الكسوف الذي سيصيب شموعهم حافزٌ جديدٌ على الدرس في مدرسة الأفلام الراقية وناقوس خطر يذكرهم بأن الجمهور لم يعد كما كان .

١٥ / ١١ / ١٩٦٨

لا مستحيل بعد « المستحيل » !

بحذر متفرج سبق له ان لدغ من (فيلم) مرتين ، كنت أرقب فيلم « المستحيل » ، لكنني خرجت منه مؤمنة بأنه ليس في الدنيا مستحيل حتى على صعيد السينما العربية ! .

لقد اقنعني « المستحيل » بأن ولادة الشاشة العربية لأفلام معقولة ليس مستحيلاً وان كل انتاج لافلام سينمائية تافهة بحجة ان — الجمهور عاوز كده — مرفوض نهائياً .

هذا الفيلم ، اذا حاولنا تقييمه على ضوء ما تقدمه السينما العالمية المعاصرة اليوم ، لوجدنا فيه — برأيي — سقطات لا تحصى .. أما حينما نأخذ بعين الاعتبار (ما تقدم) من فظائع السينما العربية (وما تأخر) ، ونقيمه على ضوئها ، وعلى ضوء (إطار انتاجه) ، أي آخذين بعين الاعتبار التربة الفنية الفقيرة ، التي نبت واحة فيها ، فانه لا مفر لنا من القول بأنه فيلم لا بأس به وخطوة يصح الاقتداء بها ، والافادة من المزالق التقليدية للفيلم المصري التي تم تجاوزها في المستحيل .

القصة : هذا الفيلم يثبت حقيقة أساسية طالما تعالت أصوات النقاد منبهة السينمائيين اليها ، وهي أن « قصة » الفيلم ليست امراً ثانوياً ، وبالتالي لا يجوز ارتجالها .. كأن يكتبها مخرج الفيلم الذي هو عادة ممثله ومنتجه وربما مطربه .

(ناقشت مرة احد العاملين في الحقل السينمائي اللبناني والذين اشتهروا بهذه الموهبة ، موهبة إنكار الاختصاص في الموهبة (!) وكان رده : ماذا افعل أمام الإمكانيات المادية القاصرة .. وقد يكون على حق .. وهذه مشكلة يجب طرحها على صعيد رسمي لأن السينما أداة خطيرة كوسائل الإعلام كلها ، ونوع من غسيل الدماغ الجماعي للأفراد وتثبيت بعض القيم ومحو لبعضها الآخر ... انها أداة خطيرة ، : حماية القائمين عليها ضرورة وحماية الناس منهم ضرورة أكبر !) ..

الاخراج : يمتاز بالوعي .. وحسين كمال مخرج يمتلك لغة سينمائية تقنية جيدة .. ففي الفيلم لقطات ترقى به احياناً إلى مستوى الأفلام الجادة .. هنالك مثلاً مشهد عودة

الزوج إلى البيت مملاً في أول الفيلم ، ونظرته بعين جديدة إلى الأشياء . مذهل رائع التعبير والدلالة ، هو منظر المقاعد المكفنة بالأغطية البيض لحفظها (كما تفعل البيوت الرقيقة الحال والتقليدية في مجتمعاتنا العربية كلها). انه في لقطة واحدة يرسم مأساة الشعب العربي مع محنطاته الموروثة التي تكبح تطوره ووجوده بالمعنى الحقيقي .. ثم الزوجة السمينة المطيعة المكومة على المقعد الشبيه بالتابوت في البيت الشبيه بمحطة ما قبل القبر — الغافية بانتظار عودة زوجها .. وقد كان اختيار هذه اللقطة وحسن تصويرها كافياً لنفهم ، ولذا افسدها توضيح الممثل فيما بعد حينما اخذ يفسر للمتفرج معنى اللقطة ومدلولها .

(المطلوب : مزيداً من الثقة بالمتفرج العربي) .

التمثيل: بطل الفيلم الذي لم يلفت نظري في افلامه السابقة الا (كشبوبية) قد تعجب المراهقات . ولها جمهورها ، لفت نظري هذه المرة كممثل .. وهذا دليل على ان القصة السيئة والاخراج السيء ، تصيب الممثل بالعدوى ، وتهبط به شاء أم أبى إلى مستواها..

ففي « المستحيل » ارتفع مستوى الدور واتسعت أبعاده فارتفع ممثلوه معه وبـه واثبتوا قدرتهم على ملئه ...

السيناريو : حينما يكتبه المؤلف ، مستعيناً بفنان مثقف ، يكف الحوار عن ميوعته التقليدية التي اعتدناها .. يصبح له نبض وتوتر ووهج وظل ، وينجو من (الروتينية) في لغة الحوار ، التي يمتاز بها الفيلم العربي عادة (إلى جانب التفاهة) ..

الخاتمة : لا دموع في آخر الفيلم ، ولا فرحة مصطنعة . وانما احساس قلما توفره السينما العربية للمتفرج . اذ يخرج باحساس عميق وحاسم : هو أن مجتمعا كهذا هو بحاجة إلى نسف كامل من جذوره .. المستحيـــل هو استحالة الاستمرار هكذا .. المستحيل هو استحالة إنشاء علاقات إنسانية كاملة وناضجة بين هذه النماذج المريضة لمجتمع معين وانه لا نجاة لها الا بالثورة الكاملة .. وهو نصر يحققه فيلم « المستحيل » عبر القصة والحوار ، لا عبر الخطابة .. أي عبر الفن الحق لا المواعظ والمقامات ..

وبعد ،

ليس في « المستحيل » قصة الحب السطحية التافهة المقطوعة الجذور عن حياة مجتمع معين والتي اعتادوا فرضها — على (غبائنا المفترض) — (بغباء) أصيل .

« المستحيل » ، قصة استحالة الحب في مجتمع كل ما فيه محنط ومهترىء ومريض كأفلامه وبحاجة إلى إعادة النظر ، بدءاً بأفلامه ..

٨ / ٦ / ١٩٧٣

« خللي بالك من .... الفيلم العربي » !

المثقفون العرب متهمون بمقاطعة السينما العربية . وهذا صحيح .

وانا بعد كل فيلم عربي أُنكب بمشاهدته أشدد العزم على عدم تكرار (المحنة) ... ولكنني أيضاً أشعر انه ليس من حقي الحكم بالاعدام على المستقبل لمجرد ان الماضي شبه ميت ، وصحيح انه (لو انها ستمطر أرعدت) ، لكنني أظل أمني النفس بفيلم عربي جيد لا بد وأن يمطر في حياتنا القاحلة سينمائياً ذات يوم ...

ففي مصر كتّاب كبار (نجيب محفـوظ مثلاً) ومخرجون جيدون (يوسف شاهين) وممثلون بارعون (سناء جميل) وكتاب حوار من الدرجة الأولى (يوسف فرنسيس وصلاح جاهين) — كل الاسماء هي على سبيل المثال لا الحصر — وفيها راقصات ومهرجون وكاميرا وستديو ومطربات وملحنون ونقاد فنيون ولكن...ليس فيها سينما...

ولما استمر عرض فيلم (خلي بالك من زوزو) ما يقارب الستة اشهر قررت أن أذهب لأرى ماذا يحدث في تلك الصالة المعتمة المضيئة ، وهل تشهد صالة الريفولي ببيروت مولد الفيلم العربي الجديد أم هي حادثة (إجهاض فني) أخرى ؟ فالذوق الجماهيري لا يجوز احتقاره بل تظل في النجاح الجماهيري اشارات ودلائل يصح الاسترشاد بها أو في اسوأ الحالات تحليلها وتفهمها .

الفيلم استعراضي ، والمخرج حسن الامام التقط بذكاء موجة الردة المعاصرة إلى الافلام الاستعراضية . ففي لندن قدم لنا كين راسل مخرج (نساء عاشقات تأليف د . هـ . لورانس ، والشياطين وغيرها من أصعب الافلام) فيلماً استعراضياً خفيفاً فيه ردة لافلام الاربعينات هو (بوي فريند) بطولة تويغي ... ولحقت « بتويغي » وفاقتها بمراحل المبدعة ليزا مانيللي في فيلمها الاستعراضي الناجح (كباريه) . وها هو فيلم (خللي بالك من زوزو) يجيء ليكون المحاولة العربية لمعاصرة هذه الموجة ، وتلعب فيه سعاد حسني دور شادية في الأربعينات ، دور الدلوعة الحلوة التي ترقص

وتغني وتتدلع وتتأوه وتخلع ثيابها وجمهور ٥ حزيران يركض ويتفرج ويشهق ويتردد على السينما ستة أشهر قابلة للتمديد يأكل (البزر) ويلتهم (البوب كورن) وسعاد حسني في آن واحد . وهنا لا بد من تسجيل نقطة لصالح جمال سعاد حسني وحسنها... ولكن ليس بجمال المرأة وحده تحيا السينما ، الا إذا اعتبرنا الفيلم (إعلانياً) عن مواهب سعاد حسني ، وفي هذه الحالة يستحسن عرضه على المخرجين فقط ... أما ما تبقى من الفيلم غير سعاد حسني فانه ... ولكن ، هل يتبقى شيء ؟ ...

لا بد من الاعتراف أيضاً بأن الحوار في هذا الفيلم لطيف ولكن ما جدوى الحوار الحسن حين تكون قصة الفيلم مكررة حتى الاهتراء ؟ ...

صحيح ان الفيلم يحاول أن يعالج ما يبدو للوهلة الاولى (مشكلة ثورية معاصرة)، ولكن الفيلم يعالجها بالعين العتيقة ، الرجعية المنطلقات نفسها ، الميلودرامية الرؤية ، الفردية الحلول التي طالما تحكمت بالفيلم العربي . اننا للاسف نجد في « خلي بالك من زوزو » كل مواصفات الفيلم العربي التقليدي بدءاً من « ليلى بنت الفقراء » ومروراً « بليلى بنت الاغنياء » وانتهاء « بلحن الخلود » و (كليشيهات) الاستاذ وحيد فريد الاطرش . تلخيص قصة الفيلم سهل جداً : راقصة من عوالم محمد علي هي بديعة الالماظية (تحية كاريوكا) لديها ابنة حسناء اسمها زوزو (سعاد حسني) تدرس في الجامعة كما تساعد امها في الرقص في الافراح . تلتقي بمخرج اسمه سعيد (حسين فهمي) وتحبه ويحبها ويتزوجان في آخر الفيلم بعد بعض المكائد التقليدية النسائية وبعض المصاعب الاجتماعية لأن البنت راقصة بنت راقصة و (شرف البنت زي عود الكبريت) على رأي الفيلسوف الاجتماعي العربي الاول يوسف وهبي . وفي هذا الفيلم – للاسف – كل ما في الافلام العربية المحنطة من عقد تقليدية وكليشيهات :

١ – عقدة الباشا – يمثلها في هذا الفيلم والد البطل (حسين فهمي) . وصحيح ان احداً لا يناديه في هذا الفيلم بلقب يا سيادة الباشا ، لكن جو الباشا قائم ، الخدم والرياش والصالونات الواسعة التي تحتاج إلى تاكسي لتتجول فيها (برأي زوزو) . وهنالك أيضاً الدور التقليدي لزوجة الباشا و (الخالة زوجة الأب) التي تريد أن تزوج ابن زوجها على مزاجها .. وهذا (الباشا) البروليتاري هو باشا افلام ما قبل الثورة سلوكاً وفكراً وقد اهترأت أهدابنا لكثرة ما شاهدناه ... صحيح انه في هذا الفيلم (مكسور الشوكة) ولكن انكساره هذا ليس بحكم التطور الطبقي وانما بحكم تسلط زوجته عليه التي هي (باشا) الفيلم .

٢ — النواح : مدرسة النواح في الافلام المصرية خفت آثارها لكنها ما تزال قائمة . وصحيح أن سعاد حسني اكتفت ببعض التجهم وبنوبة (وجع معدة) حين فقدت حبيبها ولم تقدم لنا وصلة البكاء التقليدية على طريقة فاتن حمامة وشادية وغيرهما من الرعيل العتيق ، الا ان المخرج عز عليه فيما يبدو أن يمر الفيلم بلا وصلة بكاء حرصاً على صورة السينما العربية التقليدية فقامت بأداء هذا الواجب ممثلة أخرى من المفروض انها راقصة في فرقة بديعة الالماظية أم زوزو وقد هجرها حبيبها لأنها راقصة .

٣ — البنت المظلومة : وهو الدور الذي تألقت فيه ليلى مراد في الاربعينات وفاتن وشادية في الخمسينات والستينات تبعثه سعاد حسني في السبعينات . هنـــالك في كل فيلم مصري « بنت مظلومة » ، بنت « شريفة » يسيء فهمهـــا الناس .. ومفهوم الشرف ما يزال هو نفسه كما رسمه الفيلسوف الخالد يوسف وهبي . وحتى في « خللي بالك من زوزو » الذي يدعي محاولة تبديل مفهوم الشرف يحاول ذلك بصورة سطحية محافظاً على كل مفاهيمه العتيقة . فهو مثلاً يحرص على أن تظل (عفة) زوزو الجسدية نقية ويتم انقاذها قبل الدخول إلى عالم الكباريه خطوة واحدة والا فسدت ولم يعد ممكناً تزويجها من البطل آخر الفيلم . في فيلم (كباريه) نجد ليزا مانيللي امرأة حقيقية من واقع الكباريه الحي لا المزيف ، امرأة سبق أن احبت ولكن ذلك لا يمنعها من أن تحب من جديد باخلاص حاد ناسفة الاسطورة التقليدية عن (الحب الأوحد) وسبق لها أن منحت جسدها لكن ذلك لا يمنعها من القدرة على العطاء بنقاء جسدي ونفسي لا حدود لهما حين تحب من جديد ... أرضية الواقع والرؤية المتحررة لمفهوم الاخلاق هي أرضية فيلم (كباريه) والتزمت التقليدي والاخلاقية الفجة هي مواصفات (كباريه) زوزو .

٤ — العلاقة بين الرجل والمرأة : الفيلم رغم ادعائه لإثارة مواقف فكرية ووجود تفاهم فكري عصري بين البطل المثقف والبطلة الراقصة بنت الجامعة . إلا انه غير مخلص وجاد في ادعاءاته هذه بدليل ان الخلاف الوحيد الفكري بين العاشقين تحسمه صفعة من يد سعيد على خد زوزو وهو يصرخ بها : « يللا خشي غرفتك .. معندناش بنات يرقصوا في الكباريه » (الخ الكليشيهات التي تفوح رائحتهـــا مـــن الصفعة) ... صفعة على طريقة (الواد الحمش) رشدي اباظه وعلى طريقة كل الصفعات التي تثبت ان المرأة مهما تعلمت هي بنصف عقل والصفعة هي الحوار الوحيد

الممكن بينها وبين الرجل .. القبلة أو الصفعة وباقي الكلام ثرثرة لا أهمية لها في (ساعة الحسم) .

٥ ــ سماعة التلفون : لا يخلو فيلم مصري من بطلة تغني ، وإذا كانت لا تغني أرغمت على أن تغني ، وإذا غنت فعليها أن تمسك بسماعة التلفون وتلقي فيها بوصلة من الغناء . وإحياء لمدرسة شادية في المشهد الشهير (ألو ألو احنا هنا) حيث تعانق السماعة نجد ان سعاد حسني تنفذ أوامر المخرج بدقة في هذا الخصوص وتطارح سماعة التلفون الغرام حرصاً على التقاليد السينمائية .

٦ ــ المكائد التقليدية : خطيبة سعيد السابقة لا تعجبها حكاية حبه مع زوزو فتنصب الفخ التقليدي في السينما المصرية ، فخ المكائد (النسوانية) حيث تستأجر أم زوزو لترقص في حفل زواج اخت سعيد ، ويأتي سعيد ، ومعه خطيبته الجامعية زوزو التي تفاجأ بأمها وهي بحالة (هز يا وز) ويتم بذلك تحقير زوزو امام الطبقة (الباشاوية) الملامح التي تحضر الحفل .

٧ ــ الأحلام : لا يخلو فيلم مصري من حلم بلقاء الحبيب . والتجديد الوحيد في (خللي بالك من زوزو) هو ان الست زوزو تحلم بحبيبها قبل أن تلقاه ، ثم تلقاه في اليوم التالي (! !) تماماً كما جاءها في الحلم ، وبالثياب نفسها والتسريحة نفسها ...

٨ ــ الصدفة : وهي العقدة السينمائية الاساسية . فهي تحلم به ، وبالصدفة تلتقي به وهو يقود سيارته ويكاد يدهسها ، وبالصدفة أيضاً تلتقي به بعد دقائق في مدرج الكلية حيث جاء يحاضر ... وبالصدفة أيضاً يتعرف إلى زوزو فنان قديم (شاهدها معه بالصدفة) ويقود سعيد إلى منزلها بالصدفة حين تختفي بالصدفة.. وسبحان الصدفة..

٩ ــ الخاتمة : سعيدة طبعاً . يتزوجان ويعيشان في (ثبات ونبات) ويخلفان مزيداً من الافلام .

وإلى جانب هذا الركام من العتق فان ثياب سعاد حسني كانت حديثة والديكورات حديثة ويبدو ان الجمهور ما يزال يكتفي بجمال امرأة ، وها هي سعاد حسني تخلع ثيابها وجمهور ٥ حزيران يركض والفيلم كله رقص وغنج وموسيقى ودلع وتخدير عن أي موقف إنساني عميق وهرب إلى تخدير الميلودراما وحشيش النسيان ...

والشعب العربي فيما يبدو بحاجة إلى التخدير وإلى الهرب وإلى الرقص والحنجلة بينما هو يساق إلى مقصلة التاريخ ..

٢٠ / ١٢ / ١٩٦٨

صيادو النجاح السهل في مياه إعجابنا العكرة !

للمرة الرابعة أو الخامسة خلال أقل من عامين تعود « إيرين برتييه » لتغني في بيروت ... ولتحظى بإعجاب لم تشهد له مثيلاً في بلادها (فرنسا) ولا في أي قطر آخر من أقطار العالم ..

تعود إلينا « كسنونو » وجدت ربيعها بعد أن طارت مئة عام تحت المطر والريح والبرد بحثاً عنه ... فنحن نسفح من الاقبال والاعجاب في حضرتها ما يُسفح عادة في هيكل كبار المبدعين والخلاقين ...

وكما كانت فرنسا تغرق مطربتها « اديث بياف » بأكاليل الغار في (الاربعينات) نغرق نحن اليوم « ايرين برتييه » بغار الاعجاب والمحبة ...

وربيع الحب الذي يمنحه الجمهور العربي لايرين برتييه هو ظاهرة تستحق التأمل ، خصوصاً حينما نأخذ بعين الاعتبار حقيقة رديفه : هي ان أيرين برتييه لا تعتبر في بلادها من كبيرات المسرح الغنائي الباريسي المستقطبات للاجماع والاقبال الجماهيري ... وأجرها في بلدها عادي ومبيعات اسطواناتها وانتشارها تحت الوسط.. فلماذا ؟ ... لماذا تنتصر ايرين برتييه في معركة ساحها قلوبنا العربية ، ولا تقوى على تحقيق نصر مماثل في بلدها أو في أي بلد أوروبي آخر ؟ ...

ربما لأن في صوت ايرين برتييه وفي اغنياتها حزناً كثيفاً مروعاً ، هو من بعض الحزن الشرقي (الفولكلوري) ... حزن عنيف كقدمين عاريتين لزنجية ترقص في حقل من الجمر والزجاج المكسر المدبب ... حزن عتيق كأنين باب مخزن للنبيذ في دير مهجور منسي ... حزن ملتاع لجبل يقطعون رخامه عتبة لخمارة ... حزن متمرد كرعشات وانتفاضات جسد طير فصل عنه رأسه للتو بسكين غير حادة ...

إن في صوتها الصارخ الحزين المتحشرج ، ظلالاً لصوت « أديث بياف » ... وأديث بياف كانت مطربة فريدة ، غنت أحزان إنسان اوروبا بعد طوفانين متلاحقين من النار والدمار مرّا عليه هما الحرب العالمية الأولى والثانية .

إديث بياف كانت الزهرة الوحشية التي نبتت على هشيم بيت احترقت جدرانه وأطفاله ورجاله وتعاويذه وجدائل نسائه ... زهرة تتحدى ...

كان صوتها ، وأغنياتها يمثلان خلاصة فلسفة سارتر (قيمة الإنسان في أن يتحدى ويستمر رغم وعيه بانه محكوم سلفاً بالعذاب والموت) ...

وغنت أوروبا كلها مع أديث بياف انشودتها المتحدية للثلوج وبقايا الدخان والهشيم :

(لا .. لا شيء .. ، عبث العبث هو كل شيء ..

لا ، لا آسف على أي شيء مضى .. لست بآسفة على اساءاتك ولا على عطاءاتك فكل شيء سيان عندي وقد اضرمت النار بذاكرتي وذكرياتي ..) .

وانطلقت اناشيدها عبر شفاه الأرامل المحروقة بالجوع للحب والحنان ، وعبر شفاه نساء الليل الملطخة بالاحمر الرخيص ، وعبر كل حنجرة مزقتها احزان البحث عن وتد يقين في صحراء مقفرة من القحط الروحي أتى على خيامه وجدرانه ومعابده وهياكله زلزال مروع لم يبق ولم يذر ...

تلك كانت « أديث بياف » .. كانت صرخة المواجهة والمجابهة والتحدي مع وعيها بابعاد الفجيعة .

و « ايرين برتييه » قُدِّمت للجمهور العربي على انها الجسد الجديد الذي تقمصته « اديث بياف » ... فصوت ايرين برتييه يشبه بلا شك صوت « اديث بياف » ... فيه الكثير من الزخم الحزين والحرارة نفسها ... ولكن الشبيه يظل شبيهاً .. والنسخ مهما كان متقناً يظل (فوتو كوبي) — صورة طبق الاصل — تفتقر إلى الاشياء الصغيرة المميزة ، إلى ما قد يصح تسميته (بهارات وتوابل) الصوت ... ونكهته ..

وايرين برتييه تعرف ذلك ويضايقها .

في حديث صحافي لها في زيارة سابقة لم تنف اعجابها وتأثرها بأديث بياف لكنها أصرت على انها « أيرين برتييه » ولها (خصوصيتها) ولكن الجمهور ظل يصر على أن تغني له أغاني « اديث » وكان لا مفر لها من الرضوخ ..

كانت تغني له اغنياتها الخاصة ، فينصت بما يشبه الرضوخ والحماس شبه المفتعل ، كأنه بقبوله هذا يدفع لها (مقدماً) ثمن رضوخها لرغباته ، وتقمص شخصية امرأة أخرى ميتة — بالنسبة لها على الأقل ، وربما صارت تكرهها — هي اديث بياف .

وهكذا ، تجيء الينا « ايرين برتييه » شبحاً من الماضي وكأنها حينما تطير من

باريس إلى بيروت تطير من عام ١٩٦٨ إلى أيام ١٩٤٥ – ١٩٥٥ ... كأنها أيام ١٩٤٥ – ١٩٥٥ ... كأنها تطير إلى عصر ارتحل من اوروبا وما يزال عندنا ...

وبينما يعايش شبيبة فرنسا واوروبا موجة فكرية معاصرة حديثة ، تجاوزت الموجة الوجودية وحتى العبثية .. ما نزال نحن نجتر التراث الفكري لمرحلة بين الحربين وما بعدهما ، وما نزال قاصرين عن متابعة ما يدور في الفلك الفكري العالمي . وما نزال بالتالي قاصرين عن زرع نجومنا والتأثير في مجرى هذا الفلك والمشاركة في حصيلة قوى جذبه وتنافره .

وربما لاننا ما نزال نتغذى بأدب الخمسينيات هناك ، ونعيش بنفسية أهل الاربعينات ، فان « اديث بياف » تهز اوتارنا ، وإلى حد نرضى فيه ببديلتها ، التي اضطرت للترمل عن (ذاتها) لتنجح ... والتي تسبح باستمرار هاربة من بحر حياة اوروبا الفنية ، حيث التيارات صاخبة التجدد والحيوية ، ومقاييس النجاح صعبة وقاسية ، وتأتي إلى شطآن جزرنا النائية وخلجاننا الراكدة حيث النجاح سهل والمقاييس مهزوزة ، واقتحام أسوار اعجابنا لا يتطلب دخولاً من (الباب الضيق) ، وحراب حراسنا يمكن رشوتها بالفتات ... فتات ذكرى .

وهذه ليست أول مرة يحقق فيها فنان نجاحاً مذهلاً في بلادنا بينما هو ما يزال شبه مغمور في بلده ...

هنالك أكثر من أديب وفنان غربي (صرعونا) كما يصرع حامل الفانوس أفراد قبيلة لما تكتشف النار بعد ، وسجدنا لهم سجود أفراد قرية بدائية – لم تسمع بالبارود – أمام رحالة من عصر الذرة يحمل مدفعاً رشاشاً وجهاز عرض سينمائي .

٢٠ / ٩ / ١٩٦٨

المطلوب ثقافة جماهيرية أولا !

حفلات الباليه التي قدمتها الفرقة المجرية « سوبيانا » على مسرح « قصر البيكاديللي» في الحمراء هي بلا شك ضرورة للجمهور العربي الذي ما زالت اطلالته على عالم الابداع الفني تقتصر على كوه السينما ، وما يقدم له من خلالها ...

فجمهورنا قلما تتاح له فرصة مشاهدة المسرح ، اما الباليه فأكثر ندرة من الفرح ، وبصورة خاصة لاستحالة صنع الباليه محلياً رغم المحاولات (البورجوازية) عندنا التي اتخذت من الباليه مادة دعائية لأفراد مجتمعنا المخملي في صفحات الصحف الخاصة بنشاطهم الرقصي ولم تقدم شيئاً يذكر حقاً بالمعنى الفني .

والفرقة التي شاهدناها لم تكن فرقة مبدعة أو رائعة كما انها لم تكن سيئة جداً . لم يكن لأفرادها عبقرية (البولشوي) الروسية ، كما انهم لم يكونوا من العادية بحيث يلحظ ذلك المتفرج العربي غير الخبير ...

وهذا بالضبط ما يثير الخشية والاسى على المتفرج العربي الذي لم تتح له — نسبياً — فرصة الاطلاع على (الباليه) بحيث يقوم الفرقة بدلاً من أن يقوم الباليه على ضوء ما قدمته له الفرقة .

فأسلوب فرقة « سوبيانا » في الباليه ليس كلاسيكياً انما هو أقرب إلى الباليه المتطورة ، الباليه (المودرن) الذي يتردى أحياناً في هوة العادية والميكانيكية الرياضية...

وإذا كان الباليه هو تحويل الجسد البشري إلى رمز إنساني عبر الحركة الرشيقة الخاطفة كشعاع ، فقد كانت (المودرنيزم) في الاداء ، تحول تلك الاجساد إلى أفراد أسرة تمارس رياضة الصباح على موسيقى الراديو في البرنامج الخاص بذلك !...

وفي « الامير الخشبي » — القطعة الاولى — ، توقعنا أن يبدأ أفراد الفرقة بنط الحبل بعد ان شاهدناهم ينطون بعضهم من فوق بعض كما في حصة الرياضة في باحة المدرسة ...

هنالك أكثر من محاولة لتطوير « الباليه » وجعله فناً (مودرن) ، وهي قضية ما تزال مثار جدال وأخذ ورد .. وما تزال في طور المحاولة ..

هنالك من ينادي بايقاف هذه المحاولات بحجة أن الباليه هو ذلك الفن الكلاسيكي (التشايكوفسكائي) ، وانه يكون أو لا يكون .. وانه يمكن للعصر أن يرفضه لكن لا يحق له ان يشوهه بحجة تطويره ، وان تلك المحاولات لتطويره تشبه محاولة قام بها ثوري معاصر لترجمة اعمال شكسبير إلى العامية ! ..

وان موجة عصر (الروك اندرول) تسمم الباليه إذا امتدت اليه ، إذ انه يكف عن أن يكون (باليه) ، ويصير شيئاً آخر .

وهنالك مدرسة أخرى تنادي بالعكس ، وتحذر من تحنيط الباليه والا انتهى به الحال إلى صورة في متحف للذكرى ..

والمتفرج العربي ما يزال يقع بعيداً عن هذا الحوار .. فهو لم يتعرف بعد إلى الباليه الكلاسيكي بما يكفي ليلحظ معنى أن يكون الباليه متطوراً ، وليقرر مع أي الجانبين يقف ، وليقوم « سوبيانا » على ضوء موقفه الفكري والجمالي من الباليه (أو ليبدل من نظرته على ضوء ما قدمته سوبيانا) .

ومن هنا نتساءل : لماذا تكبدنا عناء السفر إلى المجر وعناء اقناع الفرقة الكبيرة بالمجيء ؟ ..

هل المهم أن يقال ان فرقة باليه قد رقصت في بلدنا ؟ أم أن الاهم هو انتقاء الفرق على ضوء حاجة المتفرج العربي ؟ .

أعترف بأن في هذا النقد بعض القسوة على صاحب الصالة الذي دعا الفرقة المجرية ، لكن مبعثها هو انه الوحيد الذي قدم لبيروت خشبة مسرحية حقيقية معاصرة من حيث الشكل ، وعلى يديه شاهد جمهورنا أكثر من عمل فني رائع .. ونطمح إلى أن يكون لولباً فكرياً وثقافياً له اثره البعيد في الاطلاع الفكري والفني للفرد العربي في هذه المرحلة ، ونريد أن يكون اختياره لما يقدم منطلقاً من واقع الاكثرية عندنا لا من واقع طبقة أقلية معينة ، ونريد أن يكون في عنائه وكفاحه ما هو أكثر من مناسبة تعرض فيها سيدات فساتينهن .

وعلى ذكر الفساتين ، ليس في العالم كله جمهور مسرح كجمهورنا ..

وما تزال (سيدات المجتمع) عندنا يتوهمن ان المسرح هو حفلة خاصة يعرضن فيها الأزياء مجاناً ...

ويمارسن هواية التشاوف ..

واظن ان صاحب المسرح هو أكثر الناس اطلاعاً على حقيقة جمهوره ، إذ انه لم يكبد نفسه عناء طبع برنامج للحفل (بروشور) ، الأمر الذي لا يمكن أن يحدث في أي مسرح في العالم .

١ / ١٠ / ١٩٧١

الجوكندة بالشورت !!

سمعت جزءاً من اسطوانات جديدة تغمر اليوم الاسواق ، هي ألحان موزار الكلاسيكية المسجلة حديثاً بايقاع موسيقى (الجاز) وآلاته من طبول وأبواق ! ... موزار على إيقاع روك أندرول مجنون مسعور يضيع كل ما كان موزار يتمنى ان يقوله لنا ، ويسحله في دوامة من الجنون والضجيج والزعيق ...

لماذا لا يكتفي عصرنا بفظاعاته الموسيقية المعاصرة ويترك للكلاسيكيات إيقاعها الأصلي ومناخها الساحر ليس من باب الاعجاب بعظمتها فحسب بل على الاقل من باب الأمانة التاريخية والمحافظة على نتاج الخالدين دونما عبث بهذا التراث ؟

ان موجة التشويه العصري للروائع الكلاسيكية أمر خطر يجب ان تقف جمعيات الادباء والفنانين في وجهه قبل ان يتفاقم أمره ، وقبل ان يأتي يوم نجد أنفسنا فيه نرقص الدبكة على الحان بيتهوفن مثلاً ! .

ان اسطوانة موزار الكلاسيكية بالتوزيع الموسيقي الحديث الجيركي الايقاع أمر مؤلم ومضحك تماماً مثل منظر لوحة الجوكندة – رائعة ليوناردو دافنتشي – إذا ارتدت سيدتها الشورت أو الميني جوب ! فهل تمتد يد آثمة إلى الجوكندة بعد موزار لتبرز ساقيها من تحت شورت صغير أو ميني جوب معاصر ؟ ...

٢٦ / ١٢ / ١٩٧١

دعوة إلى سرقة السيارات !

لا مذلة في العالم تشبه احساس المواطن العربي حينما تحتم عليه ظروفه حمل معاملة رسمية والتنقل بها بين مختلف الموظفين في دائرة حكومية ، متعرضاً لكل مظاهر التخلف والاعتداء على الكرامة التي تخطر ولا تخطر ببال ...

فقد اشتريت سيارة جديدة ، وكنت اظن ان المتاعب انتهت يوم انتهيت من جمع آخر قرش من ثمنها ... لكنني فوجئت بأن الأهوال في دهاليز الدوائر الرسمية بدأت ذلك الصباح بعد ان دفعت ثمنها وذهبت لاجراء معاملات تسجيلها في الدائرة المختصة ..

ما كدت اطأ بقدمي عتبة باب «الدائرة» حتى انقض علي عشرة أشخاص دفعة واحدة وكلهم يسألني : ماذا تريدين ؟ ... تسجيل سيارة ؟ دفع ميكانيك ؟ ... في البداية أعجبت بهذه الدائرة الحكومية العظيمة الدقة التي يستقبلك الموظفون فيها على العتبة ويركضون خلفك يسألونك عن الخدمة التي يستطيعون تقديمها لك ...

ويتزاحمون على مساعدتك ويتقاذفونك ويكادون يتشاجرون كل يريد شرف تحقيق مطلبك ...

ثم اكتشفت انهم ليسوا موظفين وانما هم (سماسرة) تعقيب معاملات ، أي وسطاء بينك وبين الموظفين ...

وفي البداية تحاول الاستغناء عن خدماتهم وبصعوبة تخرج من حصارهم وتتخلص من إلحاحهم وتقرر ان تلاحق قضيتك بنفسك ...

وهنا تجد نفسك في بحر متلاطم من الناس. لا مكتب استعلامات يرشدك من اين تبدأ حتى ولا لافتات وانما مجموعة من الطاولات يتكوم حول كل منها عشرات الناس والكل يصرخ والموظف يصرخ أكثر من الجميع ... وعبثاً تُذكّر نفسك انك في دائرة حكومية لا في ملجأ للغارات الجوية اثناء غارة داهمة حيث الكل يصرخ والكل

يركض والفوضى ترفع راياتها ...

واخيراً وقفت في زحام بشري مكوم حول طاولة خلفها موظف ، وسلمت أمري كلية إلى من يلاحق معاملتي ... كان الموظف (ولا مبرر لذكر اسمه لانه يمثل نموذجاً لاكثر جلادينا في الدوائر الحكومية) يرغي ويزبد بل و (يحرد) أحياناً ، والمعاملات مكدسة على طاولته ، وعشرات الأيدي تمتد اليه بعشرات المعاملات ... هذا يطيّب خاطره ... وآخر يناديه باسم الدلع ... ويا ابو كذا ... ويا مولانا ... هذا يضع في شفتيه لفافة ... وآخر يسبقه إلى إشعالها ... وآخر يقفز من وراء الحاجز متجاوزاً الكتلة البشرية هامساً باذنه باسم أو بآخر ... أحياناً يغضب (للواسطة) ويعلو صوته ... ولكنه لا ينسى ان يصرخ في وجوهنا جميعاً : أنا وحدي ... لا أستطيع ان اشتغل أكثر من ماكينة ...

واحاول أن أقول له أن كثرة العمل أكثر من طاقته هي مشكلته وليست مشكلة المواطن الذي جاء يراجعه ... وانه من المفروض ان يقدم شكوى إلى رؤسائه بهذا الخصوص لا أن يسمعنا نحن قارص الكلام بسبب خطأ لسنا مسؤولين عنه ... نحن الذين ندفع الضرائب أي ندفع رواتبه ورواتب رؤسائه كي يؤمنوا لنا الخدمات في المرافق الحيوية.. وبدأت أقول له شيئاً من هذا ولكن صوتي ضاع في قاعة (السونا) وسط الضجيج والعرق المتصبب مني ومن حولي ، وأحسست فجأة اية مهزلة هي ان نشتري السيارة ونأتي لتسجيلها ونحن ما نزال نعيش في عصر ركوب الدواب وانه ما هو أهم من استيراد السيارة هو الوصول إلى الرقي الانساني والدقة والتنظيم وكل ما يرافق صنع سيارة من مزايا إنسانية ...

وتذكرت كابوساً آخر من النوع ذاته عشته هذا العام ، حينما ذهبت إلى دائرة رسمية أخرى لاستخراج تذكرة هوية لبنانية حصلت عليها بعد انقضاء أكثر من عام على زواجي من لبناني ...

ولما كانت المعاملة قانونية ، لم أجد أي مسوّغ للاستعانة بالوساطة والوسطاء، وذهبت كاية مواطنة أقدم طلباً وألاحقه ... وقضيت اسابيع من المواعيد الكاذبة ، وتعلمت مطاردة الموظفين وحفظت مواعيد هربهم وقهوتهم وتسليتهم وزحامهم وإرهاقهم ونرفزتهم كانني خبيرة نفسية جاءت تدرس أمزجة الموظفين ، لا مجرد مواطنة جاءت لقضاء حاجة قانونية . ويوم انتهت المعاملات وحملت التذكرة اللبنانية كنت كمن تخرج من دورة تدريبية تعلم فيها أيضاً كل متطلبات التذكرة التي حملها ...

من ضرورة الوساطة... والبهلوانية... والتملق ... وعدم الرد على الإهانة، كأن يطلب منك موظف ان تراجعه يوم كذا وتذهب ويرد عليك دون ان يطرف في عينيه جفن : لم تنته المعاملة ! ... هكذا ببساطة . كأن لا عمل لك في هذه الدنيا سوى الوقوف على بابه ، وكأنه ليس مسؤولاً عن هدر وقتك الذي قد يكون ثميناً وقد لا يكون ... ولكن الذي لا شك فيه هو أن اختيار سبل هدره هو أمر يتعلق بك انت وليس لأحد ان يفرضه عليك ...

هل طاعون الاستهتار بالمواطن مرض لبناني ؟ ام انه مرض عربي ، من بعض نتائج التخلف ، ومظهر من مظاهر الاعتداء على كرامة المواطن العربي وحريته التي تتجلى في مئات المرافق الأخرى وتبرز في كل مناسبة ؟ ؟ .

هل الموظف وحده هو المسؤول ؟ ربما للوهلة الاولى تشعر بالحقد على ذلك القابع خلف منضدة ، لا تعرفه ولا يعرفك ولكنه يبتز وقتك وأعصابك ويتمادى في أسلوب مخاطبته لك ، ولكن لو عدنا إلى حياته من الداخل لرأينا الوجه الآخر الأبعد للقضية ...

فالموظف عندنا يعيش في شروط معيشية ووظيفية لا يحسد عليها ... الرواتب قليلة ... تعويضات الأسرة لا تذكر ... الغلاء يفترسه ... المستقبل الاسود يجعله في في حالة توتر اعصاب مزمن ... رؤساؤه يرغمونه على قبول الوساطات والا ... الجوع ... شروط العمل سيئة : العمل كثير يتزايد عاماً بعد عام ، وهنالك دوائر (لأولاد الست) يعيش الموظف فيها وكأنه في (استراحة فندقية) دائمة ... وهنالك دوائر العمل فيها أكثر من العنكبوت المعشعش في عقلية القيمين عليها وأكثر من إهمال كبار المسؤولين لها لانشغالهم في مصالحهم الانتخابية والمادية ... والنتيجة : موظف محطم الأعصاب ... وسمسار يفتش عن رزقه ويستحسن توظيفه رسمياً ما دامت الحاجة اليه قائمة ... ومواطن مهدور الكرامة ... وحمام (مقطوع الماء) اسمه دائرة حكومية. ووطن يجرفه طوفان التخلف يركب الكاديلاك ويمشي بها في دروب عصر الدواب نحو الدمار ..

وبعد ،

أصبحت موقنة بأن من أهم اسباب ازدياد موجة سرقة السيارات في لبنان هو أن سرقة السيارة بكل ما تتضمنه من مشاق ومخاطر هي أهون ألف مرة من شرائها وتسجيلها رسمياً ... وما يلقاه المواطن من إهانات اثناء تسجيلها يوازي دونما شك ما يلقاه سارق

السيارة اذا تم القاء القبض عليه (بل ان السارق الخطير والمهم قد يلقى حماية ورعاية أكثر من المواطن البريء البسيط والعادي) ...

اجل ! ان الدوائر الرسمية هي أكبر داعية إلى سرقة السيارات ...

وفي المرة المقبلة ، لن أشتري سيارة وأقاسي من تسجيلها ، وانما سأسرق سيارة المسؤول عن فوضى دائرة تسجيل السيارات . !

٢٣ / ٢ / ١٩٧٣

بين « هيبة الحكم » و « قلب الحكم »

حدث هذا في بيروت !

بموجب حكم قانوني ، جاء الموظف والشرطي إلى البيت وختما بابه بالشمع الأحمر ، وكانت صاحبة الدار غائبة ... عادت صاحبة الدار لتجد الباب مختوماً ، وطفلها الصغير البالغ من العمر ١٠ أشهر ما يزال داخل الدار وحده ... وركضت إلى المحامي ... وركض المحامي إلى المخفر ... وتثاءب المخفر ورفض ... ففتح الباب يتطلب معاملة قانونية وعدداً من التواقيع وقد يستغرق ذلك أياماً... والطفل في الداخل لا يستطيع أن يفهم ان القانون هو القانون وكل ما يفهمه هو انه بحاجة إلى ماء ووجبة طعام كل أربع ساعات .

هذا الطفل المسكين قدر له ان يعاني من قسوة هذا العالم ووحشية القانون حين يفتقر تطبيقه إلى التفهم وهو لما يأتي بذنب ولما يبلغ السنة الاولى من عمره ...

ولما كان الطفل ابن عشرة اشهر عاجزاً عن فهم « هيبة القانون » ، ولما كانت الأم تكاد تجن ، والساعات تمر والطفل سجين ، ولما ثار المحامي ، تم اصدار الامر بتوقيف المحامي بدلاً من اطلاق سراح الطفل . وما تزال ذيول هذا التوقيف مستعرة على الصعيد القضائي ! ! ... ولم يتم انقاذ الطفل الباكي المشرف على الهلاك الا بعد ١٠ ساعات من انتصار البيروقراطية الغبية !

مرعبة هي هذه الحكاية ... تصوروا معي لو كانت بنية الطفل ضعيفة ، ولم يحتمل بكاء عشر ساعات وتجويعها ، لقُتل ضحية الروتين والمؤسسات ... ضحية القانون الذي لا قلب له ...

ذكرتني هذه الحكاية بمسرحية « الملك لير » لشكسبير ... فقد كانت هذه المسرحية العظيمة تتضمن فيما تتضمن من صرخات انسانية ، صرخة احتجاج على التطبيق الآلي للقانون ، والميكانيكية المروعة في المؤسسات ... وكان فيها دعوة إلى ممارسة القانون

بحنان ، وإلى تطبيق النظام بتفهم انساني ، لانه حين يصير القانون إلهاً لا يناقش فانه يدمر الانسان الذي صنعه أصلاً كي ينظم به حياته لا ليدمرها ...

كل شيء في حياة الانسان يصير سلاحـــاً مدمراً إذا خلا من الحب والحنان والتعاطف ..

نظرة واحدة نلقيها حولنا تكفي لنكتشف أن ما يعقد مشاكلنا ويؤزمها هو الافتقار إلى المحبة وإلى الحنان وإلى الانسانية في ممارساتنا كلها خصوصاً على الصعيد الرسمي ..

الاساتذة المضربون والمصروفون عوملوا بشراسة خوفاً على (هيبة الحكم) — مع العلم ان الحكم نسي حكاية هيبة الحكم امام التجار الرأسماليين وقبل بالتراجع امام ضغوطهم ، أيام حكاية المرسوم ١٩٤٣ — .

الأهم من « هيبة الحكم » هو « قلب الحكم » ... وحينمـــا يفتقر الحكم إلى العواطف الانسانية الأساسية كالحب والحنان والتعاطف يتحول إلى آلة جهنمية ويصير القانون قناعاً لشريعة الغاب ...

الحكم في بلادي بحاجة إلى لمسة حنان ، قبل ان يكون بحاجة إلى لمسة ميداس (لمسة الذهب) ...

تروي الاسطورة ان ملكاً يدعى ميداس كان يعشق الذهب ويرى فيه خلاصه وخلاص العالم ، وان الآلهة استجابت لرغبته وصار كل ما يلمسه يتحول إلى ذهب ... ولما لمس ابنته استحالت تمثالاً من ذهب ...

اعتقد ان مآسي وطني لا تحلها « لمسة ميداس » فقط بقدر ما هي بحاجة إلى « لمسة حنان » ...

مآسي مزارعي التبغ في الجنوب ... والعمال المضطهدين ... والطلاب المضربين والمضروبين ... والاساتذة المصروفين ... والفنانين ... وحرية الفكر ... ومتعاطي المخدرات ... والمجرمين ... كل هذه المآسي بحاجة إلى لمسة حنان ... وإلى نظرة إنسانية متفهمة ... وإلا استحال الوطن إلى بيت كبير مختوم بالشمع الأحمر يموت داخله أصحاب الشكاوى والاحزان ...

ان هذا الوطن بحاجة إلى قلب كبير ... والقانون بحاجة إلى لمسة حنان وأخطر عدو للشعب حاكم يملك بندقية ولا يملك قلباً .

١٦ / ٣ / ١٩٧٣

عما قريب نسقط في فخ !

واحد من مطاعم بيروت الكثيرة الحديثة، يقع بين منطقة الحمراء ومنطقة الروشة... المطعم أنيق وعصري وشاب المناخ... ذهبت اليه ومجموعة من الرفاق الذين أعجبوا بكل ما فيه .. وخصوا باعجابهم جهاز التلفزيون الذي يتوسط المكان ، وجهاز السينما الذي يعرض فيلماً قديماً على أحد جدران المطعم ... كانوا يتحدثون ، وبعضهم يتأمل ما يدور في التلفزيون تارة ، وما يدور في السينما على الجدار والموسيقى تملأ المكان ... قال لي احدهم : كم هي سعيدة بيروت . وصمت .

لم اقل له أن التلفزيون والسينما في المطعم هما طلائع زحف الغربة على بيروت ... الغربة التي ترافق زحف المدنية الحديثة ..

لم أقل له انني منذ شاهدتهما تسمرت في مكاني . أدركت ان بيروت بدأت تخرج من رحم الحنان العتيق لتمشي بلا رجعة في درب الغربة المعاصرة ...

التلفزيون والسينما نجدهما بكثرة في مطاعم اوروبا لكثرة ما يأكل الانسان هناك وحيداً ... فالانسان الشرقي العربي قلما يلتهم وجبة وحده، وحتى عند بائع السندويش، نجده يتحدث إلى الرجل الواقف بالقرب منه دونما معرفة حديثاً ودياً — وقد يكون حميماً — ريثما ينهي وجبة طعامه . اما في المدن الكبيرة العصرية في اوروبا واميركا ، فان طبيعة الحياة والبشر تفرض عليهم عزلة شرسة .. ويصير القلب صياداً وحيداً في قارة من صقيع الصمت . ويصير الانسان — رغم الزحام — جزيرة من الوحشة ...

والحديث عن الطقس في اوروبا ليس سببه كما يتوهم الناس سوء الاحوال الجوية، وانما سببه سوء الاحوال النفسية والانسانية . تجد الغريب يريد ان يقول شيئاً ما لغريب آخر ، والطقس موضوع حيادي لا يمكن أن يورط البادىء بالكلام ...

كذلك حب الأوروبيين الشهير للكلاب ... انه ليس في حقيقته حباً للكلاب بقدر ما هو مظهر من مظاهر وحشة الانسان المعاصر... وكم شاهدت من السكارى الوحيدين

الذين يصطحبون معهم إلى البارات كلابهم ، وحين يثملون يخاطبون كلبهم ويبكون له وهو ينصت بعينيه الواسعتين الدامعتين ... والعجوز التي تصطحب كلبها إلى مطعم ما ، ليست بحاجة للحوار مع الغرباء عن الطقس ، انها تستطيع ان تتحدث إلى نفسها - كما يفعل الكثيرون بسبب الوحشة - دون حرج ، وسيظنها الناس تحاور كلبها ...

ولكن التلفزيون والسينما جاءا إلى المطعم ليحلا محل الكلاب ، وليوفرا حجة الحديث عن الطقس ...

التلفزيون والسينما على جدار مطعم ، اعلان لغربة الانسان المعاصر ... وهما في بيروت جرس إنذار يقرع ، يذكرنا بأننا بدأنا ندفع ثمن دخولنا - ولو الشكلي - إلى العالم الحديث ...

اكتأبت وأنا أراهما ... أحسست برياح الغربة الباردة بدأت تهب على بيروت العتيقة الشرقية الحنون ... بيروت القرميد والموقد الملتهب باكواز الصنوبر وخابية الفرح العتيق ... وعما قريب نسقط نهائياً في فخ ما .. كلنا ... ومن يدري ... قد يأتي يوم نذهب فيه إلى المطاعم فنجد على كل طاولة آلة تسجيل يدير عليها الانسان الوحيد شريطاً سجله لصوت رجل أو امرأة تحبه ... يستمع اليه بينما هو يلتهم وجبته وحيداً ..

ربما كانت بيروت وحدها من دون مدن العالم هي التي تحتضن مآسي الحضارة ومآسي التخلف في آن واحد ...

بيروت الحامل بتوأم سيامي ملتصق ، نصفه مآسي التخلف ، ونصفه مآسي المدنية الحديثة ...

هل من طبيب لها ؟ ... لنا ؟ ...

من غير الحب والحنان ؟ ...

١٤ / ٥ / ١٩٧١

رجوع القانون إلى ... صباه !

اليوم رأيت فتاة تُقتل . كنت أزور بعض الاصدقاء في شارع قصقص قرب (الحرش) في بيروت . وقفنا على الشرفة نتأمل الأولاد يجرّون أغصان شجرة كبيرة ودواليب عتيقة ويضرمون النيران في عرض الشارع . تعالت ألسنة اللهيب وكادت النار تمتد إلى البيوت المجاورة والسيارات . سارعت احدى سيارات الاطفاء ... وفجأة انطلق الرصاص ، وشاهدت الفتاة تُقتل .

كانت تقف على الشرفة المواجهة ، قرب الجامع ، ممتلئة بحيوية أعوامها الاربعة عشر حينما اخترقت رصاصة عينها ، وتفجر الدم بسرعة يغسل وجهها ويغطيه ، أحسست بدمها يغطي وجه بيروت ، يغطي الشوارع والوجوه والغيوم وايدي جميع المارة .

بيان الشرطة ذكر اسمها وقال ان رصاصة طائشة قتلتها خطأ . مناسبة اطلاق الرصاص كانت نفسها مناسبة إشعال الحرائق : الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف ! اسمها ؟ ...

اسمها لا داعي لِذِكره ... لها اسماء كثيرة . انها تارة صبية صغيرة ، وتارة أم ، وتارة طفل ، وتارة رجل يعيل اسرة كبيرة .
اسمها الضحية .

ضحية هواية إطلاق الرصاص في لبنان . واذا كانت تلك طريقة فولكلورية في الاحتفال بالاعياد وبالثورات والجنازات ، فان تلك الطريقة لا تليق وسيلة للاحتفال بمولد النبي الذي جاء أصلا ليبشر بحضارة كل ما فيها يرفض همجية هذا الاسلوب في الاحتفال بذكراه . الدخان يغطي سماء بيروت كأن الحرائق تأكلها من اطرافها ... ورائحة الدواليب المحترقة في الشوارع والعنف والصخب وزخات الرصاص الطائش تخلق جواً متوتراً لا يمت بصلة إلى مبادىء العدالة والانسانية والحب التي عاش ومات

نبينا العربي لأجلها .

ولكن ذلك كله خارج الموضوع .

ولست هنا لأقول ان ما حدث ليلة مولد الرسول كان للاسف تكراراً لمسرحية تعلمها الصغار من الكبار ، شاهدوها في الشوارع في مناسبات كثيرة غوغائية ، فصار العنف عندهم تعبيراً عن الحب ، وشوهناهم حتى لم يعودوا ليفرقوا بين الاحتفال بفرح او الاحتفال بمأتم .

ولست هنا لأذكّر بعشرات الابرياء الذين يسقطون كل يوم ضحية هذا الرصاص الطائش الذي يلعلع بمناسبة وبلا مناسبة (بل يلعلع دوماً بلا مناسبة . يقال ان اليوم الوحيد الذي لم تطلق فيه رصاصة في لبنان هو يوم الهجوم الاسرائيلي على المطار ! ! . إنه أمر يجب ان يظل يحز في نفوسنا ويجللنا بالعار . في بيروت حيث يكفي ان يتشاجر سائقان على أفضلية السير حتى ينطلق الرصاص . وحيث يكفي ان (ينرفز) شخص ما حتى ينطلق الرصاص . لماذا لم (ينرفز) يومها أحد على الاسرائيليين الذين اعترضوا سبل السيارات والمارة ، ولم يطلق أحد رصاصة واحدة ولو من باب ضيق الصدر أو (المرجلة) ؟ كيف استطاع يومها ان « يتحلى » جميع البيروتيين بفضيلة ضبط النفس ، وفي ذلك اليوم فقط ؟) ...

ولكن ذلك كله خارج الموضوع ! ولست هنا لأذكّر بهذا كله (رغم انني لا استطيع ايضاً الا ان اتذكر طفلين شقيقين من بعلبك كانا يقفان على الشرفة حين نشب شجار عشائري في الشارع وانطلق الرصاص وذهبت عيونهما ضحية الشجار — كما خبرني الصديق الرسام رفيق شرف ولا استطيع إلا أن أبارك العصور الوسطى حين كان المتبارزون يخرجون إلى أمكنة خاصة بالنزال فيقتل أصحاب العلاقة دون الزج بالابرياء فيما يدور) ، ولكن ذلك كله خارج الموضوع .

عن القانون أريد أن أتحدث ، القانون الذي ليس مخطوطات مستوردة ، والذي يجب ان ينبع عن حاجات المجتمع ويواكب هذه الحاجات ، عن القوانين التي يجب الحكم باعدامها وعن القوانين التي يجب ان تشهد مولدها أتحدث .

أليس مدهشاً أنه في لبنان حيث لا قانون يحرم المناسبات الفولكلورية لاطلاق الرصاص ، هنالك قانون يحرم حمل (الولاعات) تحت طائلة المحاكمة والسجن إلا اذا كانت لديه رخصة رسمية بحملها ؟ ! ...

أذكر جيداً أن المحامي اسكندر ساره حدثني ذات يوم بغيظ عن مهزلة القوانين

في لبنان ، قال لي : ايام المفوض السامي الفرنسي . صدر قانون في لبنان يحرم حمل الولاعات . كان على مقتنيها ان يستخرج رخصة كما لو كانت سلاحاً ، ومن يضبط بتهمة حيازة (ولاعة) غير مرخصة يحال على المحاكمة .

المهزلة هي أن هذا القانون ظل ساري المفعول إلى ما قبل أعوام قليلة ، ثم تنبه له البعض وربما تم الغاؤه ...

ولكن عدداً كبيراً من القوانين الميتة لم يتم الغاؤها بعد .

هنالك مثلا رسم احصاء الماعز . اصدره يومئذ المفوض السامي لمصلحة بعض المتنفعين من (رجاله) ، وجعل منه وسيلة لكثير من النكايات وفرض (الخوة) ، هذا القانون ما يزال منسياً ، لم يلغ ، ولكن لا يعمل به طبعاً ...

هذا ما قاله الاستاذ اسكندر ساره ... ولكنني لست هنا لاطالب بإلغاء قانون منع حمل الولاعات أو إحصاء المواشي – إذا كانت لم تلـغ بعد – ، أو غيرها من القوانين التي لا تضر ولا تنفع ... هذه من بعض القوانين التي كما يقول المحامون الفرنسيون تموت بالشيخوخة ... وكمثال عليها أذكر قانون منع التدخين الذي صدر في فرنسا مع الثورة الفرنسية والذي ما يزال موجوداً كنص ، ميتاً كاجراء .

عن القوانين التي يجب ان تستحدث أكتب .

عن ضرورة سن قانون بمنع إطلاق الرصاص في مناسبات الاعياد والمآتم أتحدث . ولو أمكن سن قانون بفرض إطلاق الرصاص في مناسبات العدوان الاسرائيلي لطالبت بسنه لاننا للأسف بحاجة اليـه ، ولكن الكرامة لا تصنع بمرسوم ولا يبدعها قانون ! ...

وعن القوانين التي يجب ان تلغى (بعد أن زالت مبررات تشريعها لكنها ما زالت قائمة سيفاً مسلطاً على الرقاب) أكتب .

اعرف ان في تشريعات العالم كله نصوصاً ماتت بفعل الشيخوخة .

في فرنسا مثلاً هنالك قانون قديم يحرم على النساء إطالة الاظافر لان امرأة فيما يبدو خمشت ذات يوم احد النبلاء ! ... والقانون ما يزال قائماً ، واظافر النساء ما تزال تطول ! ...

هذه ليست مأساة . إنها قوانين مهترئة ، وجدت ذات يوم وبقيت حتى بعد ان ذهبت مبررات وجودها وليست حتى قضية تستحق الذكر لأنها لا تقف عائقاً في طريق تطور الشعب ، ولا يؤخذ بها .

ولكننا في عالمنا العربي ما نزال نعمل بموجب بعض القوانين المهترئة التي ذهبت مبررات وجودها ، وبقيت هي عائقاً في طريق التطور .

هنالك مثلا القانون الذي يحرم على المرأة ممارسة التجارة دون إذن خطي من زوجها لماذا ؟ ...

سألت الزميل المحامي باسم الجسر عن أصل هذا القانون فقال بأنه منقول عن تشريع فرنسي قديم ، له ما يبرره في مجتمعهم لان مال الزوجين هناك يعتبر (شراكة) وبالتالي لا يحق لطرف التصرف الشخصي به دون رضى الطرف الاخر .

المهزلة اننا استوردنا هذا التشريع عن الغرب ، رغم ان لدينا تشريعاً افضل منه واقدم منه وعمره أكثر من ١٣٠٠ سنة هو التشريع الاسلامي الذي منح المرأة حرية التصرف بأموالها الشخصية .

على سبيل المثال ، اذكر قانوناً آخر : محرم على المرأة العربية السفر (أي استخراج جواز سفر) دون إذن خطي من ولي امرها .

(وولي امرها) هذا هو زوجها ، أو والدها أو شقيقها أو أي شخص (ذكر) في أسرتها ! ...

هذا القانون هو مهزلة . ففي عصرنا ، كم من استاذة جامعية عزباء في الخمسين من عمرها مثلاً تضطر لاصطحاب شقيقها المراهق — الذي قد يكون مخبولاً ، وقد تكون هي التي تعيله مادياً — إلى مخفر الشرطة ليتفضل ويبصم بابهامه فرماناً يسمح لها بالسفر إلى مؤتمر علمي للذرة مثلاً .

قانون (ولي أمر) المرأة ينتمي إلى عصر كانت فيه المرأة تابعاً لا عضواً فعالاً في مجتمع يتطلع إلى مواكبة العصور الحديثة ... إنه قانون فقد ضرورته لأنه فقد اسباب وجوده وصار عائقاً في وجه التطور . صار في جسد التشريع مثل الزائدة الدودية في جسد الإنسان ! .

والمهزلة انه حتى بعض الدول العربية (التقدمية) ما تزال تتبنى هذا القانون رغم تناقضه الواضح مع دساتيرها التي تؤكد على المساواة التامة بين الرجل والمرأة .

المفروض ان الثورة هي اعادة نظر في كل ما هو قائم من أفكار ومؤسسات وقوانين فلماذا تصدر تشريعات جديدة بتأميم الثروات ولا تصدر تشريعات بتأميم الحرية ؟ .

ولكنني لست هنا في معرض صرخة تقليدية مضحكة من تلك الصرخات التي

تنادي بالدفاع عن حقوق المرأة ! ... انني هنا انادي بالدفاع عن حقوق المواطن ذكراً كان أو انثى .

قانون (ولي أمر) المرأة أذكره هنا كمثال على قوانين أخرى كثيرة هي كالزائدة الدودية الملتهبة تنخر في جسد امتنا وتحول دونها ودون النهوض على قدميها ... طالما دوت صرخاتنا مطالبة باعادة النظر في قيمنا الفكرية والادبية وفي حياتنا الثقافية وفي خططنا العسكرية ، ونسينا امراً هاماً : هو المطالبة باعادة النظر في قوانيننا القائمة كلها ...

المطلوب تجديد شباب قوانيننا .

المطلوب لجنة مختصة لإعادة النظر في القوانين التي اسقطها التطور بعد أن انتفت أسباب تشريعها ...

هنالك مثلاً قانون (الطائفية) ، الذي يعترف بـــ ١٧ طائفة في لبنان ومن لا ينتمي اليها ، فليس في لبنان قانون للأحوال المدنية يرعى شؤونه .

قانون تنظيم الاحزاب القائم هو قانون عتيق عثماني شرِّع عام ١٩١١ وظل على حاله أيام الانتداب. سُنّ يومئذ ، وما زال ، ليطبَّق على الاحزاب وعلى الجمعيات الخيرية النسائية وانظمته تسري بالتساوي عليهما (على حد تعبير الاستاذ باسم الجسر) ... المطلوب قانون جديد يفصل الأحزاب عن الجمعيات الخيرية ! .

في أعماقي صوت حزين يهتف : ... لا تطلبي تجديد شباب قوانيننا ... فكل قوانيننا شبه منقرضة ، لانها لا تطبق أصلاً ! .

١٧ / ١٢ / ١٩٧٣

الكاريكاتور : لقيط في صحافتنا !

عصرنا عصر السرعة .

الحب فيه نظرة . صفقة العمل برقية . حتى الاعدام صعقة كهربائية سريعة ، ولذا فانه عصر الكاريكاتور .

ففي الكاريكاتور تجد الحقيقة مكثفة ، وبنظرة واحدة إلى كاريكاتور ناجح تقرأ المعادل لصفحات مطولة من التحليل السياسي والشرح الاقتصادي .

الكاريكاتور هو لغة العصر .

لغة عصر السندويش والركض خلف الطائرات والطلاق بالمراسلة ...

ومن الواضح أن الصحافة الغربية تعي ذلك جيداً . فهي تعتمد الكاريكاتور لا في شرح وجهة نظرها فحسب ، بل انها تنقل الكاريكاتور من صحف أجنبية أخرى لتشرح عبرها وجهة نظر شعوب اخرى ... وكل من يطلع على صحف أجنبية مثل التايم والنيوزويك واللوموند وشتيرن والتايمز وغيرها مثلاً ، يلحظ انها باستمرار تنقل الكاريكاتور عن الصحف العربية والروسية واليابانية وغيرها ... وهذه الصحف الغربية تعتمد على الكاريكاتور لفهمنا أو لتقديم (مستمسكات) لشعوبها عن مواقفنا أكثر بكثير مما تعتمد على ترجمة مقالات كبار صحفيينا أو كتابنا(الخالدين).. ويندر أن نجد ترجمة عن مقال لصحفي عربي ، ولكن نقل الكاريكاتور عن صحفنا العربية أمر يتكرر كثيراً .. فعصرنا الراكض مثل قطار أصيب بالجنون ، لا وقت لديه لتكبد عناء ترجمة مطولاتنا ، والكاريكاتور وحده سيد الموقف ، فالصورة لغة عالمية ، وترجمة سطر موجز ما يزال أمراً مقبولاً (أروع ما في الكاريكاتور هو ذلك الاختزال المبدع . انه برقية سريعة عاجلة ، مثل برقية سفينة غارقة لا وقت لديها للثرثرة أو غير اطلاق صرخة S.O.S.) .

بالاضافة إلى ذلك ، فان الكاريكاتور يمثل في نظري عطاء كله تضحية . فالفنان

يقضي ساعات في التفكير ورسم صورة يستهلكها القارىء في ثوان ! ..
(ولكن ذلك خارج ما أود ان أقوله) ! ..

أريد أن اتساءل : هل تدري صحافتنا بأن رسامي الكاريكاتور لدينا هم وجهنا الاعلامي الحقيقي في العالم الغربي ، وهم طليعتنا ، وهم أهم من يمثلنا في صحف الأعداء والاصدقاء ؟ ..

ماذا فعلنا من أجلهم غير إرهاقهم واللامبالاة بهم ؟ .. هل نقدم لهم دورات تثقيفية ؟ معارض ؟ رحلات ؟ رواتب ؟ إجازات ؟ أم اننا نعاملهم كما لو كانوا (رسامين تزينيين) ؟ ..

١٩٦٨/٣/٢٢

أعطنا حباً يا بيروت

« سيدتي ، ماذا تفعلين لو علمت أن زوجك يخونك » ؟

كان ذلك موضوع التحقيق الذي أجرته إحدى المجلات النسائية في لبنان . موضوع تقليدي لا يلفت النظر كثيراً .

اما غير العادي ، وما يلفت النظر حقاً ، فهو ردود سيدات المجتمع البيروتي الفاضل وآنساته ..

المذهل انه كان من الممكن تلخيص الاجوبة كلها بعبارة « أتغاضى عن الأمر شرط ان يخونني زوجي سراً » وليس « على عينك يا تاجر » على حد تعبير احداهن !

وأجمعت آراء السيدات على ان المهم هو ان يستمر الزوج في أداء « واجباته المادية» نحو الزوجة ، أي ان يلتزم بشرطين « الانفاق » و « السرية » ! !

وهكذا فسيدات بيروت مع مبدأ وجود « الجرسونييرة » على ان يرافق تداولها استمرار الرجل في دفع « رشوة زوجية » هي بمثابة « أتاوة اجتماعية » ضماناً لمعاهدة « غض النظر » ! ...

أهم ما في هذه الاجوبة هي أنها تمثل تماماً واقع العلاقات الانسانية البيروتية ، داخل طبقة واحدة بورجوازية على الاقل — أم ان الامر ينسحب على ما تبقى بنسب مختلفة؟ وهي بالتالي تفتح جرحاً في قلب كل مؤمن بقيم تتضارب كلياً مع تعهير العلاقات الانسانية .

بملء فمي أقول : الزواج في بيروت مهزلة إلا فيما ندر — مهزلة ككل العلاقات الانسانية — .

الزواج في بيروت غالباً حدث يقع نتيجة لظروف اجتماعية مرتبطة مباشرة بميزان المصالح ... المصالح المادية .. المصالح الانتخابية .. المصالح العائلية .. انه زواج بين المصالح ، عقد قران بين « إمكانيات الأسر » .

كل من عاش ولو لفترة في بيروت يعرف ولا ريب نماذج كثيرة كالتي عرفت.. والتي يرفضها الجيل المثقف .. نماذج بيروتية شائعة ..

شاب ينتمي لأسرة كبيرة اقطاعياً وبالتالي انتخابياً . أحب زميلته في الجامعة (وذلك قبل ان يتشوه نهائياً) وصادقها طيلة سني دراسته في الجامعة ، ثم تركها إذ تزوج من اخرى ثرية (تزوجت مصالح اسرته من مصالح اسرتها) ، ولكنه ظل يعاشر صديقته بعد الزواج .. زوجته تعلم ، وصديقته تعلم والناس يعلمون ، لكنه يتصرف وفق قواعد حسن الجوار مع قوانين المجتمع البيروتي البالية، ويدفع الأتاوات المترتبة على ذلك من أموال الشعب المهدورة .

إنه في البداية ضحية . ولكنه مع الممارسة يتحول نهائياً إلى ركيزة من ركائز مجتمع صارت علاقاته المهلهلة والمهزوزة عرفاً وعادة ..

التطور الجديد في الموضوع هو ما أسرت به الي زوجة هذا النموذج حينما سألتها : هل انت بلا كرامة ؟ كيف ترضين بوضعك الزوجي ؟ ..

اجابت : لا . أنا ايضاً لي عشيقي . ولي (غرسونييرتي) الخاصة المستقلة ! !

إنه عصر الحريم الذري في بيروت . انه ليس عصر تعدد الزوجات . انه اسوأ من ذلك ، فهو عصر اللازوجة . اللاشريكة . اللالقاء .

ولكن لماذا ؟ ...

الحب ، ذلك الفارس النبيل الذي طالما عاش قروناً وقروناً ... ترى هل كتب على القرن العشرين أن يشهد موت الحب في الارض العربية بعد ان تم دفنه نهائياً في اوروبا ؟ ..

وهل ما نشهده في بيروت من موت الحب، هو تأثير الغرب علينا ، ومد الحضارة المادية إلى شواطئنا ؟ ..

أم ان هنالك تفسيراً آخر ؟ ...

وهل مات الحب حقاً في اوروبا ، أم ان صيغه التقليدية هي التي ماتت ؟

في اشهري الاولى في اوروبا خيل الي ان الحب اندثر فيها تماماً .

ولكن موت الحب العتيق هناك له ما يبرره . والصيغ الجديدة للعلاقات هناك لها ما يبررها ضمن إطاراتها ... على الاقل لها ما يبررها في طبيعة حياتهم ، أكثر مما — لما يدور هنا — ما يبرره ..

نعم .

يختار الرجال هناك شريكات حياتهم أحياناً عن طريق « الكومبيوتر » . يعبئون قسائم كتلك التي يعبئها طالب الوظيفة أو طالب الدخول إلى المستشفى أو المناقصات..

يذكر فيها ما هو وماذا يريد ، ويتولى العقل الآلي اختيار زوجته ... ويلعب دور (الخاطبة) .. ولكن ، أليس العقل الالكتروني الحيادي افضل من سماسرة المصالح عندنا ، فهو على الأقل يأخذ بعين الاعتبار صفات الرجل العقلية والفكرية والنفسية ... وفي ذلك ظلٌّ محبة تفتقر اليها زيجاتنا تماماً .

وفي اوروبا صار مشهداً مألوفاً ان نرى شاباً نائماً في حفلة (ستربتيز) ، فهو قد اختار الدخول لا لان المرأة تتعرى ، ولكن لانها تمطر في الخارج ! ..

إن في لامبالاته أمام جسد المرأة دليلاً على الاشباع الجسدي ... الحب القديم الذي كان يقدس المرأة ويعتبره غاية مات ... حب العصر الفيكتوري ايام كانت المرأة ملفوفة بالدانتيل والمخمل ومطويّة في أحد الادراج بينما الرجل يسعى للرزق وينفق عليها مات .. وهكذا فنوم الرجال في حفلات (الستربتيز) ولامبالاتهم عموماً بجسد المرأة ، دليل على موت الصيغ العتيقة لعلاقة المرأة بالرجل هناك لكنه لا ينفي وجود صيغ جديدة للحب تتلاءم ومجتمعهم ، مجتمع الآلة ، وتنسجم وظروف قوم نساؤه كرجاله اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ... اذن ، من الممكن ان يكون لاوروبا تفسيرها الذي يعجبنا أو لا يعجبنا ، ولكنها هي شخصياً (اوروبا) منسجمة مع نفسها ، مع مفاهيمها الجديدة وشخصيتها ...

فهل نحن منسجمون مع انفسنا ؟

مجتمعنا لم يمر بالطفرة الصناعية والسكانية إياها ، ولم يمر بحروب عالمية تهدم كل قيمة في نظرنا ، وتعيد كل فرد منا ذئباً وحيداً عارياً من أية عقيدة الا (الاستفراس) .

ضياعنا من نوع آخر ... من نوع يزيد من حاجتنا إلى الحب بدلاً من ان ينفيها ..

لقد استوردنا عيوب الحضارة المادية ولم ننعم بشيء من مزاياها ...

واصابنا وباء « اللاحب » . ليس لدينا أي بديل عن سقوط الحب القديم ولا نشهد نمواً لصيغ جديدة للحب تتلاءم وطفرة مجتمعنا المرجوة وتقدمه وظروفه السياسية الحرجة التي لا مفر من مواجهتها .. وما نشهده اليوم ما هو الا تعبير جديد وعصري عن صيغة من صيغ تخلفنا الانساني .

إذ أبكي الحب في بيروت ، فأنا لا أبكي ذلك الحب التقليدي الذي عبر عنه الشاعر بقوله :

لو مر سيف بيننا لم ندر   هل أجرى دمي أم دمك

أنا لا أبكي العناق . ابكي اللقاء الانساني . أنا لا أبكي غموض الحب وفناء العشاق

فيه واستغراقهم حتى المرض .. وانما يدهشني ان حباً ذا مفاهيم جديدة لما ينبت بعد ..

* * *

نصرخ : أعطنا حباً .

لانه بدون حب تموت حروفنا وأدمغتنا ، ويستحيل الدم في عروقنا مجرد سائل أحمر والقلب مجرد مضخة والعقل كومبيوتر آخر ، والأيام نكتة واحدة تتكرر كل صباح .

ولأنه لا حب بلا حرية ، بلا اختيار ، تتطلع عيوننا إلى بيروت الاكثر حرية من أكثر الاراضي العربية ، الأكثر انفتاحاً ونبحث عن الحب ...

٢٦ / ٧ / ١٩٦٨

لا .. يا عمي الغول !

لا . لا . لا .

حتّام يجب ان نصرخ لا ؟ .. أن تسبق صرخة الاحتجاج هذه ، كل كلمة ابداع قد نقوى على خلقها ، وتجهضها في حلوقنا ؟

في الاسبوع الماضي رغبت في كتابة بحث أدبي حول كتاب شعري رائع صدر مؤخراً ، لكنني بدلاً من نقد الكتاب وجدتني مضطرة لكتابة شيء آخر هو الدفاع عن مبدأ حرية اصدار الكتاب ! أي عن مبدأ إطلاق الحرية الفكرية — أولى بديهيات التحضر الانساني — .

وبدلا من التحليق الجمالي الابداعي مع الشاعر ، وجدتني أصرخ بملء صوتي لا . لا . وكان أن استحال مقالي إلى صرخة متوحدة : لا يا عمي الغول ، غول اغتيال الفكر العربي في مجزرة حرية الاديب ...

وهذا الاسبوع ايضاً ذهبت في جولة على مكتبات المدينة لجمع مصادر تُغني تحقيقاً أدبياً أعده ...

وُعدت بالكتب ، ببعضها ولكني عدت ايضاً بضربة سوط جديدة على بؤبؤ عيني الطامحتين في اللحاق بقافلة العصر الفكرية ، كعيني أي قارىء آخر .. فخلال جولتي فوجئت بغول آخر من غيلان التخلف يساهم في تهديد حياتنا الفكرية وافسادها . غول اسمه المكتبات العربية ! (قبلها كنت تلميذة بلندن وكانت علاقتي مقتصرة مع المكتبات الشهية هناك) ..

عدت من المكتبات هنا ببعض الكتب لكنني لن اتابع بحثي الذي اشتريتها من أجله ، فأحداث اليوم المريرة تتفجر داخـــل رأسي ، والدراسة التي كنت أنـــوي اعدادها ؟ لمن ؟ ما جدواها ؟ وما جدوى حرب الفنان مع ذاته من أجل الافضل ، اذا كان لمْ ينته بعد من حربه مع غيلان الفكر .

هذا الأسبوع أيضاً ، بدلاً من تحقيقي إياه وحديث الكتب التي للمتها لاغنائه ، أحدثكم عن المكتبات التي رحلت إلى مجاهلها لشراء الكتب !! وأصرخ لا يا عمي الغول .. لا يا مكتباتنا العربية ، يا غول اغتيال الكلمات المبدعة بالحيلولة بيننا وبينها بجهل لا يَغفر له حسن النية ...

كلنا في الهم شرق

عن المكتبات ، وسيلة القارىء إلى عالم الفكر ، أتحدث ...

واذا تصادف ان كانت جولتي في احدى العواصم العربية واسمها بيروت فقد كانت مشاهداتي حصيلة لأمراض عربية من تركة عصور التخلف في بلادنا ، وهي وحدها موزعة بالعدل والتساوي من المحيط إلى الخليج !! ... وكلنا في الهم شرق ...

مكاتب أم سوق نخاسة ؟

غادرت مكتب المجلة بحثاً عن نتاج مسرحي أميركي شهير ، هو تينيسي وليامز ، وكل ما كتب حوله أو يمت اليه بصلة ... وأنا عادة ألجأ إلى مكتبة الجامعة الأميركية في مثل هذه الظروف ، لكن الزميل الذي يعيرني اسمه وبطاقته الجامعية كان مسافراً . قررت : سأذهب إلى مكتبة السفارة البريطانية ، فهنالك أيضاً جداول منظمة وكتب مصنفة ... وذهبت ، وفوجئت بعقدة العظمة في الفكر البريطاني حينما ردت الموظفة : « ليس لدينا أي نتاج للمذكور لأنه أميركي وليس بريطانياً » ولما لم أكن بريطانية ولا أميركية وجدت انه ليس من شأني أن أعلق وتابعت الرحلة إلى (مركز كنيدي) الأميركي أباً عن جد ووجدته مغلقاً حتى الثالث من الشهر المقبل (ربما حداداً على كنيدي الثاني أو حداداً على الطقس) ... وذهبت إلى دار فرانكلين للترجمة والنشر كعادتي كلما ضاقت بي سبل المراجع ، لكن الصديقة سهام عزام اكتفت بأن أشارت إلى كوم من الكتب التي لما يتم تصنيفها بعد بسبب نقل مقر الدار .. والدكتور نجم وأنا أعرف ان مكتبته الخاصة تسيل (اللعاب الفكري) ؟ قالت مسافر ..

وهكذا ، ربما لحسن حظي ، تصادف ان سدت في وجهي جميع السبل الخاصة التي أتبعها عادة للحصول على مراجع ، بما فيها الاستعارة غير المشروعة من الأصدقاء الهاربين من الحر ..

وهكذا وجدتني للمرة الاولى مضطرة للبحث عن كتب معينة دون ان اتمتـع

« بامتيازات برجوازية » فكرية لاستعمال مكتبات جامعية اما مكتبات خاصة بحكم صداقاتي أو مكتبات (الاستعمار) التي يستوجب التردد عليها إلماماً بلغة معينة .. أي وجدتني مضطرة لسلك السبيل الذي يتوجب على ٩٩ ٪ من أفراد الشعب العربي ان يسلكونه في حال رغبتهم رغبة جادة في تثقيف أنفسهم ، اذ باستثناء المؤسسات الآنفة الذكر لا يبقى أمام القارىء سوى السوق الحرة للكتاب ...

أنا عادة احب ان اتجول في المكتبات . اقف امام رفوفها طويلاً دون ان أحدث أحداً والتقط أي كتاب يثير فضولي وأسأل عن ثمنه . هذا أقصى حوار دار قط بيني وبين صاحب مكتبة أو دافع عربة « كتب عتيقة للبيع » في تشردي .

هذه المرة كان الامر مختلفاً ، وكان وقتي ضيقاً ... اليوم سبت والساعة تكاد تقارب الواحدة الا الربع ..

لذا طرت بسرعة إلى ساحة الكابيتول اذ تذكرت أن مكتبتها الاجنبية الكبيرة جداً — أكبر مكتبة في بيروت واتجاوز اسمها — قد علقت على بابها جدولاً بمواعيد دوامها الصيفي وانها يوم السبت تفتح أبوابها حتى الثانية ظهراً .

كنت ادفع باب المكتبة في الواحدة والربع تماماً أو قبل ذلك .. صدمتني نظرة سيدة واقفة وراء الصندوق ، بدت مدهوشة جداً حينما قلت لها اية كتب أبتغي حتى ظننتني دخلت خطأ إلى (بقالية) أو صالون حلاقة نسائية .. لكن الكتب كانت على الرفوف حولي ... لم أخطىء .. ما الحكاية .. هل اخطأت في لفظ اسم الكاتب أم ماذا ؟ وقالت السيدة ، عودي الاثنين ، إننا نغلق الآن ... لم تخجلني نظرتها الساخرة . أصريت على حقي كزبون من المفروض ان تحترم المكتبة التزاماتها امامه والتي اعلنت عنها على بابها ، فقلت مشيرة إلى مواعيد العمل : اليوم هو السبت وموعد الاغلاق هو في الثانية .

ردت باستهتار عجيب كأنها ترى اللوحة للمرة الاولى ، أو كأنه يدهشها ان هنالك من يتوقع من المكتبة التزام ما ورد فيها : أجل ... هذا غالباً .. اما اليوم فستغلق مبكراً لاننا سنذهب إلى الجبل ! ! ...

ان يذهبوا إلى الجبل أو لا يذهبوا ليس من شأني ، وهو عذر شخصي تستطيع ان تقدمه لصديقتها فيما لو سألت عنها ولم تجدها . استيقظ في نفسي كل ما عشته في اوروبا أيام الدراسة من احترام الفرد كفرد وعدم الاستهتار بأوقاته فقلت : ولنفرض

انني جئت من الجبل متقيدة بمواعيدكم وتكبدت النفقـــات خصيصاً لشراء هذه الكتب ؟ ..

نفد صبرها ، وتخلصاً من مناقشتي اشارت إلى الدرج الهابط حيث قبو الكتب الكبير .. في القبو لم يكن هنالك لا بيع ولا شراء والموظفون قد تجمعوا في حلقات ، بعضهم كان يتذمر ، أظن لصاحب المكتبة أو مديرها .. مرضى .. يريدون اجازة ... ولم يلتفت أحد الي أو يسألني عن غرضي وانما انزلقت نظراتهم علي ... وبسرعة قررت انه لا شأن لي كمشترية بمتاعبهم الخاصة التي من المفروض مناقشتها خارج ساعات الدوام المعلن عنها خارجاً ، وان وقتهم الآن من حقي أنا ، وانني لن اخجل وسأطالب بحقي ... تدخلت في الحديث بأعلى صوتي ولاحظت انه ظل خافتاً ومرتجفاً وخاطبت الرجل الضخم الذي كانوا يتذمرون له : حسناً .. أليس هنالك من هو غير مريض ليبيعني ؟ بقسوة سأل : ماذا تريدين ؟ . باصرار وشراسة قلت : أريد ان اشتري كتباً .

نظروا الي جميعاً بضيق ، وبصورة خاصة الشاب الذي أشار اليه (الرئيس) طالباً منه احضار ما طلبت ، فسار امامي إلى ركن المكتبة الخاص بالمسرحيات فتبعته وبسرعة استل كتابين وقال انهما كل ما لديه ...وحاولت أن أصر على شراء ما تبقى فأصر على انها غير موجودة ، وقررت أن ابحث عن مراجع اخرى في رفوف اخرى .. كنت أعرف أن في هذه المكتبة الهائلة ما يفي بغايتي فقال انه لم يعد هنالك وقت ، وأكد ذلك مشهد القافلة المنسحبة من القبو .. وكان لا مفر من ان اغادر المكتبة ومرارة لا حد لها تأكلني ! ! ما جدوى ان تحتوي مكتبة ما عصارة الفكر العالمي اذا كانت ما تزال عاجزة عن فهم وتطبيق بديهيات احترام كرامة أي فرد مجهول وذلك بالتزامها لابسط تعهداتها : المواعيد ؟ احسست بالغربة حينما تذكرت أن قاضياً انكليزياً حكم على متجر كبير لبيع الاحذية بدفع نفقات مواصلات رجل رفضوا خدمته مع انه وصل قبل ساعة إغلاق المتجر بسبع دقائق ، هذا بالاضافة إلى تعويض كبير لانه أهين. وتذكرت حكماً آخر بالتعويض صدر بحق أحد المطاعم لانه رفض تقديم الطعام لزبون بحجة ان الزبون جاء بعد موعد الكف عن قبول زبائن جدد . حجة القاضي كانت في أن صاحب المطعم لم يعلق لافتة (مغلق) على الباب . ولأنه بذلك الاهمال قد عرّض أحد الافراد إلى إهانة حساسيته دون حق ! ! وما يتوفر هناك في المطاعم ومخازن بيع الاحذية لا يتوفر لدينا في أكبر مكتبة في مدينة من أرقى المدن العربية ! (ام انها

ليست كذلك حقاً !)

ما حدث في الساعات الثلاث التالية جعلني أجد في هذه الحادثة نوعاً من الترف في الحساسية ! ! ...

إذ خطر لي ان ابتاع احدى مسرحيات (الاخ وليامز) مترجمة إلى العربية وأمري لله ..

كنت اعرف ان هنالك من ترجمها ... في المكتبة الاولى حينما سألت عن مسرحية « عربة اسمها اللذة » لتينيسي وليامز ، لم يفهم صاحبها من كل ما قلته فيما يبدو سوى كلمة « اللذة » فقادني إلى رف للكتب الجنسية ! ! ..

في المكتبة الثانية أعجبت بصاحب المكتبة الاولى ، فقد كانت كتبه على الأقل مرتبة على الرفوف حسب موضوعاتها ! ! في الثانية بدأ صاحبها وبإصرار عجيب يدور من رف إلى رف آخر ، ويعرض علي مسرحيات شعرية عربية وزجلية وغنائية اذ فهم مني كلمة « مسرحية » ! ! .. وكل ما ضايقه هو إصراري على ان اشتري مسرحية لا رواية مثلاً ! ! . تذكرت ان هذا يحدث عادة للنساء لدى باعة (النوفوته) فقط : حينما تطلب الواحدة أحمر شفاه كريستيان ديور مثلاً ويجادلها البائع محاولاً اقناعها بشراء ماركة « كارفن » ذات اللون المشابه .. أما ان يفكر صاحب مكتبة يقرأ ويكتب (كما تدل المظاهر) باقناع مشتر من المفروض انه يقرأ ويكتب بشراء (الموجود) (وكله مسرح ما في فرق) فأمر مؤسف للقــارىء العادي ، ويمكن ان يثير جنون قارىء مثلي يدخل إلى المكتبة في خشوع مؤمن يخطو إلى محرابه ، ويصعقه ان يجده في عهدة من لا يفهم شيئاً عن الكنوز الموكلة اليه .

في المكتبة الثالثة (ترحمت) على الثانية ! اذ لم أكد الفظ اسم تينيسي وليامز (اذ صرت اخشى ذكر اسم الكتاب اياه وهو « عربة اسمها اللذة » !) حتى لاحظت أن صاحبها يرمقني كما لو كنت أسأله عن اسم حيوان منقرض من أجداد الدينا صور ! . وحينما أصريت على طلبي جدياً متجاهلة تشاغله عني ، خصوصاً وان مكتبته تحمل اسم احدى دور النشر المحترمة التي أظن أن الترجمة صدرت عنها ، حينئذ قرر ان الامر يعنيه بمــا يكفي ليعطيني رقم هاتف (معلمــه) ... وفتح دفتراً صغيراً وأشار لرقم كتب في احدى الصفحات منفرداً ، وغادرته وفكرة لا تطاق تراودني ولا أجرؤ على التحقق منها : تراه أمّي ؟ ؟ .

تمسكت بحبل حسن الظن وقررت انني أبالغ ، ثم ان كثيراً من كتابنا لم يسمع

بالاديب المذكور . وقررت ، سوف اشتري المراجع العربية الباقية التي أعرف ان ذكره ورد فيها ... وتجاوزت المكتبات المتناثرة كلها إلى مكتبة كبيرة في الساحة نفسها من الواضح انها للكتب العربية .

ليس لديهم (كتالوجات) ولا جداول باسماء الكتب .

سألت : كيف نتأكد اذن ؟

قال : بالنظر إلى الرف .

على الرف تبينت ان الكتب لا تتبع تصنيف (ديوي) للكتب وفقاً للموضوعات ولا حتى لأسماء المؤلفين ولا حتى لحجم الاغلفة أو لونها أو وزن الكتب ! ! ..

في مكتبة مجاورة قال لي الموظف ان كتاباً معيناً غير موجود بينما اعترض الثاني وارشدني إلى سلم المخزن وتركتهما يتشاجران وهبطت وحدي إلى القبو ووجدت الكتاب صدفة في الرف الوحيد الذي فتش موظف فيه وأكد انه غير موجود هناك .

خُيِّل الي انني في عالم لا يعترف بان هنالك كتباً تستحق القراءة والبيع إلا الكتب المدرسية المقررة وكل شيء آخر هو من باب المزاج والصدفة (وكثرة غلبة) القارىء وحذلقته ! ! ...

وحينما خرجت ورأيت بسطات الكتب مكومة على الارض حزنت كثيراً . باعتها يتلهون بلعب الضامة ومغازلة المارات . تذكرت الدموع في عيني شاب في شارع بورتوبيللو في لندن اضطر لبيع كتبه الحبيبة إلى قلبه ...

احسستني في سوق للنخاسة وأمنيتي هي الهرب ، وبعد ان كنت أشعر بما يشبه تأنيب الضمير لدى دخولي إلى أي مركز ثقافي اجنبي لاعتقادي انه بطريقة ما يجعل من الكتب مصيدة صرت انتظر بفارغ الصبر حلول يوم الاثنين وموعد فتح قاعاتها وجداولها المرتبة ...

صيادلة الفكر ... اميون ...

لا يباح للصيدلي ان يبيع الدواء للمواطن الا بعد ان يتعلم ما يكفي ليعرف ماذا يبيع . لماذا ؟ لأن الدواء اذا اسيء استعماله انقلب إلى سم . ولان أي خطأ قد يؤدي إلى هدر جسد مواطن ما ...

المفهوم الخاطىء للبائع في المكتبة تغير . انه ليس مجرد (بقال كتب) ، ولا سمسار ورق مطبوع ، المفروض انه يعرف ماذا يبيع وانه بهذه المعرفة لا يحافظ على

كرامة الكتاب فحسب ، بل انه يساهم مساهمة فعالة في تثقيف الوافدين الجدد الذين لا يميزون بين الأبجدية كعلاج والأبجدية ك « سم » .

لم يعد البائع في مكتبة مجرد انسان سلبي لا علاقة له بالكتب الا بقدر علاقته مع رفوفها لحظة نفض الغبار عنهما معاً ... ولم تعد المكتبة كجراب الحاوي ، نظرية اينشتاين تجاورها روايات الجيب .. في العالم شيء اسمه جداول ، وتصنيف ، هذا إن لم أقل بائعاً قرأ ما يكفي لأن لا تحس بالغربة حينما تسأله عن كتاب ما ... ولا بالبؤس والحزن من أجل عشرات قطعان الكتب التي لا تمثل لباعتها الا ما يمثله الخروف للجزار ، تباع وتشرى بالطريقة نفسها وهي في نظرك درب الخلاص الاولى لأمتك ...

ثم ، أليس مؤسفاً أننا نجد أساليب البيع « السوبر مودرن » مطبقة في كل مجال ، الا في مجال إيصال الفكر إلى الناس عبر مكتبة آخر ما فيها يجب ان يكون عملية البيع والشراء ؟ .. أليس مؤسفاً أن يجد الشاب في بيروت فتاة (مانيكوريست) تقلم اظافره وتصبغها بالطلاء بينما تعني اخرى برأسه تحت (السشوار) ولا يجد صاحب مكتبة واحداً يقول له وهو يناوله أحد الكتب بينما عينيه تلتمعان جذلاً : انه كتابي المفضل يا أخي .. أو يناديك وانت تعبر الرصيف أمامه ويهمس في أذنك في بوح حميم : وصلني اليوم كتاب أدبي مذهل ... هل سمعت به ؟ ...

أين المكاتب الوطنية غير الأثرية ؟

وبعد ، ليس بالمدن الحديثة كلها مدناً عدد مطاعمها يفوق مكتباتها بما لا يقارن إلا في أغلب مدننا العربية ..

المفروض ان كل حي يضم مكتبة عامة رسمية ، لانك إذا كنت حينما تفتح مدرسة تغلق سجناً ، فأنت حينما تفتح مكتبة عامة حقيقية تغلق احتمال الجريمة حتى لدى الذين تجاوزت أعمارهم سن الدراسة أو حرمتهم ظروفهم منها ...

في بلادنا المكتبة الوطنية الرسمية كلمة مرادفة لمتحف الكتب !

ولهذا ، نجد ألا مفر من الاقبال على المراكز الثقافية الاجنبية رغم بقية نشاطاتها وفخوخها . ففي كتبها الرائعة العظيمة التي تروي غليلنا ما يجعلنا راضين بأكل الطعم على أمل ان ننجو من ابتلاع الصنارة ! ...

ترى من ينقذ الكتاب من بعض تجاره وسماسرته الذين يبيعون انسانيتنا كما يبيعون إنسانية الكتاب ... بجهل واستخفاف ...

متى تعلو صرخات لا .. « لا يا عمي الغول » لا من افواه الاطفال فحسب اثناء ممارستهم لتلك اللعبة البريئة ، وانما من أفواه الكبار العاملين في حقل الفكر المستسلمين لأكثر من غول يحول بينهم وبين وصول ينابيع الفكر إلى عطش أدمغتهم ..

متى يصرخون جميعاً ويتعلمون الرفض العلني من الاطفال : لا يا عمي الغول ...

متى يفهمون ان غول الاسطورة الذي حبس عن أهل القرية الماء النقي لم يعد يُقتل بجهدِ فردٍ بطل يحمل اعباء اتكالية الجميع ... وانه يجب ان يكون للبطل العربي المعاصر مئة مليون حنجرة تصدح : لا يا عمي الغول ...

وتضرب ...

١٩٧٣/١/٥

أأنا العاشق الوحيد ؟

حينما تسير للمرة الاولى في منطقة شارع الحمراء (قلب بيروت الحديثة) ، تتوهم انك في مدينة معاصرة في القرن العشرين .

فعلى جانبي الطريق تقوم أبنية ضخمة مبطنة بالالمنيوم البراق والزجاج البني ، وتمتد تحت الارض طوابق عديدة فيها محطات لايقاف السيارات ودور سينما وتعلو فوق الارض مقاه للارصفة وسفارات ومراكز تجارية وبنوك ومكاتب ... وكل ذلك في بناء واحد أسوة بالمدن الكبيرة ... كل شيء رتبه مهندس البناء العبقري لتوفير الوقت واللحاق بمتطلبات العصر . هذا من حيث المبدأ ، ولكن ...

تعال معي ندخل إلى أحد هذه الابنية الكبيرة لإنجاز معاملة في أحد مكاتبها مثلاً أو شراء حاجة من مخازنها كما فعلت قبل ساعات .

في الكاراج حيث اندفعت بسيارتي لم أجد من يستلمها مني ، وكان الكاراج الحلزوني المبني بالاسمنت خالياً من البشر مثل صحراء والسيارات تناثرت فيه بفوضى مثالية بعرقلتها للسير ... وأخيراً جاء موظف الكاراج وتثاءب عدة مرات في وجهي مؤنباً ! ...

أخذت المصعد النزق الذي كاد بابه يطبق علي كفخ الفئران . (ما جدوى أن يهرول المصعد هكذا اذا كنا سنهدر الوقت خارجه) ؟ ...

باب (المكتب) زجاجي أوتوماتيكي ، يفتح وحده عند اقترابك منه . دخلت . تهت ما يزيد عن الساعة بين الموظفين محاولة كسر تقاليد اللامسؤولية وروتين اللامبالاة المعشِشة داخل رؤوسهم (وكانت غرفهم مزينة بلوحات سيريالية مودرن ، والتدفئة المركزية تهيء لهم جواً ممتعاً للنوم ، وأضواء النيون عبثاً تدمغ البناء بعصر الكهرباء) ، فسلوك الجميع في العمل والتعامل كان ما يزال في مرحلة أيام (سفر برلك) ...

دخلت إلى أحد المخازن في المبنى . كانت الاساليب العتيقة للبيع والشراء والعرض ما تزال معتمدة ، ورغم الديكور العصري والبضاعة (المودرن) أحسستني في أحد الاسواق المسقوفة الضيقة الأزقة أو الخانات الاثرية (كانت لها أصالتها على الاقل يومئذ) ... بعد مروري بعدة مكاتب ومخازن ، أحسست بالتناقض الصارخ بين مواد البناء العصرية و (مواده) الانسانية المتخلفة ... تناقض مروع بين الشكل والمحتوى ... تناقض بين الديكور والسلوك الذي يدور وسط الديكور ... أحسست اننا جميعاً داخل هذه الابنية مثل ممثلين رديئين جيء بهم من قرى نائية وعصور غابرة لتمثيل فيلم عصري داخل ديكور عصري وهم لما يحفظوا أدوارهم بعد .

هربت إلى مقهى الرصيف في الطابق الارضي للبناء ، واسمه مشتق من عصر السرعة .

ديكوره يذكر بغواصة ذرية .

جدرانه من المعدن البراق (ستينلس ستيل) تذكر بكبسولات عصر الفضاء . مقاعده من البلاستيك الشفاف . الموسيقى النزقة المتوترة تتسلق الاضاءة الحديثة غير المباشرة التي تشع من الجدران كذرات الضياء الكونية ...

ولكن ما جدوى أن نستورد الصاروخ اذا كنا سنمارس داخله (تنبلتنا) وترهلنا النفسي وهدرنا المذهل للزمن ؟ ...

« فالجرسون » ما يزال يتحرك ببطء . يستمع اليك متململاً كما لو انك أيقظته من النوم للتو ! ... واذا طلبت قهوة (اكسبريس) التي من المفروض انها كما يدل اسمها معدة سلفاً ، تدب الفوضى في المكان كأنهم باشروا زرع نبتة البن للتو .

لمن هذا الديكور العصري الفضائي اذا كنا ما نزال نعيش بداخله كما في كهف العصر الحجري ؟ ...

أسبوع واحد في بيروت ، تصير بعده قانعاً بأن بيروت امرأة عصرية المظهر اثرية الجوهر ... والتخلف العربي فيها يصفعك ويغيظك أكثر منه في أي مكان آخر ، لانه يرتدي أقنعة العصر ويخدعك بقدر ما يخدع ذاته ... فاستيراد الحضارة — للأسف — يختلف عن صنع الحضارة . صانع السيارة مثلاً يمتلك القيم الاخلاقية والانسانية التي رافقت عملية اختراع السيارة وصنعها . ونحن نستورد السيارة لا المستوى الانساني الذي قاد إلى صنعها ... ونحن لذلك نعامل السيارة كالدابة ... والمقهى كالمحششة .

والمكتب المكيف الهواء كخيمة للانشراح.

وسلالمنا الاوتوماتيكية المتحركة لا تتحرك إلا نحو الاسفل ! ...

في الكاراج وجدت الموظف قد عاد إلى النوم ... غلى رأسي بهذه الافكار كلها ، وحاولت ايقاظه لاستلام سيارتي ثم ارتميت على المقعد إلى جانبه وقررت أن أنام ! ...

(أأنا العاشق الوحيد لتُلقى تبعات الهوى على كتفي) ؟

١ / ١٠ / ١٩٧١

زواج على الطريقة الصينية

قال لي بلؤمه المعهود : عذراً ... نسيت ان اهنئك بزواجك ... ارجو ان تتقبلي الآن تهنئتي ولو أنها جاءت متأخرة عامين . وقلت له بلؤمي غير المعهود : بل جاءت تهنئتك مبكرة ١٨ سنة . أنا مثل أهل بعض المقاطعات الصينية ، حيث لا يهنئون الزوجين بزواجهما إلا بعد مضي ٢٠ سنة عليه ، وأنا مثلهم لا اؤمن بأن الزوجين يستحقان التهنئة بزواجهما إلا بعد ان يتم حقاً ، أي بعد ان تمر عليه ٢٠ سنة من الزمالة الانسانية الحقيقية ...

ما رأي العرسان الجدد بذلك ، اولئك الذين يرتدون ثيابهم التقليدية ويتلقون التهاني التقليدية قبل ان يستحقوها بعشرين عاماً دونما خجل أو حرج ؟ ! ...

٢٦ / ١ / ١٩٦٨

أديبة تودع التلفزيون

المكان : مبنى القنال ٧ في تلة الخياط .

الزمان : الساعة ٩ مساء الخميس ١٨ كانون الثاني ١٩٦٨ .

فصل ما : فتاة ، تغادر الاستديو رغم ان النور الاحمر مضاء ، وتتجه نحو الباب الخارجي بسرعة . يلحق بها مقدم لأحد البرامج ويعترضها: لا تستطيعين الذهاب الآن . هذا مستحيل . البرنامج على الهواء . بعد دقيقتين المقابلة معك . مستحيل . ترد باصرار : لن أظهر (واقفة) . وفي هذا الديكور . لم تقولوا لي ذلك من قبل . لست عارضة ازياء . انا كاتبة .

يكرر : « مستحيل . المخرج اعد المشهد لتلوين البرنامج » ... لم تفهم ما علاقتها بتلوين البرنامج . كانت تتوهم ان هنالك من يهمه حقاً ان يستمع اليها . لكنها ادركت انها ارتبطت بوعد . وانها مسؤولة ولا تستطيع التراجع هذه المرة .. هذه المرة فقط ...

وهكذا ، وبعد دقيقة كانت تقف في الدائرة التي رسمها المخرج على الارض بالطباشير البيض ، وخلفها ديكور بستان ، وجاءت صديقتها مقدمة البرنامج (تتمشى) يرافقها زميل آخر .. وتساءلت : لماذا (رشوة) البستان والمفروض ان الحديث ادبي؟.. ومن هو الشخص الآخر الذي يرافقها ...

لكن الشخص الآخر تولى توجيه السؤال . وفكرت . المفروض انها تمثل دور التي تتمشى في البستان ! وتلتقي بالاصدقاء ! وعليها ان ترد كما يرد الناس على اسئلة الذين يلتقون بهم صدفة .. أحزنها ذلك . فهي لم تتكبد عناء الذهاب إلى التلفزيون لترد على اسئلة لا يُسمح لها بأن تجلس وتفكر بالرد عليها ... اسئلة من النوع الذي يمكن لسواها ان يرد عليها ربما أفضل بكثير منها .. شعرت بأنها محرك طائرة نفاثة يشدونه إلى طائرة اطفال ورقية .. خرجت وهي تحس بأن هنالك خطأ ما ... ربما كان عليها ان تشترط زمن المقابلة .. وتطلب كتابة الاسئلة (تكره ذلك عادة وتحب ان تتصف

المقابلة التلفزيونية بالذات بالعفوية ولكن لا بالابتذال) . كان عليها ان تذكر لهم أيضاً انها ترفض الوقوف في المقابلات الادبية كما لو كانت تغني ...

أحزنها ذلك . اذ ان كل ما تعرفه هو انها كاتبة لا تاجرة . وان هذه التفاصيل كلها لا تخطر لها ببال . وهي ايضاً لا تستطيع ان تفهم لماذا يمكن ان يؤذيها أحد عمداً أو دون قصد .. كان من واجبها ان لا تضع نفسها في مكان تجهله ! ...

وتذكرت ذلك الشيء الرائع في البلاد الغربية والذي يدعى agent أي وكيل اعمال الاديب .. لكل اديب ناشىء أو كبير هناك وكيل يتولى أمور اطلالته على الناس ، ويتولى حماية الكاتب (الطيب والساذج عادة) من الاستغلال المقصود أو غير المقصود الذي يسيء إلى اسمه مقابل نسبة مئوية يتقاضاها من ارباحه ... وقررت ان تقطع على نفسها عهداً . « لن اظهر على شاشة التلفزيون ما حييت لأنني لن أسمح لمؤسسة لا تحترم الفكر بتدنيس ما أقدسه . وداعاً إلى الأبد أيها التلفزيون العربي . لن أغامر ثانية في هذا المجال » .

أروي هذه الحكاية لانه تصادف ان كنت انا هذه الفتاة .

ولانها ، ببساطة أعترف ، حزت في نفسي ... ولو لم اقدم الترضيات لنفسي بمقاطعة التلفزيون لقتلني الغم !

٩ / ١ / ١٩٦٧

قرى أدب بلا مواصلات

أديبنا العربي كائن مغرور ومظلوم .. فهو يعيش – حتى الآن – في قرية بلا مواصلات وتبادلات ادبية مع بقية (قرى الادب العربي) الأخرى ، وأما (البريد الثقافي) من العالم الغربي فيصلها بعد قرن أو أكثر إلا إذا تصادف ان تمت ترجمة نتاج ما – الترجمات غالباً يراعى فيها اولا الربح التجاري – وهو بذلك شبه معزول عن التيارات الادبية المعاصرة الجادة وقاصر عن التفاعل معها أخذاً أو عطاء ..

اسرائيل فازت بجائزة نوبل . طبعاً حمل الخبر إلى قرى الأدب ، وكعادتنا اكتفينا بالصراخ .. صرخنا مؤامرة . مؤامرة . مؤامرة . ثم ، كعادتنا بدأنا ننسى . لم يتحرك مسؤول واحد للبحث عن كيفية التعاون مع الاديب لمواجهة هذه الحرب الفكرية التي لم نكرس لها عسكرياً واحداً في غمرة تسلحنا المادي ضد اسرائيل .

كعادتنا خدّرنا الهزيمة بالعويل ، وتلهينا عن القول الموضوعي والمجابهة العملية بصب جام الاتهامات . اننا نجابه العالم الخارجي كما يجابهه اولئك المصابون بعقدة الاضطهاد ، الامر الذي يهون مهمة اسرائيل في اقناع من لم يقتنع بعد بأننا شعوب متخلفة مهزوزة معقدة .

كعادتنا ، اكتفينا من الضربة بتسجيلها في مفكرة نكباتنا كي لا يفوتنا تدبيج مقال في الذكرى السنوية ..

كعادتنا ، تجاهلنا كل نظرة موضوعية استطاع ان يسطرها انسان تصادف أنه بعيد عن قرية ادبنا المشغولة بتفاهات نجومها ومهاتراتها ويومياتهم، كتلك التي كتبها مراسل إحدى مجلاتنا في السويد الاستاذ سمير بوتاني بعد مقابلته لاحد اعضاء لجنة الجائزة ، والتي ركز فيها على جهلنا التام بما يدور لديهم وعزلتنا عن الفكر العالمي وبالتالي عجزنا عن فتح حوار معهم أو ايصال صوتنا اليهم ..

كعادتنا ، لم نعدّ اية دراسة موضوعية ، ولم نتساءل : لم وصل صوت عجنون

اليهم ولم يصل صوت أي اديب عربي آخر ؟ .. وكيف ؟ .. ما مدى مسؤولية الأديب؟ والدولة ؟ ..

ان كتب ذلك الاسرائيلي الفائز بجائزة نوبل ، تمت ترجمتها عن طريق دار (شوكن) في نيويورك ، وهي دار مهمتها ترجمة الاعمال الصهيونية وتقديمها إلى العالم عبر هذه الدار .

أديبنا العربي ، من يترجم له ؟ .. من يختار ما يستحق حقاً ان يترجم ؟ وهل لدينا لجنة تملك من الحس الثقافي ما يؤهلها لاختيار اعمال قادرة على اقناع العقلية الغربية وتقديم مضمون فكري لها لا مجرد — نماذج فولكلورية — ؟ ..

الواقع ان عدم التسليم (بحرية الكلمة) هو سبب اساسي يحول دون تبني الدولة للكتاب الثائرين والصريحين — ان لم اقل اضطهادهم — وبالتالي إلى تشجيعها بصورة مباشرة وغير مباشرة للمستزلمين و المتقعرين لفظياً — (حيث لا مضمون فكرياً يخشونه) — ولمدعي الحياد ومذهب الفن للفن — (الاديب العربي الحقيقي في هذه المرحلة الحاسمة لا يمكن ان يكون بلا موقف وبالتالي فالحياد صورة اخرى من صور الاستزلام) ..

اذن فتبنّي الدولة مقتصر على هذه الفئات ، ولكنهم على اية حال لا يحسدون على هذه النعمة ، لأنها أيضاً لا تصنع الكثير من اجلهم وهي بهذا (عادلة) تساويهم بالمنبوذين..

فالواقع ان الدول العربية قلما تفكر بهذا الامر .. انها فخورة جداً بمن يتصادف ان ينبغ في الخارج من ابنائها ويشتهر ، ولكنها قلما تدرك ان الصدفة لم تعد من اسلحة العصر الحديث .. وان الاديب ليس مؤسسة ولا موظف علاقات عامة لفنه ، ومهمته ان يكتب ، لا ان يحمل وجهاً مزيف الابتسامات الى حفلات الكوكتيل في السفارات لتتم ترجمة بعض اعماله عن طريقها ..

بل ان الأديب الحقيقي ، يرفض ذلك ويعجز عنه ، وهكذا نجد ان أكثر ما يترجم عن طريق السفارات هو من حصيلة (العلاقات العامة) ولاسباب فولكلورية بحتة لا على اسس انسانية أو عالمية متوافرة في العمل الادبي بذاته .. وهكذا يتم عزل الاديب الاصيل عن الحوقة العالمية وبالتالي لا تتاح له الفرصة لمواجهة التحدي ومعرفة قيمته الحقيقية بالنسبة اليها ..

وهكذا نعيش في قرى أدبنا السعيدة المعزولة عن بعضها بعضاً وعن العالم .. ويتمزق في غلالات الاضواء والشهرة المزيفة كل اديب حرمته اقداره من متعة الغرور، وقصر بصر المصابين بعقدة العظمة أو ضيق افق الراضين بالاستزلام ..

وهكذا تمر الايام بنا ، نحن الأدباء العرب السعداء والتعساء في قرانا المنعزلة ، نتمتع بتلك الصفة التي يعرف بها علماء تاريخ الشعوب البدائية :

« يظنون انهم وحدهم على هذه الارض .. وحدهم لهم آدابهم وأغانيهم ودياناتهم وخلف الجبل الملاصق لكهوفهم وخيامهم لا توجد قرى اخرى لها حضاراتها ودياناتها وفنانوها » ...

ثم ماذا ؟ ..

ثم حفلات كوكتيل للأدب .. ونسمع ضجيجاً ولا نرى طحيناً .

١٩٦٦/١٢/٢٦

من بعض هذا الوباء !

قالوا : فضيحة . راتنسكي الفائز بجائزة ٤٠ ألف ليرة في مباراة تزيين لبنان بالانصاب نقل تمثاله عن تمثال (جونغهانز) القابع في كلية بوت في مدينة دوسلدورف. فضيحة . فضيحة .

قالوا : لا . بريء . لا يمكن تجريم فنان بناء على صورة مشوشة .. ثم ان ذلك يتضمن إهانة غير مباشرة لرئيس قسم الفنون في الاونسكو .. فضيحة . فضيحة .

قالوا : اللجنة جاهلة . ساقطة تحت تأثير أزمـــة التقليد الاعمى لمدارس الغرب . اختارت الانصاب التجريدية فقط . نريد شيئاً مفهوماً يحمل طابعنا الوطني . فضيحة .

قالوا : الأمر أخطر من مجرد الجهل . إنها مؤامرة على الفن والثقافة في لبنان ، وتكريس لأزمة القبح التي يعانيها الفن الحديث الهجين ، المبحر بعيداً عن جذورنا العربية ... فضيحة ... فضيحة ...

الامر الوحيد الذي أجمعت الآراء عليه هو ان في الحادثة « فضيحة » .. وان هنالك « مسئول » عنها .. وان في الامر « خطأ » يجب تصحيحه ...

اقول : لا .. ليست فضيحة .. الفضيحة في أن لا يقع ما وقع قبل الآن ! .. بالضبط ، الفضيحة كان من الممكن ان تكون في تأخر وقوع هذه الضجة ، هذا الحوار المباشر المفتوح ، هذا الاتهام الصريح ، وبالتالي بدء تكوين مفاهيم واكتشاف الحاجة إلى مواقف من قضايانا الفنية كلها ...

ليست فضيحة ... انها الحادث المباشر الذي عرى لنا جانباً من حياتنا الفكرية والفنية المهلهلة ... ليست فضيحة ، انها الشاشة التي ارتسم واقعنا الفكري والفني عليها بتناقضاته وتميعه واهترائه ومساوئه ..

الفنانون يعبرون عن سخطهم على اللجنة . كيف يرضون بالاشتراك في مسابقة لا يعرفون مسبقاً افراد اللجنة التحكيمية فيها ؟ .. اين كبرياء الفنان ، وكيف يرضى

بامتهان إبداعه ، حينما يُرمى به بين ايدي محكمين مجهولين ؟ .. لا أعتقد ان اغراء الـ ٤٠ ألف ليرة دعاهم للسكوت في البداية ، كما لا أعتقد ان احتجاجهم هو من نوع تذمر الفاشلين وحسدهم ...

الأمر أخطر من ذلك ... انه مواجهتهم لأحد امراضنا الفكرية المتفشية في موضوع « الجوائز » في جميع المجالات ..

والأمر يشمل موضوع الجوائز الادبية والفكرية ...

دوماً يعلنون عن الجوائز . عن شروط المسابقة (وهي غالباً غامضة ومطاطة) ولا يعلنون عن لجنة التحكيم كما لو ان هذا الامر خارج اختصاص الفنان ... انهم يفكرون بمنحه الجائزة ، والفنان يريدها مع الكرامة ، ويريدها من يد تستحق ان تقيم له عمله ... وهنالك دوماً فرق بين (الموظف المختص الاداري) و (الفنان) .. لم يرتسم هذا وحده على شاشة هذه (الحادثة) بل ان قضايا اخرى كثيرة طرحت على صعيد النقاش : مشكلاتنا الفنية المحلية ، وموقفنا من الفن العالمي .. وكشفت لنا بالتالي عن تميع المفاهيم لدينا وافتقارنا إلى الموقف الواضح ... يقولون : شروط المسابقة لم تكن واضحة ...

اذن ، حتى اليوم ، ليست لدينا فكرة قاطعة عن (كيفية) تزيين مدننا .. كل ما نعرفه هو اننا نريد (تزيينها) ! ! ..

انها ليست فضيحة ، الا اذا كانت مواجهة الذات بالحقيقة فضيحة .. ربما كان التأخر في هذه المواجهة هو الفضيحة ..

« المسؤول » ؟ ..

نحن جميعاً ... لاننا الآن فقط اكتشفنا افتقارنا إلى اللغة الفنية المشتركة ، إلى الحوار ، إلى تحديد المفاهيم ، إلى المواقف الواضحة القاطعة ... وما حدث ، أياً كانت وجهات النظر ، ليس إلا نتيجة لهذه الامور كلها ..

وبعد :

إن كان راتنسكي قد قلد حقاً ، فذلك يدل على مدى ثقته بجهل اللجنة ، الأمر الذي أجمع عليه بقية الفنانين بعد إعلان النتائج ! .

« تصحيح الخطأ » ؟ ..

شبعنا من مسرحيات « أكباش الفداء » ..

شبعنا من دور البدائيين الذين يغرسون دبابيسهم في « الدمى الضحايا » التي يرمزون

بها إلى الشرور — الشرور المشتركة — ويدعون أنهم في تجريحها بدبابيسهم وقتلها قد قتلوا شرورهم .

هذه المرة ، ليغرس كل منا دبوسه في أعماقه ..

إن ما يدور هو من بعض الوباء الكبير .

٢١ / ١١ / ١٩٦٦

شتمني فقال : أنت مثقفة

يوم التقينا لاول مرة سألني :

— اسمك ؟

— ما الفرق ؟ سمني ما شئت .

— اسمك ؟

— ليس من صنعي . من اختيار أبوي وتسجيل دائرة الاحصاء . اريد ان امنحك حقيقتي . فليكن لي اسم نختاره معاً .

— كم عمرك ؟

— النفسي أم الزمني ؟

— اين ولدت ؟

— لم اولد بعد .. خيل الي ذلك عدة مرات ..

تململ .

شتمني بقسوة اذ قال لي : انت مثقفة ! ! ..

١٩٦٦/٩/٢٦

لم يتبدلوا !

اذن ما زالوا ينظرون الينا بالطريقة نفسها ..

هم السادة ، ونحن خلقنا لنكون عبيداً ، نسكب خيراتنا في معدهم ، ونحرق احشاءنا في (غلايينهم) ..

هيو توماس ، المؤرخ البريطاني واستاذ الجامعة ، كتب سلسلة مقالات حول (مذلة) بريطانيـــا وهزيمتها في قناة السويس ، واعتبرها بداية فقد الامبراطورية (لمجدها) وتحسر لان ايدن لم يكن أكثر قوة (وحزما) في دفع (الاهانة) التاريخية

هذا كل ما استطاع ان يراه المؤرخ الكبير ! ...

تراه كان يكتب الشيء نفسه لو ان (قناة) المانش تعرضت لعدوان ما ؟ ...

انه ضد الهزيمة ، لا ضد العدوان ...

العدوان في نظره ان يسرق الناس حقوقهم من بين اسنان (الاسد) العجوز ، اذ لا حق لاحد في (حقه) إلا ّهم !...

انها العقلية الاستعمارية نفسها ، التي جعلت بلفور يمنح نفسه حق التصرف بارض ليست له ، (فمنح) وعده الشهير بارض فلسطين ، وكسا جسد اساطير (يهوذا) المهترىء بصك سياسي ، واعتراف رسمي ...

ترى ما رأي هيو لو أننا أقطعنا الهنود الحمر مقاطعة لانكشاير بموجب وعد من وزير خارجية احدى البلاد العربية مثلا ؟ ...

انهم لم يتبدلوا . ولن ، ما داموا يؤرخون لاجيالهم الصاعدة من هذه الزاوية ... والتطور لديهم لم يتعد السيقان في (الميني جوب) .. اما رؤوسهم فما زالت — في حال استعمالها — غارقة في ابخرة الغطرسة وتجاهل ملايين البشر الآخرين في حقولهم وجبالهم ومزارعهم ...

وبعد ...
من بلفور إلى هيوتوماس لم يتبدل شيء سوى حجم اراضي الامبراطورية ...
اما العقلية فما زالت واحدة .. والحوار مستحيل ..
اما آن الاوان لنبدل نحن اسلوبنا في مخاطبتهم ؟ .

٢٩ / ٨ / ١٩٦٦

درس في الأدب !

محكمة من نوع خاص ، تلك التي اعلن عن تشكيلها الفيلسوف البريطاني برتراند راسل ...

ليست لها قاعة ، ولا مقاعد ، ولا حراس ، ولا حاجب ...

انها محكمة بلا مقر ، بلا (مكان) ... ويمكن ان تنعقد داخل ضمير أي انسان حر ...

وجمهورها ليس متفرجاً حيادياً بقدر ما لرأيه من اهمية في اصدار الحكم .. ومن المطلوب منه ان يتحمس ويتدخل ولن يأمر القاضي باخراجه ..

أما المتهم الرئيسي . فلن يقتاده أحد إلى حضرة المحكمة مغلولاً ، وانما سيظل متربعاً على كرسي رئاسة جمهورية الولايات المتحدة .. وكذلك بقية المتهمين الكبار واركان حكوماتهم ، سيتابعون اعمالهم ، وحتى بعد ان يصدر الحكم بادانتهم ! ....

رئيس المحكمة برتراند راسل . ويشاركه في الرئاسة جمهورها ... من مثقفين وادباء وفنانين .

والجريمة التي سيناقشونها هي مجزرة لما تتوقف حتى الآن ... وقتلاها ما زالوا يتساقطون واحداً بعد الآخر في مهزلة تواطؤ جماعي على العدوان اسمه هذه المرة : حرب فيتنام ...

ان المفكر هذه المرة يمارس سلطته الحقيقية ... يشكل محكمته المنفصلة عن المكان والزمان والتي تتجاوز حدودهما إلى الاجيال وتتسع للانسانية ..

انه هو الذي يحاكم الدولة ، وليست هي التي تحاكمه ..

ولانه ليس اداة في يدها ، وتفكيره ما زال حراً ومنفصلاً عن أوامرها الادارية أو قرارات مجالس وزرائها ، فانه قادر على ان ينقذ سمعة بلاده حينما تجرها المعادلات السياسية إلى اتخاذ تدابير تتناقض مع الانسانية ...

وحينما تصدر الدولة اوامرها ، فمن واجب الجندي ان يطيع بلا مناقشة.. إنّه من هذه الزاوية كالموظف ، مطلوب منه ان ينفـــذ ، لا أن يخطط أو يناقش .. وذلك في صلب طبيعة عمله ... المفكر فقط هو الذي يناقش طبيعة هذه الاوامـــر ومدلولاتها ... وفي هذه الحرية تكمن قيمته الحقيقية ...

وهذه ليست اول مرة يمدنا الغرب فيها بمثال يحتذى ويذكرنا بالدور الحقيقي للاديب ، الدور الذي لا يمارسه ادباؤنا العرب لسبب أو لآخر ... فدور سارتـــر والمفكرين الفرنسيين ، وموقفهم من الحرب الجزائرية لما يغرب عن الاذهان ، وهم لما اتخذوا موقفهم غير المنسجم مع الاوامر الادارية والعسكرية لدولتهم ، لم تحاكمهم الدولة وانما تأثرت بمحاكمتهم لها ، فربحتهم ولم يخسروها ...

وبعد ايام حينما يعقد برتراند راسل محكمته ، لا نملك نحن الا التساؤل اين الفكر لدينا ؟ .. وما دوره في هذه المرحلة المتشابكة من القضايا والمعضلات التي يمر بها جيلنا..

واذا عقدنا محكمة .. من ندين ؟ ...

ذلك الاديب الهارب من مسؤوليته لسبب أو لآخر ؟ ..

أم تلك السلطة التي حكمت عليه بالهرب من مسؤوليته حينما (عطلته) اجبارياً عن ممارستها ؟ ...

أليست مشكلتنا كلها هي سوء فهم كُلٍّ من الطرفين لمهمته الحقيقية ؟

١٩٦٦/٨/١

مشانق .. الخيبة !

المشانق في الشوارع

نصب الاهالي المشانق الرمزية في شوارع عاصمة البرازيل ، لأن فريقها في كرة القدم خذلها . وانهزم !

مشانق رمزية . لن تتدلى من حبالها أجساد هامدة ، ولكن ، هل من الضروري ان يكون هنالك حبل وكفن كي يكون هناك اعدام ؟

إنه اعدام معنوي . إعدام مستمر متكرر . أنشوطة في عيني كل مواطن مخذول ، تلتف حول عنق خاذله كلما التقت نظراتهما ...

إعدام معنوي ولكن ، بأي حق ؟ .. وبموجب أي قانون اخـــلاقي يدانون ؟ يدانون بحب الناس لهم وثقتهم بهم ...

المشانق الرمزية في الشوارع ....

أسلوب معنوي عادل لعقاب المستهترين بالمسؤوليات ، وربما كنا في وطننا العربي أكثر حاجة اليه من البرازيل ...

فاذا كان (فريق) كرة قدم قد خيب البرازيل ، رغم استبسال لاعبيه الذين (صح منهم العزم والدهر أبى) ففي وطننا العربي (فريق) آخر كبير من ساستنا ومفكرينا وآبائنا الروحيين جعلوا من آمال جيلنا (كرة) لا يسددونها إلا إلى (مرمى) مصالحهم الشخصية الانانية ، فخيبوا جيلنا حتى الفجيعة ..

صيروا من جيلنا « جيل الخيبة » ...

الخيبة على كل صعيد ، وفي المجالات كافة .. يبدأ المواطن حياته بأكداس من المثل العليا والمقدسات والاهداف الكبيرة ، ويحس انه كبير بها ، يستطيع ان يحارب العالم كله .. ويوماً بعد يوم تتقلص هذه المقدسات .. خيبة بعد خيبة .. وتتقلب إلى حقد ..

في اعماق كل منا أكثر من وثن خيبة ، أكثر من مسؤول كللناه بشوك الثقة فهرب من صليبها وطاف بنا يجبي ولاءنا ! ..

فلننصب لهم مشانق رمزية في الشوارع ، ولننصب لمئات الاعوام الأخيرة في تاريخنا مشنقة ، ولينصب كل منا داخل داره أو داخل ضميره مشنقة . فكلنا أيضاً مجرم بطريقة ما . كلنا متواطىء على التجاهل .

ففي الوقت الذي تتابع فيه « اسرائيل » هجماتها المتتالية على مناطق الحدود العربية المتاخمة لها ، والمساعدات تتدفق عليها رصاصاً — ولصدر كل منا رصاصة — لا نخجل نحن من انتخاب « ملك الشوارب » وإذا فاضت بنا الحمية نتباهى بأن ملكة جمال ما عربية ، رفضت التقاط صورة لها إلى جانب ملكة جمال « اسرائيل » ...

هذه جولاتنا للنضال المقدس ، واللحاق بركب المدنية والحضارة ..

لماذا لا ننصب المشانق الرمزية الآن ؟ فربما لن تكون لدينا حتى ولا شوارع ننصبها فيها ، لو استمر تمهلنا أعواماً اخرى ..

وحينئذ ، سوف ينصب كل منا مشنقة ، داخل خيمته ، وله وحده .

٤ / ٧ / ١٩٦٦

شهادات للبيع

شهادات للبيع .

حاملو (ليسانسات) للبيع . مجازون في الحقوق والآداب والتربية و .. و .. للبيع ! ! ...

نعم . للبيع . وبملء فمي أقولها . وإلا ، فما معنى هذا الخبر الصغير الذي قرأته في احدى الصحف العربية — لا فرق أين — والذي يعبر عن وضع عام في الاقطار العربية كلها تقريباً ...

« يتخرج هذه السنة من المعاهد العليا أكثر من ٢١ الف جامعي ، وفرص العمل المتاحة لن تستوعب أكثر من ثلثهم ! ! ... »

ما معنى ذلك ؟ معناه البطالة وما تحمله من مخازي تتراوح بين الاحتيال الخطر والفقر الموجع ... ومعناه ضياع نفقات تعليمهم ، وضياع طاقاتهم وامكاناتهم .

ومع ذلك ، فان أحداً لا يفكر بالاهتمام بجانب آخر عملي في الحياة ، اسمه المدارس المهنية ...

فبلادنا العربية — رغم الأفكار التقدمية التي نظن اننا نمارسها — ما تزال مصابة بعقدة (البكوية) ... كلهم يريدون (أفندية) ، محملة شهادات .. الأب يريد ابنه هكذا ، والأم ، والخطيبة ، وأبواب المجتمع (المخملية) ... كلهم يصنعون دون ان يدروا جيلاً من (الثوار بالسموكن) ...

ادعينا اننا تحضرنا يوم استوردنا المظاهر الآلية من تلفزيون وبراد وتكييف هواء .. ولكننا ما زلنا نعيش بعقلية (البكوات) الذين يلتصقون بالمظهر الخارجي للنجاح دون أي تجديد لمفهومه ...

ليس لدينا مصلّح لجهاز تكييف الهواء اذا تعطل ... ليس لدينا مصلح (فعلي) لاية آلة من الآلات الحديثة المستوردة ...

لأنه ليست لدينا مدارس مهنية كافية ...

من يمكن أن يشجع ابنه أو شقيقه على أن يكون مجرد (عامل) ! .. كلنا ننظم المهرجانات لنمجد العمال ، ننظم القصائد في مدحهم ، ولكن من منا يدفع بابنه إلى مدرسة مهنية ويحاول إقناعه بلا جدوى ليسانس حقوق — أدب — فلسفة . للبيع ؟ ! ..

هذه التقدمية ، ما قيمتها إذا لم تحمل المضمون الإنساني الحقيقي لها ، والذي يعتبر الإنسان قيمة إنسانية كبرى ما دام يعطي باخلاص على طريقته ؟ ؟ .

ما قيمتها إذا لم نمارسها فكراً وعملاً وإذا لم تكن صادقة وعميقة بما يكفي لتتسرب الى احكامنا الاجتماعية (وتقييماتنا) ؟..

وهل من الضروري أن نستورد (خبيراً) مع كل آلة ؟ ..

ما جدوى أن نصرخ ونصرخ كي تنبت مدارس مهنية إذا كان الجو الاجتماعي النفسي ضدها ؟ ...

ماذا أقول ؟ ...

لا شيء ...

ولكن ، البدائي ، إذا استورد مدفعاً يجهله ، فقد يصوبه إلى صدره ...

فمتى نكف عن الانتحار ؟ ؟ .

٢٠ / ٦ / ١٩٦٦

كي لا يكون (حاميها حراميها)

ترى هل أدمنا الهزيمة ؟ .

وهذا الخبر .

هل يمكن أن يمر هكذا بلا تعليق ؟ بلا حناجر تنبح رئاتها احتجاجاً ، بلا كورس أظافر تدق جدار مقبرة الضمير العالمي الميت منذ زمن طويل ، وضميرنا ؟ ... ترى هل أدمنا الهزيمة ؟ ...

وهذا الخبر .

« الولايات المتحدة طلبت من الامم المتحدة قطع المساعدة عن اللاجئين الفلسطينيين الذين يتلقون تدريباً عسكرياً بشطب اسمائهم من لائحة الاغاثة » ..

ترى هل أدمنا الهزيمة ، لنمر بهذا الدليل الجديد على عقلية الغرب المستهترة في حلها لقضية فلسطين دون أن نعي معنى ما يدور ؟ كن لاجئاً (داجناً) مقابل حفنة دراهم وكالة الغوث ..

هذا ما كانوا دوماً يريدونه كخطوة أولى في طريق طمس معالم المأساة في نفوس الجيل الفلسطيني الطالع والجيل العربي اللاهي ..

يريدون تخدير الخيول الوحشية ، التي سرقوا غاباتها الام ، مقابل حزمة برسيم في الخيام المؤقتة ..

يريدون تحويل النسور الجارحة إلى ببغاوات زينة ، مقابل حفنة من الحبوب أمام باب (القن) ..

اذن محرم على الفلسطيني في عرف العالم الحر أن يأكل إن كرس نفسه مقاتلاً ! ...

من قال انها (وكالة غوث) من الجوع إن كان عليه أن يشتري خبزه بانسانيته ، ويقايض عليه بكرامة القضية كلها ؟ ...

انها في هذه الحالة « وكالة غوث » للاعداء ...

وكالة « لغوث » اسرائيل من تحويل حقد الفلسطيني الشريد إلى عضلات مدربة تعرف كيف تقاتل ، وتأكل لا لتنسى حقها ، ولكن لتكافح وتستعيده ..

لماذا يخيفهم أن يتدرب الفلسطيني عسكرياً ؟ لأن ذلك يحمل الخطوة الأولى العملية والحقيقية في درب استعادة فلسطين .. لأن ذلك ينتقل بالقضية من مرحلة العاطفية الهوجاء المشتتة ، (أي المرحلة الخطابية) ، إلى مرحلة عملية عصرية لا تمت إلى مهزلة الوقوف على الأطلال بصلة ، أقلامها بنادق ومعدات حربية ، وحروفها رصاص ناري ، ولغتها واقعية : الدم .

المرحلة الثانية (غير الخطابية) بالنسبة للعرب هي الارتفاع بمستوى مأساة فلسطين عن سوق الحرتقات السياسية والخلافات الداخلية الّتي يغذيها الشرق والغرب ، لإضعاف جبهة فلسطين ، ولتحويل الدول العربية الشقيقة من مراكز انطلاق وقوة إلى (وكالات غوث) مساومة ومقايضة ...

الاطراف كلها ، لو عاملت فلسطين كما تدعي — كإحدى مقدساتها — لكفت عن استغلالها — عن قصد أو عن غير قصد — كإحدى وسائل (المزايدات) السياسية والدعايات (وتبييض الوجه) ...

الحقيقة الوحيدة ، هي انه لا مفر من لغة الرصاص والدم لاستعادة فلسطين .. وكي يتم ذلك ، لا مفر من السمو بالقضية عن الخلافات العربية أياً كانت أسبابها وأطرافها .. وكف أي من الأطراف عن استثمارها بانتحاله لشرف تبنيها ...

لا مفر من ذلك ، والا لكتب التاريخ ذات يوم ان العرب لما أدمنوا الهزيمة ، لعبوا في فلسطين دور (حاميها حراميها) ...

١٩٦٦/٥/٢

معامل الدكتور دبغي

كف قلب الرجل الممدد على منضدة العمليات عن الحركة .. كان من المفروض أن يموت لو لم ينقذه الدكتور دبغي بقلب اصطناعي جديد يؤمر فيطاع .. وبفضل هذا القلب ظل الدم يتدفق في الجسد العجوز ..

وبينما كان الرجل ما يزال فاقداً وعيه ، ومصاباً بتورم في دماغه ، اهتز العالم للنصر العلمي الجديد : القلب الاصطناعي .. وحتى بعد مماته .. ظل العالم يهلل للأمل الجديد ..

إذن لم يعد يكفي أن يتوقف القلب كي تتوقف الحياة . سوف يُخلع القلب المريض عن الجسد كما تخلع الاسنان البالية ، ليحتل موضعه قلب اصطناعي ، صماماته جديدة ومشحمة كأي محرك سيارة خرجت للتو من المصنع ..

هلل الناس . لم تعد إطالة عمر الإنسان اسطورة .. سوف يشترون القلوب الاصطناعية ربما بالتقسيط ، ربما يشتري الأغنياء أكثر من قلب ، أو يهدونها إلى عشيقاتهم ..

بفأر التجربة ، بذلك الرجل الذي ارتمى فاقداً وعيه أفكر .. تورم في الدماغ .. ثم ماذا ؟ .. ربما البلاهة .. وربما الشلل .. لماذا لم يدعوه يموت بسلام ؟ ما قيمة الحياة التي يمنحونها له إذا كانت ضريبتها البلاهة؟.. أو الشلل ؟ .. أليست قيمة الحياة الإنسانية في كثافتها وبعدها الثالث : العمق ، لا في امتدادها الزمني ؟ ..

ثم لنفرض جدلاً ان الاختراع بلغ ذروة نجاحه ، وانهم توصلوا إلى إطالة اعمارنا نحن البشر ، لماذا ؟ .. وما قيمة ذلك في عصرنا الحالي البائس ؟ ..

في عصرنا المادي المسعور ، في عصر الحضارة المنحرفة التي فقد فيها الإنسان أمنه الداخلي ، وصار يعيش في ترف مادي وقحط نفسي ، من يتمنى أن تتضاعف أيامه وبالتالي تمزقه وغربته ومرارته وقلقه ؟ ..

لماذا نطيل أعمارنا في غمرة سباق التسلح المسعور ؟ كي لا نُضيّع على شيوخنا الذين شهدوا حربين عالميتين فرصة مشاهدة حرب عالمية ثالثة ؟ ..

فلنترك الموت العذب الذي اخترعته الآلهة ، ولنلتفت إلى آلاف (الميتات) التي اخترعناها نحن .. إننا نموت كل يوم أكثر من مرة .. ونَقتُل أكثر من انسان .. ويَغتالُنا أكثر من صديق .. ويتآمرون علينا جماعات وشعوباً في أكثر من مؤتمر عدل وسلام .. لماذا نحارب ميتة الآلهة العادلة إذا كان لا جديد في سلسلة الميتات المريرة ، التي تنبت طحالب من أنياب في درب حياتنا (المتحضرة) المتطورة ..

تلك النفس المتعبة التي حطموا أساطير قرنها الماضي ولم يمنحوها أي بديل ، من يخترع لها لحظة عزاء ، ثانية إيمان تفجر في الذات الإنسانية إبداعاً له حرارة قرون من الحياة ؟ ..

إذن سوف يطيلون أعمارنا .. وستنضم إلى فصيلة الفيلة والسلاحف التي تعيش مئات الأعوام فصيلة جديدة اسمها الإنسان .. من يدري ، ربما نجد ذات يوم في حديقة حيوانات مزروعة بين ناطحات السحاب ، قفصاً صغيراً فيه كائن بلا ملامح وقد كتبوا على القفص : « من فصيلة الشمبانزي . رجل . عمره ٢٠٠٠ سنة . صنع في أميركا . معامل الدكتور دبغي » .

١١ / ٤ / ١٩٦٦

من أجل جيل مصطفى ..

سقطا معاً . وفي يوم واحد .
على التحديد : يوم ٢٧ آذار ١٩٥٤ .
سقطا معاً . ومن أجل قضية واحدة .
على التحديد : مظاهرة طلابية ضد الاحلاف الاستعمارية .
سقطا معاً .
وعلى رصيف واحد .
أمام باب الجامعة الامريكية في بيروت .
الأول : حسان أبو اسماعيل .
والثاني : مصطفى نصر الله .

أما حسان أبو اسماعيل ، فقد كان سعيد الحظ إذ قتل ، وتحول إلى شهيد في أمة تشترط في أبطالها أن يكونوا قد فارقوا الحياة ! .

وأما مصطفى نصر الله ، فالرصاصة — لسوء حظه — لم تصب منه مقتلاً ، وإنما استقرت في عموده الفقري . ومنذ ذلك اليوم ، تحول إلى فرد مشلول ، تصلبه الأمة بنسيانها على كرسيه ذي العجلات منذ اثني عشر عاماً ...

ففي جنازة حسان أبو اسماعيل ، وفي ذكراه السنوية ، تخرج واجهة السياسيين والمسؤولين الكبار ، وتنشر الصحف اسماءهم وصورهم الثكلى بالحزن والإجلال ! .. وفي المهرجان الخطابي الذي يقام كل عام لذكراه — كان آخرها مهرجان هذا العام في الجامعة العربية — يهز الزعماء الكبار رؤوسهم تأثراً للفتى الذي يبكيه الجميع ، للطالب المثالي الذي آمن بالمبادىء التي لقنوه إياها ، ومات من أجلها ...

وأما مصطفى نصر الله — شريك حسان السيء الحظ — ، فقد غاب تماماً عن أذهان أولئك المسؤولين الكبار لما غاب عن مسرح الاضواء ..

وظل كبرياؤه يدفن أنات موته البطيء في الظلام ، حتى فوجئنا بصرخته منذ أكثر من شهر ، لما دعا إلى مؤتمر صحفي يشرح فيه حالته المؤلمة ، ويناشد المسؤولين إيجاد عمل له ..

مؤتمره الصحفي لم يثر من الضجة ما يثيره مرور أية ممثلة أجنبية في مطار بيروت . أو أية راقصة امام باب مقهى ... ولم يشهـــده من الصحفيين خمس العـــدد الذي ذهب إلى ردهات (السان جورج) لينصت باجلال إلى مندوبة قديسة التجميل (اليزابيت آردن) وهي تشرح (أسرار الجمال) .. ولم يكتب عنه إلا في بقايا أعمدة الصحف المزدحمة بالاعلانات والاخبار (المصيرية) الهامة : آخر طلاق ، وآخر تقليعة ، وآخر جرحى التزلج في فاريا ..

وهكذا انطفأت الكلمات القليلة التي كتبت عن مصطفى نصر الله .

والمسؤولون الذين تحركوا للتفجع على حسان ، لم يتحركوا لإعادة الحياة إلى حسان ، في شخص مصطفى .

والذين سودوا الصفحات تفجعاً على شباب حسان . كانوا يستطيعون بجرة قلم وتوقيع أن يكرموا المبادىء التي مات من اجلها حسان . وانهد من أجلها نفسها شباب مصطفى ..

لماذا ؟ .

هل هو ولاؤهم (للعروبة) والتقليد العربي القديم : « الوقوف على الاطلال » ؟ ..

ام انها (وجاهة) الوقوف على الاطلال . وندب القتلى ، كوضعية مسرحية دعائية مثالية ، وكديكور يلائم كل متطلع إلى زعامة ، وكل عاشق (لكرسي يلهيه عن مأساة سجين الكرسي ذي العجلات) مصطفى ؟ ..

أنقذوا مصطفى ..

لا من أجل مصطفى ..

ولكن من أجل اولئك الصغار الذين نحشو رؤوسهم بدروس الفداء والبطولة من أجل شيء عظيم — غير عاق — اسمه « الوطن » ..

لا من أجل مصطفى ..

ولكن من أجل جيل السّريوهات الذي له في هذه الحادثة أكبر حافز على الاستهتار بالقيم والشعارات .. وأكبر مبرر للهرب من مواجهة المسؤوليات إلى مهزلة الحفلات الراقصة (البارتيز) في الجامعات ..

لا من أجل مصطفى .. ولكن من أجل حسان .. كي لا يمتلىء وجهه القتيل بالاشمئزاز وهو يرى في مصير مصطفى حقيقة شعور المتباكين وأنانيتهم ولامبالاتهم .

لا من أجل مصطفى .

ولكن من أجلنا نحن .. كي نظل قادرين على تصديق (أكاذيب) زعمائنا ...

من أجلنا جميعاً أنقذوا مصطفى ...

١٩٦٦/٤/٤

الفنادق الفخمة تحت أقدام (بعض) الأمهات !

لما كان مجتمعنا العربي (الناهض) ينتمي إلى القرن العشرين . لذا احتفل بعيد الام وعيد الطفل على التوالي أسوة ببلاد العالم الراقية الاخرى .

احتفالات في كل مكان ، في المدارس ، في الفنادق ، في المسارح ، على اعمدة الصحف وشاشات التلفزيون .

وقد سرت بشكل خاص سيدات الجمعيات — اللواتي لديهن مربيات يمكن أن يوكلن اليهن أمر الاطفال والازواج — بهاتين المناسبتين المشروعتين لاقامة الليالي الملاح ، وخياطة الفساتين ، وتكليف بعض الاصدقاء الصحفيين بكتابة (خطبة ، مع التشكيل) تتمشى والمناسبة ، باعتبار ان الفصاحة الأدبية صارت أهم (اكسسوار) للسيدة الانيقة ، طبعاً إلى جانب الحذاء (الكروكوديل) ، والرموش الاصطناعية ! !.

وهكذا اضيئت ردهات (السان جورج) و (الفينيسيا) وبقية الفنادق الفخمة الكبرى في بيروت لتكون (تحت أقدام الامهات) و (فلذات الاكباد) ، وتمت المراسيم نفسها التي تحدث في المآتم والاجتماعات السياسية والافراح في إحدى طبقات مجتمعنا العربي : أكل كثير ، كلام كثير ، وحماس عاطفي كثير .. وكانت لها النتائج نفسها : لا شيء . زحام من الفقاعات ينفقىء في موجة فقاعات اخرى لمناسبة جديدة ..

لن أتحدث عن وباء الحفلات هنا في بيروت . كل يوم حفلة . الوجوه نفسها . الأحاديث نفسها . الرقصات وحدها هي التي تتغير — عفو الفساتين — ، والمناسبات المفتعلة . حفلات تحاول إحدى طبقات المجتمع أن تعوض بها عن خواء حياتها الداخلية وضحالتها ، وربما هرباً من مواجهة مسؤوليتها نحو بقية طبقات الشعب بتجاهلها لروابطها معها وللشرايين والأعصاب المشتركة بينها والتي قد ينجم عن تجاهلها أو قطعها ما يصيب الغصن المغرور العاق حين يقطع صلته بالجذور ..

ولن أصف كيف يتفنن كبار وكبيرات نجوم المجتمع في تشويه انفسهم ، ويتحولون إلى قراصنة وجواري وقطاع طرق ومهرجين في حفلاتهم الدورية ، ويقضون نصف الاسبوع في إعداد ملابسها ، والنصف الباقي في اجترار فضائحها ، ومهازل آخر تبدلات (بوصلات) المزاج الزوجي في العائلات (السبور) ...

عن (عيد الام) و (عيد الطفل) كنت اتحدث ...

قبل أن نحتفل بعيد الام ، يجب أن يكون لدينا « أم » بالمعنى الحقيقي للكلمة ...

فالحمل والرضاع امران مشتركان بين جميع الحيوانات الثديية كالفئران مثلاً ، و (انثى الكنغارو) بهذا المفهوم أم مثالية أكثر من (انثى الرجل) ! .. فهي على الاقل تستمر في حمل أطفالها حتى بعد الولادة ! ...

لكن أمومة المرأة عمل إنساني مستمر ، مرتبط بالشرط الإنساني الاخلاقي الذي يميز مجتمع البشر عن بقية المجتمعات الحيوانية الاخرى التي لا تخلو من الحنان والعلاقات الغريزية ...

ومن هنا كانت الأمومة وظيفة إنسانية كبرى ترتبط مباشرة باهداف المجتمع الذي تعيش فيه ، بتاريخه وحاضره وواجباته نحو مستقبله المنبثقة من هذا الوعي .

ومن هنا كانت مسؤوليتها نحو تطور الأمة كبيرة ، والإخلال بها يؤدي إلى مزيد من الشلل الذي تعاني منه أمتنا في محاولاتها للنهوض من كبوتها ...

ومن هنا كنا بحاجة إلى أم مثقفة ، واعية ، غير ممزقة بين مختلف الامراض النفسية أو الجسدية ...

والام لدينا — كما هي في جميع البلدان المتخلفة — تشارك الاسرة في وباء الأمة العام : الجهل ، المرض ، الفقر ... لا عن تلك الام في القرى النائية وحدها أتحدث ، وانما عن تلك الام في الشوارع الخلفية للمدن وفي بيوت التنك ، وعن تلك الام في الواجهة الثرية والتي تملك رصيداً كبيراً من الجهل والفقر النفسي مما يجعل أمومتها أكثر نقصاً من تلك التي جف حليبها جوعاً ...

لذا ، قبل أن نهلل في « عيد الام » لشيء غير موجود ، علينا أن نحاول خلق (المحتفل به) ...

النقود التي تصرف في الحفلات والاستعداد لها تكفي لفتح مستوصف يداوي الامهات الفقيرات وينقذهن من حمى النفاس والاجهاض وعدد كبير من العلل التي تفتك بهن لفقرهن وجهلهن ... وفتح أكثر من مدرسة أو مكتبة في تلك القرى

النائية لتوعية أهلها وتذكيرهم بمسؤوليتهم نحو قطر له اهدافه وطموحه السياسي والإنساني ، هذا طبعاً بعد أن يتذكرهم مسؤولو القطر بالماء والكهرباء والمواصلات — عدنا إلى الحلقة المفرغة ، وبعض الحكام اللاهين كل على طريقته — ...

باختصار ، ليكن لدينا أم وأسرة لكي يكون لدينا طفل ... أطفالنا محرومون من الطفولة ، ينضجهم إدراكهم الغريزي للجو العام المفعم برائحة المأساة ، فينمون وفي قرارة نفوسهم وعي غامض بعالم مشحون بالمتاعب والخيبات ...

أطفالنا بلا طفولة ... ولن نعيد اليهم طفولتهم إلا إذا تخلينا عن (طفولتنا) السياسية والاجتماعية ...

وقبل أن نكون قادرين على إعادة (الطفولة) لاطفالنا ، لا أجد مسوّغاً لاي احتفال أو أي عيد في شعب متخلف بلا أمهات ولا اطفال ...

٢١ / ٣ / ١٩٦٦

قفص الحريم أم نار جان دارك ؟ ..

وكالات الانباء العالمية ، تسابقت إلى التقاط صور الفتاة الحلبية الصغيرة التي جلست في مطار (أورلي) بباريس تبكي .. وصحف أوروبا وجدت في حكايتها موضوعاً في غاية الاثارة .. فتاة شرقية (حلبية) ، في السادسة عشرة من عمرها ، يرغمها أهلها على الزواج من رجل يجدونه مناسباً ...

الأمر في نظر الاوربيين غـريب وطريف . فهم لا يستطيعون فهم سـبب إرغـام فتاة ما على الزواج ! فالمرأة هناك ليست (حرمة) يهمهم (سترها) بأي زواج ، إنها كائن إنساني آخر له الحق في أن يحقق وجوده ، وان وجدت ان ذلك يتم عن طريق الزواج ، فان الزواج في تلك الحالة يصبح عملاً إبداعياً لا مجرد طقس اجتماعي آلي ينز رياء وجبناً ..

لهذا أدهشتهم (وحشية) الآباء الشرقيين في الاستمرار على (وأد) بناتهم ، ووجدوا في ذلك دليلاً جديداً يساعدهم على رسم تلك الصورة المظلمة لشرقنا العربي ، المرعبة بجهلها وتخلفها وتدني المفاهيم الإنسانية فيها ...

أما صحفنا العربية فقد نشرت صور الفتاة في صفحاتها الاولى ... لماذا ؟ هل الحادث نادر في بلادنا العربية ؟ ...

هل بيننا من لم يسمع شهقات فتاة في الظلمة ، تبكي لأن عليها في الليلة التالية أن تكون عروساً لرجل لا يربط انسانيتها بإنسانيته سوى ان أحد اولياء أمرها وقع معه على ورقة واحدة عقداً بنقل ملكيتها اليه ؟ ؟ ! ... ألا يحدث ذلك باستمرار في آلاف البيوت العربية ، في آلاف القرى والأزقة المعتمة ؟ ...

إذن فالحادثة عادية بالنسبة لبلادي ، انها متكررة باستمرار ، وهي جزء من مسلماتنا الاجتماعية التي قلما تثير التفاتنا ...

ولكنني لا أعتقد بأن الارغام على الزواج في شرقنا العربي ناجم عن وحشية الآباء

وقسوتهم أو عن تدني مركز الفتاة في الاسرة .. اعتقد بأن للأمر مدلولاً أخطر من ذلك ...

فوالد الفتاة الحلبية لم يكن بالضرورة إنساناً يريد الاساءة إلى ابنته . وربما كان من أرق الاباء وأكثرهم عاطفة .. ولكنه في تصرفه هذا يمثل عقلية تحكم مجتمعاً بأكمله ، وهو بوحي من مسلمات هذا المجتمع وقيمه أراد أن يمنح طفلته السعادة ...

فلنتجاوز هذه الحادثة العادية المتكررة إذن ...

ولنكف عن افتعال الاستنكار لقسوة الآباء الذين يزوجون بناتهم ، ولنكف عن لومهم ، لأن كل فرد في المجتمع مسؤول عن أي زيجة ارغام تم ... وما تصرف الاباء إلا حصيلة لضغوط اجتماعية ومفاهيم تقليدية للاخلاق ، وما قسوتهم الا جزء من قسوة مجتمعنا المتحجر الجبان الذي يفهم الفضيلة جداراً يستر ما خلفه مهما كان ما يدور خلفه منحطاً إنسانياً ، ويفهم الرذيلة على انها العجز عن دفع ضريبة (غض النظر) للمجتمع ، بالرياء في ممارسة أفعال ظاهرها يخالف ما تعارفوا عليه ، وربما كانت حقيقتها تحمل مدلولاً إنسانياً لصدق يرفض أن يرتدي أقنعة الخوف والرياء ...

بل ان بعض الآباء يدركون ذلك أحياناً ، لكنهم لا يملكون الا الاستسلام للتيار ، ولا يريدون لبناتهم مصير الثوار الأوائل مهما كانت القضية عادلة ، ويفضلون أن (تتطوع) الطفلة بهدوء لتصبح جزءاً من وباء الرياء الزوجي على أن تكون (جان دارك) تلصق على عمود في السهرات والمنتديات ويضرم فيها الناس النار بألسنتهم ...

٧ / ٢ / ١٩٦٦

اعتراض !

في زحمة الأخبار عن زيارة ملكة جمال الكون — غير الجميلة — إلى بيروت ، كنا نقرأ من وقت إلى آخر أخباراً عن شيء أسموه « فتاة رمضان » .

ربما كان في انتخاب « فتاة الكلية » أو « الجامعة » التي تتحلى بمزايا علمية واخلاقية رفيعة ، ما يخلق جواً محبباً من المنافسة وحافزاً على السعي نحو الافضل .. هذا إذا فرضنا جدلاً ان جمال المتسابقات لا يؤخذ بعين الاعتبار ! ..

أما ربط ذلك بفكرة دينية ، « كرمضان » مثلاً ، فهو خطأ كبير يدل على مرور سطحي سريع بمفهوم الدين ، ورمضان ...

ففي شؤون الدين ، لا يؤخذ برأي أي لجنة تحكيم مهما علا شأن افرادها .. وحده ، ذلك الذي « يعلم ما في الصدور » يستطيع أن يقرر من هو حقاً « فتى رمضان » أو « فتاة رمضان » . ان شؤون الحياة اليومية ، والأحكام كلها ، خاضعة لاخطاء نسبية لا مفر من أن يرتكبها البشر بحكم كونهم بشراً ، وذلك أمر لا مفر منه في المحاكم والجامعات وفي كل أمر دنيوي .. فان الشيء الوحيد الذي يحفظ للدين قداسته هو ان شرائعه وأحكامه في ايد الهية ليست بشرية ولا يتسرب اليها خلل أو خطأ ولا يبدل عدالتها مثقال ذرة من الرياء الاجتماعي أو بقية العوامل التي تشوش العدالة البشرية من مؤثرات خارجية مادية أو مزاجية تتعلق بشخصية الحكام بالذات ..

وإذا كانت العجالات التي نتناول بها قضايانا الروحية في هذا العصر تطبع كل شيء بطابع من السطحية والاستهتار غير المقصود ، فان علينا قدر الامكان أن نحميها من الابتذال ، أو سوء التطبيق والاستعمال ، الناجمين عن سطحية الثقافة ، والانجراف في مادية العصر ، التي تحول أشياءنا المقدسة إلى موضوعات يومية حياتية .. يصيبها رشاش العبث — غير المقصود أحياناً — الذي يلطخ كل شيء ، والذي يجدر بنا أن نتحاشاه في بيوت العلم على الأقل ..

وبعد ...

ربما كانت « فتاة رمضان » الحقيقية ، خادمة عجوزاً في الكلية ، تبحث في غرفة أدمت يديها في تنظيفها ، عن ركن معتم ترفع منه صلواتها وتدفن سعالها .. ركن منزو هادىء لا يصله ضجيج حفل انتخاب « فتاة رمضان » ..

٢٤ / ١ / ١٩٦٦

على طريقة السلاطين ! ..

على طريقة السلاطين القدماء ...

« من عنده طريقة لتخفيض الأسعار خلال أشهر ثلاثة فليتقدم . إذا نجح سأعينه وزيراً ، وإذا أخفق سأقتله » .

هذا ما أعلنه الرئيس سوكارنو في أندونيسيا منذ أيام ... وهكذا ، بعد أن أعيته الحلول التقدمية و (اللاتقدمية) لحل مشكلة الغلاء ، وبعد ان اقتنع بأن المسؤولين في الدولة يمارسون (الحكم للحكم) على طريقة الفنانين البرجعاجيين : (الفن للفن) ، نجده يبحث عن أي إنسان يعينه وزيراً ، ولا يشترط فيه أية كفاءة من الكفاءات العصرية الحديثة كالمهارة الحزبية ، والثعلبية السياسية .. لا شيء سوى أن يقدم للشعب الخدمة اللازمة ... وعلى طريقة السلاطين القدماء ، من نجح استحق شرف أن يحكم ، ومن فشل قتله ، وربما بالسيف أيضاً ! ..

ونحن في وطننا العربي ، وقد اعيتنا الحلول ، أي صدى يثير هذا الحل (السلطاني) في نفوسنا ؟ ..

فنحن من جديد على أبواب عيدين ، ليس لهما من العيد إلا اسمهما في التقويم ...

منذ أعوام بعيدة لم نعرف عيد نصر حقيقي على صعيد قضايانا الوطنية والسياسية ...

منذ ضياع فلسطين ونحن ننتقل من فشل إلى مسرحيات تخدير إلى فشل ...

عيد يطل ، وعيد يولي ، مآدب تنصب ، وتمنيات تنثر .. بيانات وزارية تهدى ، وبيانات أخرى تصححها ، وأخرى تلغيها ..

في أكثر أقطار وطننا العربي « نسمع جعجعة ولا نرى طحيناً » ، لا شيء سوى وعود وامنيات ، وتهانٍ على الوعود ، واحتفالات ومهرجانات وتجمعات .. ثم لا شيء ....

والعيد الحقيقي لم يطل منذ زمن بعيد ...

والكبش الوحيد الذي يذبح في كل مناسبة ، وفي أكثر من عيد ، هو الشعب العربي ...

هذا العام ...

ترى ماذا يحدث ، لو صمم الشعب العربي على أن يكون له عيد حقيقي ، ولو عـلى طريقة السلاطين القدماء ؟ .. ففي « العيـد الصغير » ، يعلن انه توقف عن (الصوم عن الاحتجاج) ، وانه يعطي مهلة لحكامه ، يستقيل خلالها من يُحِبّ أن يستقيل ، ويبقى في الحكم من يعمل على خدمة امانيه ، وخلال مهلة اقصاها عيد الاضحى ...

وفي عيد الاضحى ، تتغير الذبيحة التقليدية : الشعب .. وتستبدل (بالمؤمنين) بمبدأ (الحكم للحكم) ...

تُرى ، لو أعلن الشعب ذلك ، هل سيجد الجزارون وقتاً لنحر (الاكباش) السمينة على مذبح الشعب ؟ ...

أم اننا لن نجد كبشاً واحداً للذبح ، لانهم جميعاً سوف يستقيلون ؟ .

١٣ / ١٢ / ١٩٦٥

المنطق اللامنطقي للمرأة !

في لبنان ، تم تأسيس جمعية جديدة هي « جمعية النساء صاحبات الاعمال وذوات المهن الحرة » ! ...

تناقض عجيب ! ...

في البداية ضربت المرأة الأرض بقدميها حتى علا رنين خلاخيلها مطالبة بالتحرر ، وظلت تموء مطالبة بمساواتها بالرجل ، ثم حققت المساواة عملياً في لبنان حين خرجت من نطاق الاعمال الصغيرة ، وحطمت دائرة السكرتيرات لتكون هي رجل العمل ، وطرقت الميادين جميعاً بما فيها ميادين العمل الحر ...

ومع ذلك ، ها هي تعود لتعلن عن انشاء جمعية ، تضم من رجال العمل في البلاد كل من تصادف انه امرأة ! .. ها هي من جديد تعاود تجمعاتها على أساس نسائي ، وعلى مستوى النساء اللواتي حطمن اسطورة تاء التأنيث ! ...

أي تناقض ! ..

ما فائدة أن تُقنع المرأة رجال العالم كلهم بحقها في المساواة إذا كانت هي نفسها غير مقتنعة بذلك ؟ ! ..

استطيع أن أفهم أن يكون غرض الجمعية العناية بمشاكل المرأة العاملة من زاوية كونها انثى : كانشاء مؤسسة للعناية باطفالها ، ما دام لا مفر لها من أن تحمل اطفالها بنفسها (حتى ولو كان زوجها سكرتيراً بسيطاً في مشروعها الضخم) ، او لمعالجة أية مشكلة انثوية بحته ناتجة عن طبيعة عملها الجديد ...

ترى ماذا يكون موقف هذه الجمعية لو قابلها رجال الاعمال بالمثل وانشأوا جمعية أو نقابة لهم لم يسمحوا بدخول (الحريم) اليها ؟ ! ... ألا تثور لكرامة المرأة المهدورة ، لمعاملة الرجال (الرجعية) التي لم تقدر مكانتها كربة عمل ؟ .. ألا تعود من جديد للمطالبة بالمساواة ؟ ..

أي منطق ! .. أو أي (لا منطق) . إنه المنطق اللامنطقي لبعض النساء ! .

١٢ / ٧ / ١٩٦٥

أسطوانة « صمت » من المحيط إلى الخليج !

سجلت في اميركا اليوم اسطوانات صمت ! .. صمت مطبق .. وهـذه الاسطوانات كغيرها من اسطوانات المطربين المشاهير لها موضعها من الماكينة الآلية للموسيقى الـ (جوك بوكس) المبثوثة في المحلات العامة والمقاهي والبارات .

ويستطيع أي إنسان متعب أن يدفع ثمن الصمت بعد أن كان يدفع ثمن الموسيقى ، فيرمي بالقطعة النقدية المعدنية في ثقب الآلة ، ويضغط على أزرار أسطوانة الصمت ، ويشتري لحظات هدوء يفرضها على الآخرين .

فكل شيء هناك يزعق بوحشية ويركض بلا رحمة . صار الإنسان يحمل رأسه مرغماً بعد أن استحالت المدينة إلى مطار مزدحم بملايين الطائرات الشيطانية التي لا تكف لحظة واحدة عن الانزلاق فوق رأسه ، وعلى صفحة جبينه ، وعلى عنقه ، صاعدة هابطة ، معولة مرعبة ..

ونحن أيضاً ..

استحالت حياتنا إلى دوامة من الصراخ الدائم .. فنحن نواجه قضايانا كلها بالصراخ ، تماماً كما يواجه الطفل الوليد العالم الخارجي في لحظته الاولى ..

ردود فعلنا على الأحداث كمواطنين عرب نوع من الصراخ الجماهيري .. نواجه الكوارث « بمظاهرة احتجاج » .. نساند زعماءنا « بمظاهرة تأييد » ، وننضم إلى أي جمع هتاف متبنين شعارات ربما لم نفهم بالضبط ما تعنيه .. وليس أدل على ذلك من نكتة مشهورة تؤرخ في نظري لفترة نفسية مر بها جيلنا ...

تقول النكتة التي ليست نكتة : في مـادة « علم الحيوان » كان الدرس يدور حول الصرصار « الصرصور » ، فقال الاستاذ : يعيش الصرصور في ...

لكن الطلبة قاطعوه صارخين : يعيش .. يعيش .. يعيش .. ودوى التصفيق بحياة الصرصور ...

حتى مقاييسنا واحكامنا الاجتماعية والفرديـــة ، سقطت فريسة لمزاجنـــا (الميكروفوني) .. فصار للضجة التي ترافق أي عمل فني الأثر الأول في حكمنا له أو عليه .. ولهمهمات (التانتات) وأتباعهن من زبائن المقاهي سلطة عجيبة توجه زاوية نظرنا إلى الآخرين ...

وهكذا استحالت أعماق كل منا إلى ستيريو كبير صاخب يسمع فيه كل صوت إلا صوته الشخصي الموؤود .

ربما كنا قد توقفنا عن استدعاء المزغردات في الافراح والندابات في المآتم ، ولكن عصرهن لم ينته مع انتصاب الأبنية الشاهقة ، لاننا استحلنا في الوطن العربي إلى كورس كبير « نداب » أو « مزغرد » رغم خطورة الاحداث الـتي تتعاقب بسرعة مذهلة ...

ما أشد حاجتنا إلى اسطوانة صمت طويل طويل .. أسطوانة صمت لا على الطريقة الامريكية ، ولا تقتصر على المحلات العامة ، وليست الغاية منها استرخاء الأعصاب .. وانما اسطوانة صمت وفقاً لحاجتنا .. اسطوانة صمت لأعماقنا ، والغاية منها إثارة الأعصاب الفردية على العمل بعد « اتكاليتها » زمناً طويلاً على همهمة المجموع ..

كل منا بحاجة إلى أسطوانة صمت جديدة يضيفها إلى « المجموعة » في أعماقه .. يديرها من وقت إلى آخر اسطوانة صمت تتيح له رؤية فظاعة ما يدور وسماع صوته الحقيقي ولو لمرة ، ليدرك كم من مرة زغرد في مأتم ، وانتحب في عرس ، وكم من مجدلية رجم ، وكم من إله تمر عبد ، دون أن يعني ذلك كله حقاً ! ....

٥ / ٤ / ١٩٦٥

طفل في سباق الركض !

أول قاضية في لبنان ! .

حادث خطير . وإلا لما أفردت له الصحف عشرات الاعمدة التي تتحدث بفخر وخيلاء عن التقدم الاجتماعي العربي الذي مكن امرأة من اعتلاء منصة القضاء .

وهكذا قرأنا التحقيقات العديدة حول هذا الحدث الجليل وكانت منشورة إلى جانب أخبار الصاروخ الروسي الأخير . والاعتداءات الاسرائيلية على الحدود السورية ..

وفي الوقت الذي كنا نهلل فيه لاول قاضية تخطو نحو منصة محكمة عربية ، كان رجل أجنبي يخطو خطوات الإنسان الاولى في الفضاء الخارجي ويتهيأ لغرس رمحه في خد القمر ! .

ومع ذلك ، فلم يخطر لأحد تقييم هذا الحدث بالنسبة لما يجري حولنا في العالم . فينشر إلى جانب أخباره تحقيقاً احصائياً حول عدد القاضيات في بلاد (الآخرين) المتمدنة ، حول النائبات والوزيرات ، أو حتى حول المجندات في جيش اسرائيل مثلاً ، أو الدول العربية التي لا قاضية فيها ، أو المدن والقرى العربية التي لا (قاضية) فيها حتى في شؤون حياتها الشخصية على الأقل ..

هل خجل أحد من نشر هذا الخبر حتى لا يعرف الناس أننا حتى الآن بلا قاضية ؟ أو كي لا يطلع عليه (الاجانب) ، فقد يكون بينهم مخدوع بنا ، قرأ عن ماضي امتنا . وانطبعت في ذهنه صورة معينة عن رقينا الحضاري لم يصححها بعد ؟ .

إننا في كل خطوة نخطوها نلوي بوجوهنا نحو الخلف ثم نهنىء أنفسنا قائلين : خطونا خطوة ! وذلك بدلاً من أن تتعرق أهدابنا دموعاً لمرآى آلاف الخطوات التي تخلفنا بها ، والبعد الشاسع الذي يفصلنا عن الركب الحضاري العالمي .. نحصي عدد القرون التي مارسنا النوم فيها بدلاً من الدقائق التي مرت على صحونا . وهكذا

حولنا الحدث إلى (شاهد) على تمدننا وتحضرنا ، يرضي نرجسيتنا أن نتحدث عنه بدلاً من ملاحظة أن (القاضية) هي (شاهدة) على تخلفنا ! ! ..

وإذا كان من الطبيعي أن يُسرّ أب بخطوات طفله الاولى ، إلا أنه يعرض نفسه للسخرية إذا أورد اسمه في معرض الحديث عن سباق للركض ...

وسباق الركض هذه المرة في الفضاء الخارجي أيضاً ! ...

٨ / ٣ / ١٩٦٥

جوارٍ (بالبكيني) وثوار (بالفراك) !

منذ أيام قيل ان علي ان اهنىء صديقة لي بزواجها .. ورغم انني لم أجد في زواجها امراً مبتكراً أو غير عادي ، أو قراراً يستحق الاسف أو التهنئة — ما دامت نتائجه لم تظهر بعد — رغم ذلك ، ذهبت في أحد الايام المحددة لاستقبال (زبائن) التهنئة لانه لم يكن في دور سينما المدينة في ذلك الاسبوع أي فيلم يستحق المشاهدة ! ..

زحام ! وجو محموم مصطنع .

زحام من المتسابقين على (نفث) عواطفهم . زحام من الحلويات بين اشداق رغم سرعتها في المضغ تنثر مع فتات الاكل تعليقاتها اللئيمة وانتقاداتها الممزوجة بأسف مصطنع ! .. زحام من الورود على الطاولات والارض والنوافذ والرؤوس والثياب حتى فقد الورد كل معنى له ككل شيء آخر .. زحام من النظرات المنصبة على العروس المسكينة كأنها الوحيدة في الكرة الارضية التي تزوجت ، والتي حينما دخلت (القفص الذهبي) لم تدر ان عليها أن تجلس في (قفص) لتكون موضع (الفرجة) ! .. ثم تسدد اليها كبيرات الحاضرات نظرات خاصة مصحوبة بحركة معينة ، فتنهض العروس مثقلة بتعبها وارهاقها لتغير ثوبها ربما للمرة الرابعة ، وتعود زائغة النظرات منهكة لتتم مسرحية عرض الازياء الاجباري ، التي يتخللها فاصل من طواف العيون الملصقة على الفكوك الماضغة للحلوى بين غرف الدار وادراج الملابس يطمئن الجميع بعده إلى ان العريس يرزح حتماً تحت الديون (مما يثبت تقديره لقيمة عروسه) ، وليمنحوا الزواج قبولهم ما دام قد استوفى مراسيم الاحتفال التقليدية بما فيها من مسرحيات تبادل عواطف و (بوزات) للتصوير ...

ما شاهدته هنا ما زال يحدث في الاحياء المحافظة وربما المتحررة في كل بلد من بلداننا العربية .

انه تقليد قديم متوارث كان له في ظروف الحياة الاجتماعية الماضية ما يسوّغهُ بل ويجعله ضرورياً ..

أيام كانت الفتاة لا تخرج من دارها إلا – كما يقول المثـــل الشامي – (إلى الحمام ، وبيت العريس ، والقبر) ، كان في زواجها الفرصة الوحيدة لها كي تكون (مهمة) ويشتري لها من يعيلها الثياب التي طالما اشتهتها لتحمل معها إلى دار زوجها (جهازاً) يساعد على تقييمها في بيت الحماة والعم ، ويدلل عن مكانتها لدى اهلها ، وقد لا تحتاج لاعوام مقبلة إلى شراء شيء جديد ما دامت الموضة بطيئة التغير في عصر يسافر أهله على الجمال ويتسابقون لمشاهدة أول قطار وأول سيارة ...

وكانت الاحتفالات ضرورية ، فمهرجانات الزواج هذه والـ (سبعة ايام) تخفف صدمة فتاة ربما لم تلتق بعريسها إلا ليلة الزفاف ورأسها محشو بأساطير مرعبة ملذة طالما دارت بينها وبين بنات الجيران همساً .. وهكذا يكون في جو الاهل والاقرباء (على ما فيه من تفاهة ورياء) ما يخفف حدة الصدمة ، وتضيع المخاوف أو تبهت في حمى الاكل والاحتفال والثياب الجميلة والدفق التقليدي من الحنان الاجتماعي .

أما اليوم وقد تغيرت الشروط ، وتغير مفهوم الزواج نفسه ومفهوم المشاركة ، وتغيرت شروط الحياة الاقتصادية ، فقد صارت تلك التقاليد مجرد مسرحيات تمثل رغم ان ابطالها ، والمتفرجين والمخرجين لها لا يجهلون مدى تفاهتها ولكنهم يستمرون فيهـــا كما يستمرون في ممارسة عادات وتقاليد كثيرة فقدت قيمتها حينمـــا بطلت اسبابها ، بعضهم يستمر تجنباً للتحدي واثارة الاقاويل ، والبعض الآخر لا يخطر له قط أن يتساءل : لماذا ؟ ! .

والجيل الماضي ليس مسؤولاً عن سفر إنسان ما من دمشق إلى بيروت راكباً بغله متجاهلاً النسيارات المسرعة لمجرد انه إنسان يرعى التقاليد وسبق لجده ان قطع الرحلة نفسها على بغل ! ! .

فالمسرحية نفسها تجري أيضاً في أفخم فنادق المدينة .. مسرحية القشور والتقليد الاجتماعي الأعمى التي لا يغير من صلبها نقلها من حي محافظ إلى بهو فاخر الديكور ، ولا يؤثر في معنى الحوار الذي يدور تغيير بعض الكلمات البلديـــة و (فرنجتها) وتطعيمها بكلمات افرنسية أو انكليزية ..

حفلات عرس باذخة ، يتجمهر فيها آلاف الناس الذين تصادف ان كانوا اقرباء أو اصدقاء أو اصدقاء اصدقاء انسانين (رجل وامرأة) قررا الاقدام على مشروع شخصي مشترك ولم ينفذا منه بعد إلا التوقيع على العقد ، وما زال أمر نجاحه أو فشله مجهولاً ، وهما في هذه اللحظات والأيام المقبلة بحاجة ماسة إلى صفاء الذهن والبال ،

والهدوء ، وتجنب الضغوط الخارجية من زيف ورياء وافتعال يكهرب الجو . فالزواج في أيامه الاولى طفل رضيع يجب أن تبعد عنه أنفاس الناس حتى الذين يرغبون في تقبيله ! وربما كان الاحتفال الوحيد المنطقي بزواج ما في يومنا هـــذا هو احتفال أصدقاء الزوجين واهلهما بعد مرور عدد من الأعوام على نجاح مؤسستهما المشتركة ، بأن يقام لهما عرس حقيقي تعبيراً لا زيف فيه عن اهتمام صادق ومودة اكيـــدة ... ترى ، كم من الذين كان يسعدهم تلبية الدعوة لحفل الزفاف قد يشتركون في مثـــل هذا المشروع ؟ .

ربما كان لا مفر من الاعتراف بأن لحب الاستعراض والفضول الانثوي ، وحب الثرثرة (العانسية) الأثر الكبير في المحافظة على هذه المسرحيات بحجة المحافظة على التقاليد ..

ولكن ، قبل أن يشمت الرجال ، لا بد لي من أن أسجل لهم حذقهم في ممارسة استعراضاتهم السياسية وممارسة مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية في مناسبات كهذه أيضاً ، بحيث يزف ليلتها كل منهم إلى مصالحه ! هذا بالإضافة إلى حبهم السري للمظاهر .

مثلاً ، ما معنى تمسكهم بلباس (الفراك) ، ثم إسباغ صفة رسمية على ذلك الاستعراض الاجباري ، وذلك بطبع ملحوظة على بطاقات الدعوات تؤكد ذلك وترغم أي إنسان يخطر له أن يسأل : « لماذا ؟ » على أن يتجنب الوقوف بوجه التيار والاتهام بأنه جاء (بلباس النوم — البيجامة) إلى الحفل .. هذا ، في الوقت الذي تمتلىء فيه اعمدة الصحف ونشرات الحملات الانتخابية والندوات والصالونات بالتحدث عن التقدمية التي تتوخى البعد عن التفاهات والمظاهر إلى العمل المثمر المبني على تفكير منطقي معتدل في كبير الامور وصغيرها لأن السلوك الإنساني وحدة لا تتجزأ ..

ترى هل تؤكد هذه الحقائق الصغيرة، ان بعض النساء في جيلنا المتناقض ما زالت تعيش حريمها الفكري (بالبيكيني) ، وبعض الرجال يلعب دور التقدمي الثائر في بدلته (الفراك) ؟ ..

أم أننا جميعاً مهزومون أمام ذلك التنين البيغاء العتيق : التقاليد ؟ .

المتمرد مهزوم لأن تمرده توقف عند إبداء ردود فعل بدائية عاطفية هوجاء ..

والراضي يمثل الرضى ويهرب من لماذا لانه جبان ..

وكل مهزوم على طريقته ؟ ..

٢٢ / ٢ / ١٩٦٥

لا للبكاء على قبر الحبيب !

ما مصير الكلمة الواعية المثقفة في وطننا العربي ؟ .

منذ أسابيع ، القى الدكتور فايز الصايغ محاضرة حول اساليب الدعاية الصهيونية في اميركا .. تحدث عن دعايتنا العربية الاعتباطية الجاهلة بمفاتيح العقلية الامريكية ، تلك المفاتيح التي اتقن اليهود استعمالها ، بعد دراسة موضوعية عميقة لنفسية الشعب الامريكي .. تحدث عن أهمية التخطيط للدعاية العربية ، والبعد بها عن الخطابية العاطفية التي تميع المفاهيم ، وحاجتنا إلى الاعتماد كلياً على منطق ذكي عملي يطرح القضايا من الزوايا التي تجد نقاط التقاء لها في نفس الشعب الذي تشرح له ..

المحاضرة في رأي كل من سمعها وثيقة تاريخية بعمقها ونفاذ تحليلها..إنها أيضاً—في نظري — خطوة في تاريخ فكرنا المعاصر ، لأن الدكتور الصايغ ، كشف فيها عن الداء الاساسي الذي تعاني منه الحياة السياسية لجيلنا ، والفكرية ، والأدبية ، وحتى الشخصية الفردية .. هذا الداء ، هو الافتقار إلى الهدف النهائي المحدد الواضح المعالم ، وبالتالي ، الافتقار إلى مخطط عملي واقعي يستند إلى دراسة علمية للوصول إلى ذلك الهدف .. إذ ان أي تخطيط لاية قضية يظل فجاً وسطحياً (دونكيشوتياً) ما دامت القضية نفسها غائمة في الاذهان ، ضائعة بين الاجتهادات الشخصية للافراد ، والمشاغل الشخصية للمسؤولين .

لقد أدخل في محاضرته عنصراً تفتقر اليه الكلمة في بلادي : العنصر العملي التطبيقي الملتصق بالحياة ..

وهكذا ، في موسم جدبنا الفكري ، وفي غمرة زبد الزخم العاطفي الاهوج الذي نواجه به قضايانا (حينما لا نهرب منها أو ننشغل عنها) ، جاء إنسان بكلمة مثقفة واعية تخطط لنا كي نستغل السلاح الذي سبقنا عدونا اليه منذ ستة عشر عاماً

ماذا كان مصير هذه الكلمة ؟ ..

إقبالاً شعبياً لا حد له .. إعادة للمحاضرة .. اصداء ، اصداء ، ثم لا شيء

سوى الاصداء ..

والدكتور الصايغ لم يقصد من وراء محاضرته القيام باستعراض عضلات فكري ، وإلا لاكتفى بتلخيص فج لمعلومات ساذجة ، يصيغها بأسلوب لغوي مقعر ، ويختمها بديباجة نواح خطابية عن فلسطين كما يفعل سواه .. ويبحث في اليوم التالي عن أخبار محاضرته في عمود « النشاط الاجتماعي » .

لكن الدكتور الصايغ قام بعمل مكتب دراسات كامل .. أقام من نفسه مرصداً فكرياً يخطط لحالة القضية في الجو النفسي للفرد الامريكي .. وهدفه من هذا واضح وعملي : أن يقدم للدوائر الرسمية العربية — بالإضافة إلى الرأي العام العربي — دراسة تستنير بها وتعمل على هديها . متداركاً في ذلك تقصيرها في إيجاد مثل هذه الدراسة منذ زمن طويل ..

وبما انه من المفروض ان المسؤولين الرسميين وجدوا لتنسيق القوى الشعبية العاملة ، وتنظيم امكانياتها ، وايجاد المجرى الموحد لسيول طاقاتها ، لذا فمن المفروض أن تكون مثل هذه الكلمة الواعية ، وهذا العطاء الفردي الكبير اساساً متيناً لعمل إيجابي رسمي يتبناه المسؤولون في أكثر من قطر من أقطار وطننا العربي ..

وانتظرت . لا شيء سوى الصدى ..

ظننت ان كل من فهم معنى كلماته يشاركني انتظاري ..

الصدى يخفت يوماً بعد يوم ، والكلمة المثقفة الواعية تُجهض ، ترمى كاللقطاء في الزوايا المعتمة .. ويعود مد التفاهة والجهل ليمتزج باسطوانة ندب للتفاهةوالجهل !..

الندب هو العمل الوحيد الذي نقوم به باتقان ، وفي المجالات كلها .. نسمع محاضرات تندب فلسطين .. نقرأ مقالات نقدية وفكرية محنطة تندب الكلمة المثقفة الواعية ، لكنها لا تصنع شيئاً من أجل احتضانها — إن وجدت — بل تنضم وتتحالف بغباء كسول مع القوى التي تُجهضها ، أو ترمي بها كاللقطاء في الزوايا المظلمة ..

ندب مستمر .. كأن جيلنا العربي يصر على الهرب من مسؤولية الوقوف بوجه الكوارث إلى البكاء على هذه الكوارث وندب ما كان ..

والمسؤولون اتخذوا من قضية فلسطين موقف « قيس » من ليلى حينما هام في البوادي والقفار .. اننا لا نسمع منهم سوى توجع سلبي وتفجع ميتافيزيكي في قالب بلاغي غائم يضاف كلازمة (فولكلورية) إلى كل بيان وزاري .. انه اسلوب الهرب من ساحة المعركة إلى البكاء على جثث القتلى ..

١٩٦٥/٢/٨

عيد إلغاء الأعياد

أعيادنا صارت كمآتمنا .. نمارسها بحكم العادة .. على شفاهنا نلصق الكلمات التقليدية . نزين شوارعنا ، ونزرع الحلويات في أحشاء ضيوفنا ، وكل منا يحاول إقناع نفسه بأنه في عيد .

العيد .

كلمة فقدت معناها الحقيقي لدى جيلنا ، وانضمت إلى قافلة عادات نمارسها بآلية دقات الساعة ، ومفاهيم نتبنى طقوسها وقد نسينا مدلولاتها وجذورها .

فنحن جيل النكبة العربية الكبرى ، جيل نكبتنا بأنفسنا ؛ وبواقعنا المفجع الذي صحونا عليه بعد اغتيال فلسطين .

جيلنا ممزق ، على الصعيد الشخصي ، وعلى صعيد العمل السياسي الجماعي .. تتنازعه شتى الاتجاهات والحقائق والاكاذيب . حائر بين عشرات النظريات . عبثاً يحاول التوفيق بين منطق الاحداث والواقع ، ومنطق التراث المحافظ . انه ضائع ، مشتت ، الازدواجية ترهقه ، فقد يقينه وما زال يتعثر بشكوكه ، طيبته تزيد في مرارة صراعه .. يتحالف أحياناً — دون أن يدري — مع حصيلة القوى التي تشده إلى الوراء من جهل واستعمار وعبث .

العيد كلمة تحمل معنى الإجماع العام على الفرح بشيء ما ..

ونحن جيل الغضب .. الجيل المشتت ذو الأهداف المبعثرة ..

جسورنا مع الماضي برعونة نقطعها بأكملها ..

جسورنا مع المستقبل نكافح لنمدها .. شيء واحد نجمع عليه دائماً : هو أن لا تجتمع كلمتنا ..

والعيد كلمة تحمل معنى الطمأنينة النفسية الكبرى .. وأحداثنا السياسية التي تدور خيام لا تقينا من صقيع الشرق والغرب .. ونحن جيل اللاجئين .

صار العيد المناسبة التي نشعر فيها اننا جيل بلا أعياد .

استعدادات الناس لأعيادنا كلها تذكرني بتأنق عانس تحرص على الذهاب إلى الكنيسة يوم الاحد كي تستعرض ثيابها ، بعد أن نسيت كل شيء عن الصلاة .

بصراحة .

دعونا نُلْغِ أعيادنا جميعاً .. دعونا نحتفل بعيد إلغاء الاعياد ، فالاعتراف بالواقع خطوة كبيرة في درب البناء ، واكتشاف المرض جزء أساسي من العلاج .

دعونا نصنع لأنفسنا أعياداً جديدة ، أو نبعث أعيادنا بمعناها الحقيقي ..

نريد عيداً ينبع من خيامنا : من ضياعنا ، من قلقنا ، من سمونا وسقطاتنا .. من واقعنا بعد أن نعري الجرح ونداويه بدلاً من أن نصر على إخفائه تحت زينة العيد .

٤ / ١ / ١٩٦٥

ضرب النساء في عصر الفضاء

كانت السيدة الدكتورة سهير القلماوي تحاضر في قطر عربي وتتحدث عن « آفاق جديدة للمرأة العربية » وكانت المستمعات يجلسن في مكان منفصل عن المستمعين ، وكانت الدكتورة تتحدث عن المساواة أمام هذا (الحريم الثقافي) الذي يجلس امامها شاهداً ملموساً متحدياً أفكارها دون أن تصمت احتجاجاً أو تصرخ استنكاراً ...

ثم وجه اليها سؤال يتعلق بضرب النساء ، هل يضرب الرجل زوجته تأديباً لها أم يطلقها ؟ .. وأجابت الدكتورة ببساطة انه من الخير أن يضربها بدلاً من أن يطلقها ، وحمّلت الدين الاسلامي مسؤولية اجتهادها ونالت بذلك اعجاب الأكثرية ورضاها ، أو سلمت من لسانها — كما خيل إليها — .

هذا الرأي وجد وتراً يستجيب له ... ففي يوم الجمعة ٢٥ كانون الاول فاجأ خطيب المسجد جمهور المصلين بخطبة موضوعها ضرب النساء .. فاستشهد الخطيب بآراء الدكتورة وأبدى حماساً كبيراً (للرينيسانس) الذي سيشهده هذا التقليد (العريق) واجتهد في تفسير بعض الآيات الكريمة والاحاديث بحيث حمّل (عدم ضرب النساء) مسؤولية فساد العلاقات الزوجية واضطرابها ! ... فالمعلم يضرب تلميذه ليؤدبه والأب يضرب ابنه فلماذا لا يضرب الزوج زوجته ؟ .. وبعد هذا (المنطق الصوري) في استنباط الأحكام الاخلاقية خرج الناس من الجامع وربما سارع كل منهم إلى داره ليوسع زوجته ضرباً إلا اللواتي سمعن الخطبة بالمذياع فسارعن إلى الاختباء ...

وهذا كله كان يحدث بعد عامين أو أكثر من امتطاء السيدة « فالنتينا » سفينة فضاء ، وبعد ستة عشر عاماً من نكبة كانت المرأة العدوة تحارب فيها ، والمرأة العربية تُذبح كالنعجة

هذه دعوة إلى الهبوط بمستوى العلاقة الإنسانية بين المرأة والرجل ، وجعلها قائمة على شريعة الغاب ، حيث القوة الجسدية تحكم وتسود ..

إنها دعوة خاطئة من حيث المبدأ ، ومن حيث الاسلوب ... فالعلاقة بين الرجل وزوجته ليست علاقة كعلاقة « كل مرب مع من يربيه » وبالتالي فالضرب « وسيلة تأديبية » .. كما يقول الشيخ . إنها أعمق من ذلك بكثير ، فيها من المشاركة أكثر مما فيها من التربية ، انها تربية مشتركة لكليهما ، تهذيب لإنسانيتهما وتنمية لرهافتهما بحيث يصبح اتحادهما الكامل ممكناً ويقفان معاً في وجه خداع الأيام وقسوتها ليعضد أحدهما الآخر .. ما الذي يضمن للسيد الشيخ أن يكون الرجل دوماً على حق ؟ لو كان الرجل إلهاً لا يخطىء لكان كالاله (لم يلد ، ولم يولد) ولما تزوج ولما كان النقاش حول هذا الموضوع كله ...

ولكن الرجل كالمرأة ، إنسان يخطىء ويصيب .

... ومهزلة وصاية الرجل ، وتبني التأديب الجسدي من طرف واحد تنحدر بمستوى علاقتهما إلى حلبة مصارعة ثيران ! ..

كم من الجرائم بحق تقدمنا ترتكب باسم الدين . هذا الدين الذي كان ذات يوم مصدر قوة وفتح ، يجب أن نحميه من التفسير الخاطىء والفهم السطحي لكلماته كي يظل دائماً مصدر قوة .... انه كتراثنا كله ، لا بد لجذورنا فيها ، لا بد من احترامها ، واحترامنا لها يكون بحسن فهمنا وتقديرنا لجوهرها .... ويجب أن لا نتبنى التفسيرات السطحية ظناً منا بأن في ذلك تقرباً من الاغلبية واستجداء لرضاها ، أو خوفاً من استنكارها ... فالشعب العربي اليوم أذكى مما يتصور أي محاضر ... ويقظته الفكرية تستنكر ولو بصمت هذه القيم المزيفة والحلول السهلة العقيمة التي تُقدم لها ... واستشهاد شخص ما بآية قرآنية يجب أن لا يخيفنا ، يجب أن يدفعنا إلى مزيد من محاولة فهم جوهرها والاستنارة بأعماق مدلولاتها ...

فليحترم — الذين نحترمهم — واقعنا الفكري ، وليوفروا على أنفسهم مغالطتها فذلك لم يعد يجدي .

١٤ / ١٢ / ١٩٦٤

سجن للنقاد مع الأشغال الشاقة !

في اسبانيا صدر قانون يقضي بسجن كل ناقد يكتب نقداً لكتاب لم يقرأه ! .

هذا القانون يتضمن فهماً عميقاً لمدلول الخلق الفني ، واحتراماً لحرمة الكلمة .. فالتجرؤ على حرمة كتاب جرم جزائي ، وفي هذا اعتراف ضمني بأن النتاج الفني كائن حي له حقوقه ، والاستهتار به والتجني عليه جريمة تشبه جريمة الاعتداء بالضرب على ابن صديق أو جريمة القتل خطأ ..

وهذا يجري في اسبانيا ، لا في الوجه الثاني للقمر ..

وهذه العدالة المرهفة ، والاحترام الواعي للأدب هو من صلب الاخلاق العربية ، ومن نبضات الدم العربي الذي ما زال يجري في بلد الشمس والتواشيح ، وما زال يلون حتى شرائعها وقوانينها بالاحساس المرهف امام ابداع الحرف ، وبالتقدير الكبير للكلمة ، من أمة نبي كانت معجزته الكلمة .

أما في بلادي ، فالكتاب العربي يولد لقيطاً ، ثم يباح دمه لكل عابر سبيل .. كل من تعلم القراءة والكتابة يعتقد انه حاز رخصة شهر سلاح على أي أثر أدبي دون أن يقرأه ..

يكفي أن يسمع تعليقاً من صديق له صديق قرأ صديقه الكتاب كي يتخذه حجة لتدبيج مقالة نقدية .. يكفي أن يكون قد لمح الاديب في مقهى ما ولم يعجب بلون قميصه ، أو لم يحس (بالاصالة) في لفتاته ، ولم يشعر بأن في تحيته له تقديراً كافياً لمجلسه العرفي النقدي ، أو يكون له مأخذ ما على بعض تصرفاته الشخصية كي يكون في ذلك تفتيح لموهبته النقدية ، وأساس لحملته التوجيهية .. وبات على الأديب أن يرمي التحية على أي عابر سبيل — من باب الاحتياط — خشية أن يكون بينهم ناقد يتهمه بالغرور ويتهم نتاجه — الذي لم يقرأه — (بالجفاف) والفتور العاطفي ! ..

بل اننا تعودنا أن نقرأ نقداً لكتاب يبدأ بهذه العبارة مثلاً : « أنا لم أقرأ لفلان

كتابه كلــه ، ولكنني قرأت له تصريحــاً في احدى الصحف ... » .. ثم ينتقل إلى نقد الكتاب نقداً (موضوعياً) ! .. «العمود» الذي تأخر المحرر في تسليم مواده يملأ بسرعة في المطبعة بنقد لكتاب ما،قرأ عنه المصحح نقداً أو سمع الناس يتحدثون عنه على المنضدة المجاورة في المقهى ...

أحكامنا على الكتب كأحكامنا على الناس ، نكتفي منها بالعنوان وصورة الغلاف ...

هذا القانون (الاندلسي) ، العربي دماً وروحاً ، كان يجب أن يشهد مولده عندنا ، وأن يضاف اليه بند يقضي باجبار (الناقد) خلال مدة سجنه على ممارسة اشغال شاقة — بالنسبة اليه — وهي القراءة .. وبذلك يثقف ثقافة اجبارية ، وأن يصدر هذا القانون دون أن يكون له أي مفعول رجعي كي لا تضيق السجون وتنفد الكتب من المكتبات وتضطرب ميزانية الدولة .

٢ / ١١ / ١٩٦٤

جدار المبكى من المحيط إلى الخليج !

فلسطين ضاعت في غمرة التخطيط للتخطيط للاخذ بالثأر . لقد ثرثر حكامنا في المؤتمرات الخطابية لاسترداد فلسطين طيلة سبعة عشر عاماً أكثر مما ثرثرت عوانسنا . واثبت سياسيونا انهم فئة من الممثلين كل منهم يحاول سرقة الكاميرا ، ويتخذ من النكبة اطاراً بطولياً ملائماً ينتحل ضمنه اوضاعاً دونكيشوتية مختلفة .. فصار تحرير فلسطين كليشه في كل بيان انتخابي ، وكل بيان وزاري ، وكل بيان انقلابي

وفلسطين ضاعت ، في كل يوم تمعن في ابحارها عن الخريطة العربية ، ورياحنا نحن هي التي تقودها بعيداً ..

لماذا ؟ .. لماذا . وكيف ؟ ؟ أين شعوبنا ؟ .

ربما كان في فنوننا وآدابنا جواب على ذلك ما دام الفن صورة عن حياة الشعوب الداخلية .. ربما كان في احدى الظواهر البارزة في أدبنا نافذة نستطيع أن نطل منها على حقيقة موت مأساة فلسطين في ضمير الفرد العربي .. انها ظاهرة خلو ادبنا بشكل خاص وفنوننا بشكل عام من الاثر الخالد الذي استطاع أن يحيط بابعاد النكبة كلها كفجيعة نفسية كبيرة لأمة ، وككارثة جماعية تهدد صورة تاريخنا في خاطرنا ، وكزلزال في عالم قيمنا ومسلماتنا ، وكاذلال جائر يسحق كبرياءنا ويهدد وجودنا وخبزنا وضميرنا ... رغم هذا كله لم يوجد في العرب (هوميروس) ينشر ملحمة مذابح دير ياسين وحرائق يافا .. وحتى أدب (الوقوف على الاطلال) الذي خرجنا به كان على مستوى سوق (عكاظ النكبة) ، مجرد اداة تكسب وتسول سياسي أو اجتماعي .. وإذا استثنينا بعض القصص القصيرة القليلة — أذكر على سبيل المثال لا الحصر قصص سميرة عزام — وغسان كنفاني وبعض القصائد المعدودة — كقصيدة بلا جذور لسلمى الخضراء الجيوسي — التي كتبها فلسطينيون وفلسطينيات وعرب ،

والتي طرحت بعض جوانب المشكلة طرحاً فنياً ولم تعطها صورة كاملة متعددة الجوانب ، الامر الذي لا يمكن للقصة القصيرة كأداة أن تستوعبه مهما كانت مبدعة ، نجد ان كل ما يتبقى لدينا هو كومة من المواعظ الاعلانية الجوفاء ، التزامها خارجي ، وحماسها ينبع من رنين اللفظة لا من خصوصية الحادثة ومن ارتباطها بالملامح النفسية والفكرية والحضارية لشعب معين هو الشعب العربي ولمكان معين هو فلسطين .. ان أكثر ما كتب عن فلسطين يمكن أن يقال عن أي مكان له أي اسم أو أية صورة ذهنية عامة وهو في ذلك يشبه المحاولات في الرواية قبل القرن الثامن عشر ... ان ابطال مسرحيات شكسبير يفترض انهم من جنسيات مختلفة ، عطيل والملك لير وريتشارد وهاملت .. لكنهم جميعاً يتحدثون كما كان الفرد الانكليزي يتحدث في العصر الاليزابيثي أي في عصر شكسبير ، ويسلكون السلوك النفسي للعصر ذاته ، وينفعلون امام الاشياء ويبدون ردود فعل انكليزية اليزابيثية .. أما لدينا ، فابطال أدب النكبة عائمون على صفحة الوجود يتسولون زماناً ومكاناً ، ورائحة الهشيم ما زالت تفوح من بيارات يافا ! ! .. وهكذا استحالت عمليـــة الخلق الأدبي لدينا إلى عمليـــة ادعاء ، كادعاء الحاوي الذي يخرج الارانب والفئران من اكمامه بانه خالقها .. لقد قرأت كتاب « أدب النكبة » للدكتور صالح الاشتر ، ووجدت عطفه على عبث المتطفلين على الجرح ، أكبر من عطفه على الجرح ذاته ، لما سمى نتاجهم أدباً ..

وانا ضد الالتزام الخارجي ... وضد أن يلصق الكتاب اسم فلسطين بين السطور لمجرد ان عليهم أن يفعلوا .. ولكن هل تأثر الفن العربي تأثراً عفوياً مبدعاً لا واعياً بالنكبة ! . هل ترسبت بين الحروف ثورة أو استسلام أو حزن أو خيبة أو تحد .. هل امتص المأساة حتى الجذور كل حرف حب أو غزل أو ضياع أو ايمان ؟ ..

لماذا تضيع فلسطين هكذا ؟ تضيع حتى في ضميرنا .. حتى في حروفنا ..

لماذا وكيف ؟ ؟ .

ان عجز أدب النكبة وأدبنا العربي عامة — ولا أستثني إلا القليل — عن تصوير مفاهيم الوطن والكرامة والحرية كما هي في ضمير كائن محدد هو الفرد العربي المتميز بصفات حضارية ونفسية خاصة ، هذا العجز هو تعبير عن تميع تلك المفاهيم في ضمير الفرد العربي وصورة عن اهتزاز عالم القيم وتداخل الحقائق والنوازع والاتجاهات في ذهنه حتى ليحيط بها احاطة مبهمة مهزوزة أو يهرب منها أو يسيء فهمها ..

وبينما كان الفرد العربي ما يزال يعاني قلق البحث عن هويته ، ومخاض ولادته

الجديدة في عراء أنواء سياسية قاسية ، كانت فئة من المهرجين والمستغلين — الذين يعلمون — وفئة من الجهلة الطيبين — الذين لا يعلمون — تحول المأساة الكبرى في تاريخنا إلى كرنفال استعراضي كبير ..

وهذا ما شجع الغرب على الاجتراء علينا ، فهو لن يحترم ما لم نحافظ عليه محترماً ..
وهكذا استخفت الدول بنا تتقاسمنا وتتهادانا كأننا سرب من الجواري والخصيان ..
وهكذا تجرأ بلفور على أن يهدي ارضنا ويستبيح مقدساتنا ..

وضاعت فلسطين ، وقلنا سوف نستردها ..

.. وجدار المبكى ينمو يوماً بعد يوم حتى ليمتد من المحيط إلى الخليج ونحن نهرج امامه ، وجدار نكبة آخر ينمو في صدر كل منا دون أن ندري .

وضاعت فلسطين ...

وبدأنا ننسى .

وصرنا نرجم كل من يجرؤ على أن يزيح قناعه مرة ليمسح دمعة أو لينطق بكلمة صدق واحدة كمحاولة لاعادة ذاكرة الضمير الغائمة .. ترى ، كم قارىء من الذين يقرأون هذه الكلمات يعرفون ان يوم ٢ تشرين الثاني هو يوم ذكرى وعد بلفور ، وان هذا بالذات ما جعلني اخط هذه الكلمات ؟ ...

لقد كشف موقفنا من نكبة فلسطين اننا فقدنا كل شيء لما فقدنا انفسنا ، وحنطنا الفرد العربي في داخلنا ..

فقدنا ارضنا .. كرامتنا . بترولنا الذي تعرف شفاه الغرب كيف تلتصق بترابنا وتمتصه .. وحتى مأساتنا ليست لنا ..

وسلام على حائط المبكى من المحيط إلى الخليج ! ! .

٢٢ / ٦ / ١٩٦٤

« بيتلز » منذ ٣٠٠٠ سنة !

مئتا مراهق ومراهقة .. حولوا أذرعهم العارية إلى لافتات كتبوا عليها بيتلز (أي خنافس ولا فخر) ، وجاءوا إلى المطار في مظاهرة دموع وصراخ وآهات حارة ، كأنما هم في استقبال نبي عاد من العصور القديمة ليحل ضيفاً بيننا ... وهذا صحيح بالنسبة اليهم مع فارق واحد ، هو ان نبيهم لم يأت من العصور القديمة وانما من الاحياء الوجودية في عواصم اوروبية ، وانه نبي ذو اربعة رؤوس مغطاة بالشعر الكث الطويل ويسمى (البيتلز) .

منذ ثلاثة آلاف عام كتب أحد الفراعنة يتحدث عن الحالة الاخلاقية المؤسفة التي تردى فيها شبابهم فقال: «اننا نعيش في عصر فاسد ... لقد فقد شبابنا اخلاقهم وتخلوا عن قيمهم ... ان جيلنا الطالع لا يرتجى منه أي خير .. لا ريب في ان القيامة ستقوم قريباً!» ... اذن كان لدى الفراعنة خنافسهم ومتاعبهم ، ولكنهم كانوا يعبرون عن ضياعهم باسلوب فرعوني يتناسب مع اسلوب حياتهم وروح عصرهم ... والتاريخ يحدثنا عن حالات كثيرة مشابهة .. وكتب الاخلاق تزخر بصيحات مماثلة .. لكن القيامة لم تقم .. والبيتلز هم تعبير جديد عن شيء كان اسمه منذ أعوام ، الروك اند رول ، وكان اسمه عام ١٩٣٠ في اميركا جيل الجاز .. وكان موجوداً دائماً وابدا وان كان التعبير عنه يتبدل ... انه ليس أحد مستحضرات القرن العشرين وما نراه اليوم هو صورة جديدة لتيار دائم الجريان في تاريخ الإنسانية من عصر إلى عصر ..

من اين يتغذى هذا الاحساس ؟ ما هي جذوره ؟ وبالتالي ، هذه الفقاعات التي ندعوها احياناً بجيل الفس برسلي أو جيل التويست أو جيل البيتلز ، عم تعبر ؟ وما مدى خطرها ؟ ...

هذه الأحاسيس كما ذكرت تعبر عن قلق الإنسان ، عن عجزه عن التلاؤم مع العالم حوله ذلك التلاؤم الذي كان دائماً هدف الانبياء والفلسفات المختلفة ، انها جزء

من ذلك الصراع الدائم بين (الانا) الرافضة المنقبة الحائرة التي تدرك انعدام حرية الإنسان ما دام محكوماً بالموت سلفاً وتنتهي إلى ان كل شيء عبث ، وبين (الانا) المنتمية الايجابية المروضة أو التي تم تدجينها عن طريق الدين أو المجتمع .. هذه الاحاسيس تيارات متباينة العنف والوضوح وفقاً لمختلف العصور وطبيعتها ، تهب من الشاطىء الآخر للنفس ، من الشاطىء الحر الملعون البائس بوعيه ... انها من الشاطىء الذي ينتمي اليه ساتان (الشيطان) في مسرحية ميلتون الرائعة (الفردوس المفقود) ، انها من شاطىء هاملت وكوينتن (بطل رواية فولكنر ، الصخب والعنف) .

والتعبير عن حقيقة هذا الصراع الإنساني ، وعن محاولة التلاؤم مع الوجود ، وعن اعماق الإنسان متعددة الشطآن ، يتخذ شكلين : شكلاً واعياً ناضجاً لا يلح على جانب الضياع بسطحية ، ولا يسقط من حسابه حقيقة الذات المتعددة الطيات . شكلاً لا تنقصه حساسية العاطفة ورهافة الحس ولكنه يتخذ من صلابة الفكر ناظماً ، ومن تقنية الفوضى اساساً ... ويتجلى هذا الاسلوب المبدع في التعبير عن الوجود ، في الاديان والفنون الراقية والفلسفات المختلفة وفلسفات العلوم ...

أما الشكل الآخر في التعبير وهو الذي نجده لدى البيتلز مثلاً ، فبدائي وفوضوي ضحل العطاء ، فج التعبير ، فقاعاته لا تدوم يطرح الوجود من زاوية واحدة ، ونجده في ردود فعل المراهقين (مهما تباينت اعمارهم بما فيهم المراهقون الكهول) ، وفي الآثار الفنية أو الأدبية التي تلقى رواجاً في فترة ما ثم تنطفىء ، كموجة الادب الجنسي التي اعقبت مرحلة سيادة البيوريتان (التعصب الديني الاعمى) والتي كانت جزءاً من جنون فترة الجاز ومجرد رد فعل لا يمت إلى الفن الحقيقي بصلة .. وفي هذا تفسير لرواج بعض الآثار الأدبية أو الفنية في فترة ما ثم زوالها لعجزها عن الوصول إلى الاعماق ولبقائها على السطح كنباتات المستنقعات تتغذى من موجات العصر وميوله دون النفاذ إلى الروابط التي تشد هذه الاشياء مع طبيعة الإنسان وحقائق حياته الخالدة في تيارات الاعماق .

وعلى ضوء هذه النظرة ، فلنحاول تقييم البيتلز أو الخنافس .. الخنافس في كافة اشكالهم وصورهم وفي مختلف ازيائهم من دروع القرن الثالث عشر حتى شورت القرن العشرين .. من خنافس الادب والفكر والفن حتى خنافس الموسيقى والرقص والستيريوهات .. انهم مجرد تعبير مراهق ومبتذل عن جانب حقيقي من النفس البشرية .. قليلهم اصيل يتحسس المشكلات حقاً ، وأكثرهم مقلد ومدع .. انهم في

حالة البيتلز (بيتلز المطار) صرخة احتجاج وتعب ورفض فيها مواء بلا تفكير وفيها عجز البكم عن البلاغة والبيان ... (يه يه يه) .. ورفضهم شخصي لا يمنح الآخرين شيئاً ولا يشبه بشيء رفض همنغواي ، رفض النضج ، وتشاؤم الذي صنع الرؤيا .. اولئك هم البيتلز ، فمن هم انبياؤهم الاربعة ؟ ..

الذي لا يعرفه المراهقون ان انبياءهم اتعس حالاً منهم .. انهم مجرد دمى صنعتها شركات استغلالية تعرف كيف تحول عاطفية المراهقين وهيجانهم إلى نقود وشيكات .. انها شركات الاسطوانات ومؤسسات الدعاية لها التي تخترع في كل يوم نبياً جديداً .. انها المعامل نفسها التي انتجت الفيس برسلي والتي لا ندري ماذا يدور في مخابرها اليوم ... انهم موضة من الموضات ستمضي بعد أن تستنفد .. ليت المراهق العربي يبحث لنفسه عن اوثان اخرى ..

ماذا نقول لهم بعد ؟ . لا شيء ..

لن أقول انه لا يحق للمراهق العربي ما يحق للمراهق الاوروبي .. لن أقول ان على المراهق العربي أن ينتقل من طور الطفولة إلى الكهولة فوراً لأن مسؤوليات الفترة التي تمر بها امته لا تسمح له بالتلهي.. قد يدركون ذلك بانفسهم.. كل ما سأقوله ان كثيرين قبلهم قد رقصوا « الروك اند رول » وهم اليوم أشد الناس اتزاناً في حياتهم .. وكثيرين ضاعوا كي يوجدوا قيمهم .. فليهرعوا إلى المطارات .. وليصرخوا وليرفضوا أو ليتمزقوا .. وليطلوا وجوههم لا اذرعهم فقط باصباغ الهنود الحمر وليعولوا (يه يه يه) ، ولتتدفق المياه من خراطيم رجال الاطفاء وليكتب الناس بين مؤيد وشاتم وساخر .. انها سنة الحياة منذ آلاف السنين لم يغيرها أي شيء ..

انه الوجود يعبر عن نفسه بصور متباينة ، انه الطين ، عجينة بين ايدي الجميع يصنع البعض منها مسوخاً ويصنع البعض الآخر رموزاً ومفاتيح ومنارات تخلد وتبقى .. تماثيل متباينة ... انه تيار الحياة يمضي متلاطماً عديد التيارات متشابك الاتجاهات ودعونا لا نقول كما قال ذلك الفرعوني منذ ثلاثة آلاف عام : لقد فسد هذا الجيل وسوف تقوم القيامة قريباً ! ..

دعونا لا نقول ذلك كي لا يسخروا منا بعد ثلاثة آلاف عام ..

١١ / ٥ / ١٩٦٤

صوت نسائي وسط « الكورس الرجالي »

هدأت المعركة ، وانتهت المبارزة ، وسكن الهتاف والتصفيق ، وخلع الفرسان المنتصرون خوذهم ودروعهم وارتدوا القمصان المنشاة وربطات (ديور) . واتجهوا إلى ساحة النجمة . وسهر عمال التنظيف على ازالة بقايا المعركة عن جدران المجلس النيابي ، وانزاحت غشاوة الغبار . فصرنا أكثر قدرة على الرؤية وعلى التفكير بهدوء . ولكل منا الآن منتهى الحرية في نبذ منطق الارقام في تقييم حصاد المعركة إلى منطق الرابح الحقيقي والبطــل الحقيقي . وطرح الاشخاص من زاوية جديدة : زاوية الـ (كيف) لا الـ (كم) .. زاوية التحدي .. ما مدى التحدي الذي كان في وقفة هذا الفارس أو تلك الفارسة ؟ .. هل كان لهذا التحدي اسس متينة . أم انه كان مجرد وقفة فارغة ، وقفة بطل (غانغستر) امام ابواب بلدة يريد أن ينهبها ؟ ...

وأنا احب الأشياء التي تتحدى ، احب (لا) قدر حبي لـ (نعم) ما دامت تقال بجرأة وثقة .. واحب وقفة الاعتداد والتصميم مهما كثر الراجمون بالحصى .. فأنا اؤمن بأن التحدي هو التضحية التي لا مفر منها لكل ذي عقيدة ومبدأ ، يعيش في مجتمع طيبته لا تخلو من قصر النظر والانانية . ونحن جيل مرحلة التطور ، جيل القيم المهزوزة ، جيل التصادم والتنافر بين اعماق شرقية عاطفية وموجة تطور سريعة آلية تغمر العصر ، جيل التناقض والتمزق ، والردة ، والبحث عن درب واله ، الجيل الضحية الذي يدفع ثمن المخاض حيرة وتشتتاً وبحثاً مخلصاً وانكفاء .. ولا مفر احياناً من مصرع الام كي تلد طفلاً جميلاً سليماً .. ولا مفر من وقفات التحدي المشرفة ..

وفي معركة الانتخابات هذه ، لفتت نظري وقفة تحد رائعة لامرأة ترجم وتنزف وتحمل المشعل رغم كل شيء .. وكان أول عهدي بها خبراً نشر في عدد من الصحف

المحلية يقول : لم اسحب ترشيحي ولن انسحب وسأمضي حتى النهاية ولن انسحب وسأمضي حتى النهاية . التوقيع : منيرة الصلح .

وأعجبت بالمرأة الوحيدة التي تجرأت على أن ترفع صوتاً وسط الكورس (الرجالي) الانتخابي .. فهي امرأة ، والمرأة في شرقنا ليست مهضومة الحقوق تماماً بقدر ما هي فريسة لسوء التقدير وسوء الظن .. ان المجتمع لم يقتنع بعد بقدرتها على البناء والتنظيم والكفاح .. والمجتمع في هذا ظالم بقدر ما هو مظلوم .. فهنالك أكثر من امرأة فشلت أن تكون جدية في الحقل العام . واستحالت من امرأة رصينة مكافحة إلى أمية (بالبيكيني) . وهذا أيضاً ما هو بذنب المرأة وحدها ، فعهدها بتجربة الحرية قصير ، ومن حقها أن تترنح ، وأن تتعثر بها الخطى ريثما يصلب عودها وتنقضي لحظة الانبهار التي تعقب تعرض إنسان إلى نور قوي بعد ان قضى قروناً في ظلمة وقيود ...

لهذا كله أعجبت بهذه المرأة التي تنفي خبر هربها من ساحة المعركة بهذا الاعتداد .

ولكنني لا أحب الاشياء التي تتحدى لمجرد التحدي .. لا احب أن يسكب الإنسان الجالس في المقهى فنجان قهوته في حذائه لمجرد التحدي .. التحدي في نظري تتويج لمرحلة القناعة ، واداء عملي لأحد طقوس عبادة الحقيقة .. وتساءلت : إلى أي الفئتين تنتمي السيدة منيرة الصلح ؟ .. والتقيت بوجهها المتعب الذي لم يجامل (الماكياج) تعبه .. إذن هذه هي المرأة الوحيدة في لبنان التي ظلت مصرة على أن تخوض معركتها .

وعرفت منها أشياء كثيرة . خطوطاً عريضة لحياة زوجة مناضلة وأم وفية . وامرأة عملت في الحقل العام اعواماً طويلة بصمت واستمرار . وانها لم تدفع قرشاً واحداً في حملتها الانتخابية . ولم تعرف المساومة أو المقايضة على المبادىء ، وانها وقفت وحيدة ضد قوى كثيرة ، ضد مجموعة من المفاهيم البالية .. وخاضت – حرب الشائعات التي تصيب الهدف حينما يكون ذلك الهدف امرأة .. قيل انها انسحبت لقاء مبلغ معين .. وقيل ان إخوتها (السادة فريد ومفيد وسميح ومنير وعبد الحميد الصلح) يقفون ضدها .. وقيل انها اختطفت لصالح أحد المرشحين .. وقالت لي هي : انا لا اتصف بطائفية الانثى التي تريد احتكار النجاح لبنات جنسها أو تخاطب تعصبهن .. لقد خضت معركتي كمواطنة تخاطب ثقة الناس بها .. لقد انقضى زمن طويل على الرجل وهو يحاول وحده حل مشاكل الشعب .. فليجربوا المرأة علها لا توصد بابها في وجوههم

بعد أن يفتح باب المجلس النيابي في وجهها ! ! ...

بصراحة ، لا فرق عندي بين نجاح السيدة منيرة الصلح (الكمي) أو فشلها .. حسبها انها أول لبنانية تقف وحيدة رغم كل شيء ، وحسبها ان وراء تحديها ايماناً وعملاً واحتراماً للذات ، وحسب المرأة في هذه المعركة أنها قد تَبَنَّت اساليب نظيفة وواضحة .. وبهذا يكون فشلها في منطق الا (كم) نجاحاً مشرفاً .

١٩ / ٤ / ١٩٦٥

انتحار التخمة وانتحار اللقمة !

خبران قرأتهما ...

عاشقان انتحرا في نانسي (فرنسا) منذ ايام . لفّا الديناميت حول جسديهما وفجّراه ! .

وهكذا انضم إلى قافلة شهداء الحب « روميو وجولييت » جديدان من الغرب ..

ولكنهما « روميو وجولييت » عصريان جداً .

فالسم — أداة الانتحار الكلاسيكية — استبدلاه باحدث المخترعات. بالديناميت من أجل ميتة عصرية تمتاز بالعنف .

وجولييت الحضارة الغربية في القرن العشرين ليست عذراء سجينة ، وانما هي زوجة هجرت بيتها لتعيش مع عشيقها ! ..

ولم ينتحرا هذه المرة حرماناً وشوقاً ، وانما انتحرا بطراً وسأماً وخيبة ...

ولم تقتلهما قوى المجتمع والاهل ، التي تعمل على ابعادهما حرصاً على التقاليد ، وانما قتلهما الافتقار إلى تقاليد ، إلى تحد إلى رد فعل ! ...

ومأساتهما تمثل مأساة ذلك الجيل الذي توصل إلى ذروة الانتصارات المادية والعلمية ، ولكنه لم يجد البديل لقيم العالم القديم الروحية التي اغتالها ..

وهكذا تطاير العاشقان في الهواء نتفاً من لحم ودم ، وعبرا بذلك في صورة كاريكاتورية حية عن تمزقهما النفسي المرير الذي خلفته وليمة الشبع المزيف ...

ربما في الوقت نفسه ، في مكان ما من الشرق تصادف أنه لبنان ، تطايرت مجموعة بشرية أخرى نتفاً من لحم ودم حينما انفجر الديناميت بين صخور « نهر الموت » قرب بيروت وجرح من العمال من جرح ...

الأفواه التي مزقتها النار لم تكن تنز بطراً كفمي العاشقين المنتحرين في نانسي (فرنسا) ... كانت أفواهاً جائعة ، وركضها وراء اللقمة ساقها إلى درب الصخور

المجرحة تحت الشمس المحرقة..

فالجوع لا التخمة خلف هذه الحادثة .. الجوع القديم قدم الإنسان ، الجوع الذي لا يمت إلى التخمة الحضارية بصلة .. الجوع إلى لقمة ، وإلى نجمة ، الذي ساق الإنسان منذ أقدم العصور للركض في الغابات العتيقة صياداً وكاهناً، وعرضه للموت في درب الصخور المجرحة تحت الشمس المحرقة كما تعرض اليوم اولئك العمال عند نهر الموت ، وتناثرت دماؤهم مع جوعهم على الصخور ... وكان في ذلك المشهد لقطة بدائية لحكاية الجوع العتيقة ، لقطة « للبداية » ..

خبران ... صورتان للإنسانية : الاولى تمثل النهاية أو لحظة التخمة ، والاخرى تعبر عن البداية ، عن الجوع ... ولكن ، لا فرق بينهما ! ...

فالحصيلة في الحالتين هي نفسها : تمزق ، واشلاء إنسانية متناثرة ...

والبداية تكاد تكون هي النهاية ...

إن نظرة حيادية إلى تاريخ الإنسانية على هذا الكوكب تؤكد هذه النتيجة المرعبة .. وتؤكد ان الأحداث ما زالت تتكرر وإن تباينت مظاهرها وتبدلت أقنعتها ...

في « البداية » ، ومنذ قرون بعيدة ، كان يُرمى بالإنسان إلى الوحوش في باحات الاباطرة في روما .. انه مشهد تشمئز منه (جنتلمانية) القرن العشرين .. ولكنها لا تشمئز من احصاءات القتلى في مختلف انحاء العالم في ساحات حروب يساقون اليها ، ويخطط لها بأحدث الاساليب ...

في « البداية » ، هبط آدم إلى هذا الكوكب ومات فيه .. وفي « النهاية » يصعد غاغارين من هذا الكوكب ربما إلى كوكب آخر ، لكنه سيموت أيضاً كما مات أي عاجز في العصر الحجري .. ويظل الهرب من الزمن لغزاً ...

في « البداية » كان المحكوم بالاعدام يربط بين حصانين يضرب كل منهما ليركض في اتجاه مغاير للآخر ،ويتمزق جسد المحكوم.. وفي « النهاية » صار المحكوم بالاعدام يربط إلى مقعد معقّد أنيق ، ووفقاً لأحدث الاختراعات ينطلق تيار يمزق أعصاب المحكوم ودماغه ...

لكن أحداً لم يخترع كيفية اعدام الجريمة كي لا يكون هنالك مجرم .. ولا اخترع دواء ليكف قايين عن قتل هابيل خلال تاريخ طويل مرير .. و « البداية » ما زالت هي نفسها « النهاية » ...

والذي كان يموت جوعاً صار يموت تخمة ... والذي كان يموت في الكهف

الحجري صار يموت في فراش نظيف في المستشفى ...

لقـــد بدلت الإنسانية اقنعتها خـــلال قرون آلاف المرات ، وبـــدلت (ديكور) مسرحها ، والستارة والظلال ، ولكنها عجزت عن تبديل أي شيء أساسي في الوجود كالموت والجوع والرغبة . وهكذا ظلت في « النهاية » كما كانت في « البداية » ...

كأنها في تاريخها الطويل على هذا الكوكب ، وفي انطلاقها الموهوم لفتح كوة في الافق — تطل منه على اسرار الابدية — كانت تدور معصوبة العينين في دائرة مفرغة .. تنتهي أبداً حيث تبدأ .. كالدواب معصوبة العيون التي تسير وتسير لرفع الماء ، لكنها لا تدري أن العجلة التي ربطت اليها تشدها ابداً إلى حيث هي ، وانها تدور حول نقطة عبث واحدة .. تراها هي أيضاً تظن انها تسير من أجل الخير والحق والجمال ؟ ! ! ... أم انها أدركت منذ زمن بعيد ان « البداية » هي نفسها « النهاية » ، وان « لا جديد » ما دامت قد وجدت ضمن هذه الظروف : حرية وهمية في السير والتقدم،وبلجام، وقطعتان جلديتان لا تحجبان القدرة على الرؤية وانما تحددان زاويتها على الافق ! . حتى الآن ما زالت « النهاية » كـ « البداية » .. لماذا ؟ ..

ترى هل أخطأت الإنسانية الدرب ، وهل أساءت استعمال انتصاراتها العلمية ، ام ان الامر اعمق وأشد تعقيداً ؟ .

هل يكفي أن ننحو باللائمة على العطاء المشوه للحضارة الغربية الآلية ؟ ..

نستطيع أن نقول ان الوليمة كانت مزيفة ، وان التخمة الموهومة في « النهاية » لم تكن سوى جوع أشد مرارة من جوع « البداية » ، فالشبع المادي قد رافقته مجاعة نفسية إلى « نجمة » ، والانتصارات العلمية منحت الصياد في الإنسان « اللقمة » ، ولم تمنح الكاهن في ذاته ، « النجمة » .

ونستطيع أن نطالب (كالمصلحين الاجتماعيين) بحضارة تؤمن للإنسان حاجتيه الاساسيتين : اللقمة ، والنجمة .

ولكن ...

ذلك كله لا يؤكد ان انحراف دفة الحضارة الآلية هو وحده المسؤول عن تسرب الماء إلى السفينة .. ولا يثبت ان حضارة القرن العشرين الآلية هي العجلة التي قيد الإنسان نفسه اليها ، وهي التي تجعله يدور حول نقطة واحدة وفي حلقة مفرغة ، فينتهي أبداً حيث بدأ ..

ربما كان الامر أكثر عمقاً وغموضاً وتعقيداً .

ربما كان العبث ينبع من صميم الذات الإنسانية لكل فرد ، وبالتالي ينعكس على الخط العام لتقدمه في درب الزمن ... وفي الذات الإنسانية غموض وتشابك وتناقضات مريرة ، وفي الذات الإنسانية تشابه عجيب بين « بدايات » الاحاسيس و « نهاياتها » ، وتطابق كامل بينها ... والا ، فلماذا يرافق « ألم » الذي ينفذ حكم الشنق فيه « لذة » لا متناهية ؟ ..

لماذا « نضحك » في أقصى لحظات « عذابنا » ، و « نبكي » في ذروة « نشوتنا » ؟

لماذا حينما تتفجر احاسيسنا تجاه إنسان ما ، ونحس بالتصاقنا المطلق به نحار ان كنا « نحبه » أو « نكرهه » ، ونعي من وقت إلى آخر اننا نهواه بقدر ما نمقته وانهما ، « الحب » « والكراهية » ، اسمان لشيء واحد ! ؟ ...

وإذا كانت الاحاسيس في اعماق الإنسان تدور في حلقة مفرغة ، وتمزج « البداية » فيها « بالنهاية » ، لماذا يدهشنا انعكاس ذلك على التاريخ الإنساني ؟ وإذا كان « أفراد » القافلة هكذا ، لماذا يدهشنا دورانها حول نفسها ؟ ...

وإذا كان العبث في ضميم الذات الإنسانية ، لماذا يدهشنا فشل التخطيطات لها من « رأسمالية » و « موجّهة » و « وجودية » ... ؟

ولماذا نلوم انحراف الحضارة الآلية في خط سيرها وننسى أن صانعها وقائدها اعرج ؟ .

وفي هذه الحالة ، ما المفر ؟ ... وهل سنظل ابداً في كل حضارة نصنعها ندور حول حلقة مفرغة ؟ .. وهل ستظل « النهاية » دائماً « كالبداية » ؟ ..

لا أدري ... لا أحد يدري ...

انه سؤال آخر ينضم إلى قائمة الاسئلة التي يسعى الإنسان للإجابة عليها منذ وجد.. انها اشارة استفهام أخرى تلصق على الافق ... من أجل هذا السؤال ، ومن أجل اسئلة أخرى ، سرق « بروميثيوس » النار المقدسة ورضي بنهش النسور الابدي لكبده ... وكشفت (باندوره) غطاء الصندوق المغلق الذي حذرت من فتحه ، فلربما وجدت الاجوبة فيه ، وانطلقت الشرور التي كانت حبيسة ... من أجل هذا السؤال وسواه تمرد « سيزيف » ...

وهام « دون جوان » يبحث عن الجواب تحت اللحم المعطر ..

وباع « فاوست » روحه للشيطان ... وتشرد « السندباد » ...

وتظل الاسئلة ...

ونظل لا ندري شيئاً ...

ونظل لا ندري لماذا « البداية » « كالنهاية » ...

ولكن .

ربما كان ذلك الغموض العابث بحد ذاته هو شرارة الحياة الاولى ...

ربما كانت كلمة « لماذا » الملصقة بكل افق هي نفسها المحرك الاساسي الذي يدفع بالانسان راكضاً ، لا هرباً منها وانما من أجلها ! ..

لماذا « النهاية » كـ « البداية » ؟ ...

اشارة استفهام ، وسبب آخر نركض من أجله من « حيث لا ندري » ، وإلى « حيث لا ندري » ! ! ...

٣ / ١٠ / ١٩٦١

الفن الحديث يمارسه الأصيل ويمارسه المدعي !

قرأت في صحيفتي الدمشقية مقالاً يبين رأي (أحد الناس) في الفن الحديث ، ويعتبره نوعاً من « الأمية في الفن » .. وكاتب المقال لم يذكر اسم هذا (الاحد الناس) لكنه رجا من اصحاب الاختصاص أي من أحد الفنانين الحديثين أن يتفضل بالرد عليه .. ولانني لست « فنانة حديثة » ولم أرسم في حياتي سوى علبة سردين يوم طلبوا مني في الفحص أن أرسم سمكة .. ولأنني مع ذلك أرتاد أكثر المعارض (في غير يوم الافتتاح) ، ولانني أرتعش امام اللوحة الجميلة وتسجد اهدابي نشوة وتقديساً ولانني استطيع التمييز بين اللوحة التي أنفعل بها فأحبها، وبين تلك التي لا أنفعل بها لكنني أعرف انها قد تؤثر في آخرين ، فاحترمها دون حب ، وأقدرها دون ولع .. لهذا كله أحببت أن أدافع عن الفن الحديث دفاع انسانة عادية من مئات الناس الذين يحبون الاصالة في الفن مهما اختلفت مدارسه .. دفاع انسانة غير متحيزة ، لا دفاع أم عن ولدها ، كما سيفعل أي فنان حديث ..

فمن حيث المبدأ ، ان اعجابنا بلوحة من اللوحات يجب الا يطلق بعد تحديد مدرستها ، فاذا كانت كلاسيكية خلعنا لها القبعة احتراماً ، وان كانت حديثة بحثنا عن شتيمة لائقة .. وليس هنالك فن مدرسي قديم نقدره ، وفن حديث نشتمه .. هنالك فن أو لا فن ... والمذهب الحديث في الفن يمارسه الاصيل ويمارسه المدعي كما يحدث لكل فن .. ولكن من طبيعة الفن الحديث أن يعبر بصورة جديدة عن الأشياء ، مما يجعل اللوحة غامضة بالنسبة إلى كثير من الناس ، وان تفاوتت اللوحات في درجة الغموض،وهذا الغموض بالذات هو ما يسهل على المدعين حشر أنفهم بين الاصلاء، حيث يسترون عجزهم عن أداء المعنى بتشويشهم إياه كي يضمنوا لانفسهم اتهام الذين لم يفهموا (ما لا يفهم) بالجهل وعدم القدرة على (التسامي) وفهم اللوحة ..

وهذه الزمرة من الادعياء تسيء إلى الفن أبلغ اساءة ، كما أننا نسيء للفن أيضاً

حينما ننكر مذهباً بأكمله لمجرد ان البعض أساءوا استعماله واستغلاله .. فرد فعلنا هذا خاطىء وبدائي .

ولنرجع إلى نقطة انطلاق الفن الحديث لنرى مدى معقوليته .. الفن الحديث بنظري أسلوب جديد لتصوير الأشياء من خلال عيني إنسان له حالته النفسية المعينة ، وله آراؤه وميوله الخاصة .. انه ليس عيناً حيادية كأية عدسة لأي آلة تصوير ، وهو بالتالي لا ينقل لنا صورة المرئيات (فوتوغرافياً) .. وللفنان بنظري الحق في ذلك .. له الحق في أن يقول ما يود أن يقوله بالطريقة التي يختارها .. وليس لنا الحق في أن نفرض عليه اتخاذ وجهة نظر الكاميرا المجردة من الاعصاب والحساسية ، والمجردة من (تفجرات) نفسية الفنان وعواصفها ، ومن سكينتها وهواجسها .. فلا يدهشني أن يرسم فنان ما وجه حبيبته رمادياً .. فأنا أيضاً حينما أكون كئيبة أرى الوجوه جميعاً بعضاً من رماد هيكل متمرد خنقت الريح جمراته .. وللفنان الحق في أن يرسم بصدق ما يرى ويحس ، على أن يجعل الآخرين يحسون بالانفعال الذي شحن به خطوطه وألوانه .. لأن الفن ليس مجرد احساس وفكر. انه تسجيل لهذه الأحاسيس والافكار بحيث تنتقل بشكل مقبول إلى ضمائر الآخرين .. انه تخليد الاحساس والفكر في حرف أو لون ، وتأدية عملية النقل هذه بصورة تجعلهما جزءاً من التراث الحضاري الإنساني .

ان عملية الخلق الفني باعتقادي ترافقها عملية ثانية لا واعية وهي احساس الفنان بالمسؤولية أمام الآخرين وأمام الزمن .. إن للفنان حريته في أن يرسم كما يشاء ، لكنه أيضاً يؤدي ضريبة هذه الحرية ومدى تحسسه بحدودها ، ويؤدي عقوبة (اللامبالاة به) من اهمال الناس له أو بعضهم .. لكن شهرة العمل الفني ليست دليلاً على قيمته الحقيقية .. ان المحك الوحيد للفنون جميعاً هو الزمن والأجيال ..

لـ « ت . س . اليوت » أشعار غير مفهومة بالنسبة للبعض .. لكن هذا لا يعني انها نوع من (الأمية في التعبير) ... كما ان بعض اشعار (دون) و (هيريك) غير مفهومة ، وهذا لا يعني اننا « اميون في الفهم » ..

لكن هنالك دوماً فرقاً بين المذكرات الشخصية وبين العمل الأدبي المكتوب بشكل مذكرات .. فالمذكرات الشخصية هي أمر يعنيني وحدي وقد اكتبها (بشيفرة) لا يفهمها سواي .. واللوحات المرسومة حسب شيفرة (شخصية ذاتية) ليست فناً .. والفنان حر في أن يرسم حسب هذه الطريقة ولكنه بطبيعة الحال يتحمل مسؤولية عمله ، وقد يعاقب بالنفي من ضمير الناس ، لكن هذه العقوبة لا تعني بالضرورة

انه ليس فناناً أصيلاً ، لأن الزمن وحده هو الناقد الوحيد الذي لا يظلم .. وليس من العدل أبداً أن نهاجم مذهباً بأكمله لمجرد ان البعض أساؤوا استعماله ..

الحل الوحيد الحالي هو أن لا نصفق للوحة التي لم نفهمها دونما خوف من أن نتهم بالجهل — مع اننا قد نكون جاهلين فعلاً — !!.. وان لا نشجع الادعياء على خداعنا ، مع العلم انهم ليسوا أدعياء بالضرورة إذا لم نفهمهم ..

وأنا أرضى عن اللوحة بان توحي لي بانطباع كامل ولو لم افهم جزئياتها .. ان هذا يعني ان انفعالات الفنان المودعة فيها تنبثق فجأة في قلبي دون أي تسلسل منطقي واع تقليدي .. وعلينا أن نعتاد هذا الاسلوب الجديد في تقبل الاشياء ..

فالغموض في الفن رائع على ان لا يستغل لإخفاء عجز الادعياء .. وهذا الاخفاء على كل حال لا يمكن أن يدوم طويلاً ..

والحل الحاسم هو بيد الاجيال المقبلة .. حينما يتولى الزمن إعدام الزبد نهائياً .. يوم لا يبقى مني ومنك غير بقايا ألوان وبعض سطور .

٣٠ / ٥ / ١٩٦١

عقدة الشهادة .. وعقدة المراهقة الفكرية !

المراهقة أسلوب خاص في التفكير يتبناه الإنسان في سن معينة لأسباب نفسية وفسيولوجية مختلفة ، ومن اهم صفات المراهقة أو المراهق إيمانه العميق بانه خير من تحمل البسيطة ومن ستحمل ، وانه أوتي من العلم ما لم يؤته بشر من قبل وأنه يعيش في عالم لا يفهمه .. هو المصيب دائماً والمخطىء غيره .. وهكذا تصبح مناقشة المراهق ضرباً من ضروب المستحيل واقناعه عبثاً يهون أمامه جدل اسلاك الشمس .. ومما يخفف أخطار هذا النوع من المراهقة ، انحسارها بعد سن معينة ، ومعرفة المحيطين بالمراهق حقيقة وضعه ، ومعنى تبجحه ، فلا يؤذيهم أن يصدقوه لانهم لن يفعلوا ، ولا يجرحهم أن يتطاول عليهم ويتكبر لانهم يفهمونه .. إنها مراهقة غير مؤذية لأننا لا نجهلها .. والخطر الواضح ضئيل مهما كان قوياً لأننا نستطيع — ما دمنا قد عرفناه — ان نأخذ حذرنا منه ونقاومه .

لكن « عقدة الشهادة الجامعية » مراهقة فكرية خفية وخطيرة ، جواز مرورها إلى قلوب الجميع ورقة اسمها الشهادة . إنها في بعض الأحيان إهاب الراهب لانصاف المتعلمين ولادعياء الفهم والحكمة .. والثوب الخشن لا يمكن أن يصنع راهباً كما لا ينتقص من جلال الناسك أن يكون بلا ثوب ... وأعني بعقدة الشهادة سوء فهم البعض لها وبالتالي سوء استعمالهم اياها ..

ففي كل عام تقذفنا الجامعة بفئة من المواطنين فيها الغث وفيها السمين ، بعد أن بذلت كل ما بوسعها لصقل مداركهم وتثقيفهم ، ومنحتهم سلاحاً يفتح امامهم أبواب العمل الموصدة ، وأبواب القلوب الموصدة ..

ولكن الكثير منهم يسيء فهم ما قيل له ، ويسيء استعمال ما مُنح ، ويسمح لنفسه بممارسة ضروب شتى من التصرفات الفكرية المراهقة التي تدل على أنه مصاب بعقدة الشهادة ..

الشهادة مسؤولية لا ترف ... لكنها أضحت للأسف كالحرية ... باسمها ترتكب عشرات المجازر الفكرية عندما يكون حاملها قد أعد دراسته بحيث تؤهله لاجتياز امتحان في فترة شهر ، لا ليتمثلها ويختزن منها لنفسه حصيلة ثقافية دائمة .. والنجاح في الامتحان لا يعني ان التلميذ يعرف الكثير بقدر ما يعني انه أضحى قادراً على أن يعرف الكثير — فيما بعد — ! .

الشهادة مسؤولية .. انها ليست مصدر فخر لأنها ليست بحد ذاتها غاية ، إنها وسيلة إلى المعرفة ... تقول بان حاملها وجد من يرشده إلى الاسلوب الذي يثقف به نفسه بحيث يبدع ويصل إلى شيء جديد .. ولكنها لا تنكر على الآخرين الذين لم تسمح لهم الظروف بحملها قدرتهم على تثقيف أنفسهم وعلى الابداع وعلى الاتيان بشيء جديد .. الشهادة (شهادة) على حاملها بانه تعهد أمام هيئة علمية فاضلة بأن يحترم ما تعلمه وأن يرد جميل العلم عليه وأن يواصل العمل من أجله .. انها ليست حقاً لحاملها بأن يمارس على الآخرين أشنع ضروب القرصنة الذهنية ، (والدونكيشوتية) الفكرية وانما هي واجب يحتم عليه أن يواصل البحث كي يصل إلى شيء جديد .. إنها اجازة لصاحبها بانه أهل للتنقيب عن الحقيقة وبأن من واجبه أن يفعل ذلك ، لكنها ليست اعترافاً ولا شبه اعتراف بأنه وصل اليها ..

فشهادة قيادة السيارات مثلاً تعني ان حاملها يستطيع أن يقود سيارته دون أن يسبب أي حادث ينجم عن الجهل ، ولكنها ليست تعهداً بانه لن يسبب أي حادث .. وليست ضمانة بانه لن يهمل أو يتهاون وبالتالي لن يؤذي الآخرين ... إن عقدة الشهادة هذه أخطر مظهر من مظاهر المراهقة الفكرية..وتنتج عنها عشرات الامراض الثقافية اهمها بنظري الدونكيشوتية الفكرية ، عندما ينصب حامل الشهادة من نفسه ديدبانا للنقد والتصنيف أو مركزاً من مراكز دوران الأرض والافلاك ومنها الارستقراطية الفكرية أو (البرجعاجية) التي تؤمن بطبقية فكرية ذات امتيازات خاصة بها ..

ومنها الموضات الفكرية حين ينساق حامل الشهادة انسياقاً أعمى لمن هو أرفع منه شهادة ...

ومنها (التبرج الفكري) حيث لا تتمثل الطالبة ما تدرس ، لأن ما يهمها هو شهادة تضعها في إطار انيق وتعلقها فوق منضدة زينتها بالقرب من علبة الكحل وأحمر الشفاة لتكون أحد متممات أناقتها وأقوى خيوط شبكتها العنكبوتية التي تنتظر سقوط (العريس) فيها ..

وبعد فهذه ليست دعوة إلى نبذ الدراسة والاستغناء عن الشهادة .. إنها ليست تحقيراً لقيمة الشهادة وإنما هي دعوة لفهمها ، ولاحترامها ولمعرفتها ، على انها مسؤولية لا ترف .. وانها بداية طريق لا نهاية ـــ وانها إطلالة على درب الاشراقات وليست إذناً باحتكار شمس المعرفة .. إنها دعوة لتكريم الشهادة بعدم اساءة استعمالها .. ودعوة لانقاذ سمعتها من المجازر الفكرية التي ترتكب باسمها .. وانقاذها لا يكون إلا بفهمنا للفئة التي تُخبىء مباذلها وراء شهادتها .. وبمعاملتنا إياها كما نعامل إخوتنا المراهقين ريثما تنحسر عنهم نوبة الغرور ويؤمنون بأن الشهادة ليست مخطوطاً بورجوازياً جميل الشرائط ولا ترفاً .. إنها مسؤولية وواجب ..

١٦ / ٥ / ١٩٦١

ملكات الجمال .. وسوق الجواري !

لم استطع أبداً ترويض نفسي على التصفيق لمشهد انتخاب ملكة جمال ! ! ...

المنظر يلوح غريباً ، كطقوس قديمة لعادات كريهة ، تبعث من جديد في أصباغ جديدة . وأسماء جديدة ...

عدد من الحسان ، وقد سلطت عليهن الأضواء والنظرات ، يبسمن ويدرن ويعرضن مفاتنهن المرئية — وكأنها وحدها كل ما تملك المرأة من جمال — بينما يصفق جمع ويهتف ..

لا أدري لماذا تهتز المرئيات أمامي وتتبدل الصورة ... ولا يبقى إلا سرب من الحسان في ثياب حريرية ملونة يدور ويتهادى بانكسار في سوق الجواري والناس حوله بين مزايد وبائع ! .. لا شيء سوى دمى ملونة من عالم الحريم . يخنقني الاسى . المرأة تحررت من أن تكون دمية . لماذا هذا الاصرار على أن نكون مجرد دمى ؟ .. أي جمال هو هذا الذل ؟ .

وتلطمني الخواطر فأجرجر رأسي من تحت كومة رمل سئمت دفنه في طياتها .. لاحدق .. وأتألم .. ولاقول ببساطة ابتسامة زنجي متسائلة :

ما معنى أن تفوز المرأة بلقب ملكة جمال ؟ .. هل يزيد ذلك في جمالها ؟ ...

وماذا يعني أن لا تكون ملكة جمال ؟ .. نظرة إعجاب واحترام في عيني إنسان يقدرها كإنسان لا كدمية هي أكبر مهرجان لجمالها .. هي شهادة العالم كله — عالمها — بأنها أجمل ما فيه .

سألت أحد أصدقائي وكان في لجنة تحكيم احدى المباريات : لماذا اخترت هذه الفتاة بالذات ؟ .. قال : « كانت أقل المتسابقات وقاحة ! ! » ..

وثرت عليه .. لكنني كنت أشد ثورة على اللواتي أفسحن له مجالاً ليصفهن بهذه السخرية واللامبالاة بينما كن يتهافتن على مراقصته ، والتقرب اليه طيلة السهرة .

وكررت احدى ملكات الجمال عقب انتخابها الاسطوانة التقليدية إياها : « لم اكن أريد الاشتراك في المسابقة ، لكني وافقت بناء على إلحاح الجمهور » ! .. وكانت تصرفاتها منذ البداية تدل على انها تكذب .. كل ما فيها يصرخ بأنها تكذب .. شعرها المصبوغ المنفوش .. عيناها الطافيتان على مستنقع من كحل .. عقدها المبهرج الذي تكاد تنوء تحت اثقاله . ثياب المهرج التي اختارتها لابراز مواهبها كبقرة حلوب .. كان الجميع يعرفون انها تكذب .. وانها جاءت بهذه (المواهب) كلها تستجدي لقباً .. أي لقب ..

كبرياء الجمال هو أجمل ما في الجميلة .. وإنسانية المرأة ترفض أن تكون موضع تقييم تجاري ... الجمال عالم ضبابي الحدود .. لا يخضع لمقاييس النظرات المتطفلة التي تبحث عن ألهية ، ولا تكفي أضواء النوادي للكشف عنه .. ينفعل به كل إنسان حسب شخصيته وحساسيته وطاقاته النفسية .. من المعقول أن ننتقي أجمل (دمية) بين دمى عديدة ، لأن جمالها لا يتجاوز ذلك السطح الناعم الملون .. ونحن عندما نطبق هذا الاسلوب نفسه على المرأة ، نكون قد افترضنا (ضمناً) انها مجرد دمية ! ! وتكون هي راضية بهذا الاذلال الضمني .

الحسان اللاتي يرضين بالدخول في مسابقة جمال يثرن نفوري وألمي .. لانهن جميلات فعلاً .. واجمل مما رأى أي إنسان في الحفل .. وأجمل من أن يحملن لقباً ورقماً .. وأنبل من أن يُعِدْنَ إلى ذاكرتنا أسراب الحريم في سوق الجواري .. ولأن كبرياء الجمال أبداً ترفض الرخص .

٢٩ / ١٠ / ١٩٦١

المرأة بحاجة إلى حريتها كي تصنع بها فضيلتها !

صديقتي ابتلاها الله بحب الادب وبحب الناس، وكلا الحبين مؤذ هذه الايام .. فأما الأدباء فانهم يسيئون فهم ما تكتب ، وأما الناس فإنهم يؤولون تصرفاتها البسيطة الودود على غير محملها .. وصديقتي كما يقولون متحررة .. اتصل بدارها هاتفياً شاب مجهول وطلب أن يحدثها .. وهذا نص الحديث كما روته لي: هل انت الآنسة فلانة ؟..

ــ أجل ، من حضرتك ؟ ..

ــ ليس من الضروري أن تعرفي اسمي منذ البداية ، لكنني أحب ان ابدي لك اعجابي بك ، واحب ان اسألك بعض الاسئلة ..

ــ آسفة ، ليس لدي وقت اضيعه .

ــ ما هذا الكلام يا آنسة ؟ انت تدعين التحرر ثم تخافين من الحديث معي على الهاتف ؟ ..

ــ التحرر لا يعني أن أتحدث مع شاب لا أعرفه ! ...

ــ لكنك تدعين ان الشاب كالفتاة لماذا لا تعتبريني فتاة وتحدثيني ؟ .

ــ لانني لا أتحدث مع فتاة لا أعرفها أيضاً ... اتراك تعتقد ان التحرر حجة كافية لتبرير أي تصرف سخيف ؟ ...

وهذه ليست مجرد حادثة .. انها نموذج للهوة العميقة التي بدأت تتسع بين فتيات جيلنا وشبانه بسبب المفهوم الخاطىء للتطور الذي يحمله الكثيرون والكثيرات ..

فالفتاة المتحررة اليوم في نظر أكثر الشبان هي مخلوقة عجيبة لاهي بالانثى ولا هي بالرجل ، تقضي الربع الاول من يومها في الفراش والربع الثاني عند الحلاق تسلمه رأسها بينما هي تقرأ الصحف الاجنبية بالشوكة والسكين ، والربع الثالث في الحديث عن أخبار الناس والموضة ، وما تبقى من الربع الرابع (ويقع غالباً بعد منتصف الليل) في احدى السهرات البلهاء حيث ينهش الراقصون لحم الغائبين النيء ..

وهذه الفتاة في الواقع ليست متحررة الا بمفهومها .. انها امرأة دمية ، جارية عصرية الاصباغ من أسواق الحريم .. انها النموذج الحديث للبطالة المترفة المتمثلة في وجود ابله ضيق الابعاد .. وهي ليست متحررة الا من انسانيتها وثيابها واحترامها لنفسها .. هذه الفتاة قد فهمت التحرر بشكل خاطىء وهي مسؤولة عن الهوة الكبيرة بين الشاب والفتاة: لكنها ليست المسؤولة الوحيدة فكثير من الشباب يرفضون محاولة فهم فتاة تملك شخصية جديدة ومفاهيم جديدة لمجرد انها غير مألوفة ..

الفتاة المتحررة هي اليوم واقع يتمشى مع الصحوة الفكرية التي نعيشها .. والتحرر لا يعني تحررها من الاخلاق والثياب والتقاليد بأكملها .. ففي ذلك ارتداد إلى استعمار قانون الغاب البهيمي .. ولكنه يعني تحررها من بعض القوانين الاجتماعية المتوارثة التي لا تنطوي على أي معنى إنساني والتي تشوه شخصيتها كانسانة .. انها ثورة الكرامة عند المرأة المفكرة على المرأة الدمية .. انها دعوة حارة إلى تأكيد الوجود واحترامه بتحريره من الاوهام والغموض والاحساس بالذنب والخروج به إلى شمس الحقيقة والفكر والواقع .. فالسيد الذي ظن ان صديقتي ستسجد لصوته الخشن لمجرد انه صوت رجل ولمجرد انها فتاة (متحررة) كان مخطئاً بشكل يدعو إلى الرثاء ..

الفتاة المتحررة ليست دمية وقحة .

الفتاة المتحررة هي من حيث المبدأ انسانة تعتقد انها تحمل قدراً من (الإنسانية) يساوي القدر الذي يحمله الرجل .. وهي تعترف في الوقت نفسه بانها (انثى) .. وبانه (رجل) .. فالفرق بينهما (كيفي) لا (كمي) .. وكلاهما يتساوى في رتبة الإنسانية .. ويتساويان بالتالي في الحقوق الإنسانية ..

والمرأة المتحررة تعتقد انها كانسانة لها الحق في أن تكون مسؤولة امام نفسها وأمام المجتمع وهي تصر على أن تملك حق المسؤولية .. لأن المسؤولية هي ما يميز الإنسان عن الحيوان ..

والمسؤولية نتيجة من نتائج الحرية ... لذا فان المرأة المتحررة تصر على أن تملك حريتها كاملة وتحمل مسؤوليتها كاملة بعد أن تنال قدراً كافياً من التعليم والثقافة والسن والاتزان ..

وهي لا تصر على حريتها كي تسيء استعمالها ، لكنها بحاجة اليها كي تصنع بها فضيلتها .. فهي تؤمن بان الفضيلة الاجبارية هي عادة لكنها ليست نصراً إنسانياً وليست فضيلة .. فالفتاة التي تمنع من الخروج وحرية التصرف ليست بالطبع فاسقة

لكنها ليست فاصلة .. انها اللاشيء لانها لم تختر شيئاً .. اننا لسنا مسؤولين عن أي عمل نمارسه بالاكراه ، أي اننا لا نستطيع أن نطلق على انفسنا أي حكم أخلاقي حينما لا نملك حريتنا في اختيار ما نفعل .. ان الاختيار هو الشيء الوحيد الذي تنتج عنه المسؤولية ، وهو الشيء الوحيد الذي يعطي الاحكام الاخلاقية قيمتها الحقيقية .

والمرأة المتحررة تعتقد انها بحكم انتسابها (للعرق البشري) قد تخطىء .. ويؤسفها ذلك .. لكنها تظل تصر على ان خطأها ليس أشد شناعة من خطأ الرجل .. وانه ليس هنالك خطيئة (مذكرة) تغتفر وخطيئة (مؤنثة) لا تغتفر ..

والمرأة المتحررة لن تتبنى الأساليب المتوارثة في التفكير لمجرد انها عادة .. لقد قررت تحرير ذهنها من الجمود التقليدي . وممارسة حياتها بعد تفكير كلي عميق متزن لأي شيء تريد أن تفعله .. وهي تصر على رأيها وتحمل مسؤوليته امام نفسها وامام المجتمع .. انها مثلاً ترفض أن تكون لها (تسعيرة) للزواج كما كان لامها وجدتها .. انها ترفض أن تبيع نفسها مباهية فخوراً لقاء ثمن يحدد ويعلن في الاوساط النسائية ولا يقل عن منزل وسيارة وخادمتين و... لأنها تصر على انها صديقة لاجارية مترفة .. وتصر على ان الرجل إنسان ستشاطره وجوده ومصيره لا مائدته فقط .. فالرجل في عرف المرأة الدمية عملة موحدة .. لا فرق بالنسبة اليها بين رجل وآخر .. أي ان أي رجل يمكن أن يكون زوجاً لها إذا استطاع أن يدفع (تسعيرتها) ! ! ... انه عالم مغلق ضبابي تحلم به في اسلوب رخو بليد مراهق . انها تتلصص عليه من ثقب الباب وتذكر حكايا جداتها ثم تنهار مرتعدة خائفة ..

والمرأة المتحررة ترفض هذا الموقف السلبي الذي يشبه موقف علبة (الكونسروة) اللامبالي من المشترين .. والرجل في نظرها انسان قيمته في ذاته . فيما ما يمكن أن يكون لا فيما يمتلك .

النساء المتناثرات بين فقاعات صابون حمامهن المعطر وموائد الحفلات واسواق الغرور لسن متحررات ..

انهن النموذج الجديد لنساء الحريم .. رمين بالحجاب عن وجوههن ونسين حجب الجمود والتفاهة حول قلوبهن وانفسهن .

والرجال الذين يتصرفون بحماقة ووقاحة لمجرد سماعهم بان احدى الفتيات متحررة هم أيضاً حزمة من القضبان التي تندس بين عجلات ثورة مجتمعنا الواعية الخلاقة .. ويوم يختفي النموذجان تمحي الهوة الشاسعة بين شباننا وفتياتنا وتزول نهائياً .. وتبدأ بينهما علاقة انسانية سامية مبدعة .

١٩٦١ / ١٢ / ٣٠

فلنطالب بتحرير الرجل أيضاً !

من جديد اعود إلى جانب من جوانب المشكلة التي أشعلتُها جمرة ولزمت الصمت .. فاذا في اعمدة الصحف لطخات سود بعثَّرها الذين خيل اليهم ان شرري أصاب هشيم بيوتهم .. واذا بهم يشتمون في مواكب المومياء ويفورون وراء اقنعتهم المتخفية .. واذا بي في هياكل حقدهم دمية الساحرة الشريرة التي يجب ان تُرجم لانني قلت لهم بصراحة : المرأة بحاجة إلى حريتها كي تصنع بها فضيلتها .. إن الفضيلة الإجبارية هي تقليد لكنها ليست نصراً انسانياً والفتاة التي تُمنع من حرية التصرف ليست بالطبع فاسقة ولكنها ليست فاضلة لانها لم تختر شيئاً ولأنها لم تكن مسؤولة .. وان الحرية هي الشيء الوحيد الذي يُعطي الأحكام الاخلاقية قيمتها الحقيقية .. وثاروا .. وقالوا : كيف تمنحين المرأة الحرية نفسها التي يملكها الرجل ؟ هل تريدين تهديم المجتمع وتشويهه ؟ .. نخاف على المرأة من الحرية ، من الفسق والفجور !! .

ولا املك إزاء مثل هذا الرد إلا أن اتساءل : هل حرية الرجل أمر قذر إلى الحد الذي يجعله يخشى على أخته منها ؟ .. ألا يشعر بالمسؤولية الاخلاقية في ان يرضى لنفسه باسلوب في الحياة لا يرضاه لاخته ؟ فليطمئنوا .. التحرر الذي نريد لا يعني تحررنا من أخلاقنا وثيابنا وعاداتنا ، ولكنه يعني تحررنا من الآلية في ممارسة قوانين اجتماعية متوارثة لا تنطوي على أي معنى انساني ..

ثاروا لانني قلت لهم بصراحة : إن خطيئة المرأة تعادل خطيئة الرجل .. ليست هنالك خطيئة (مذكرة) تغتفر ، وخطيئة (مؤنثة) لا تغتفر ..

قالوا : إن خطيئة المرأة (تحرقها) ، وخطيئة الرجل لا (تحرقه) .. ونسوا ان عقاب الخطيئة في الكتب السماوية التي يلوحون بها هو واحد للجنسين ..

قلت لهم : المرأة انسانة تحمل قدراً من الانسانية يساوي القدر الذي يحمله الرجل .. وهي تعترف في الوقت نفسه بانها (انثى) وانه (رجل) ..

وقالوا : لا ، الرجل أعظم من المرأة .. فالمرأة هي العرق البشري الذي يخاف الفأرة ويهرب منها !! .. والرجل هو العرق البشري الذي لا يخاف الفأرة ولا يهرب منها وانما يقتلها !! ..

ورغم هذا كله لزمت الصمت ، وصلبت ثورتي في محراب اللامبالاة .. كنت واثقة من أن حتمية التطور نحو الأفضل ستقودنا إلى المستوى الذي أتحدث عنه ، وستكون كفيلة بإزالة المضاعفات والشوائب التي قد تشوه خط انطلاقنا الحالي .. وما كنت لأعود إلى إثارة الموضوع لو لم ألاحظ أن القضية التي أثرتها على مستوى إنساني جدي تكاد تتشعب وتتحول إلى مهزلة سطحية كاريكاتورية المظاهر والصور .. وأن الموضوع الذي يمس مشاكلنا الاجتماعية الحالية مساساً مباشراً يكاد يتحول إلى جدل سفسطائي حول الثياب والتبرج ، ويضيع في أحجية من الاحاجي التي اعتدنا ان نزوقها عمداً لنختفي وراء طلاسمها خوفنا من مواجهة واقعنا وحقيقتنا .. إن تشخيص الداء هو جزء هام من الدواء ، ولا أدري حتام نظل نستر كل جرح متقيح ببسمة ، ونرسم على كل اهتراء ظل عافية ..

انها ليست مشكلة المرأة وحدها في بلادنا .. انها أيضاً مشكلة الرجل .. وهي ليست ناتجة عن سوء استعمال المرأة لحريتها .. ولكنها مشكلة أخلاق عامة .. فلنبدأ بوضع مشاكلنا في إطارها الحقيقي الكبير لنحررها من تسطحها حينما نحولها إلى سلسلة من المقارنات العقيمة والمراشقات بالتهم ..

انها مشكلة جيل يبحث عن مفاهيم اخلاقية جديدة تنبع من ضميره ووجدانه الاخلاقي ومن ادراكه الكامل لنوعية العصر الذي يعيش فيه ويعجب به ، ومع ذلك تتمشى قدر الإمكان مع ماضيه وتاريخه .. إنها مشكلة جيل أضحى يدرك جيداً أن التقاليد والأديان ليست حلاً وليست درباً للخلاص إذا لم نتمثلها ونستوعبها بقناعة واعية ، واذا لم نمارس تعاليمها بفهم عصري لجوهرها لا بآلية راضخة ..

إنها مشكلة الرجل أيضاً ! ...

وهي تتجلى في لقطات اجتماعية كثيرة يجمع بينها ظاهرة واحدة هي عدم التوازن والانسجام والوقوع في التناقض أمام مواقف اخلاقية متشابهة . فالشاب الشرقي الذي يسافر إلى أوربا مثلاً يعود بعد ان ينهي سني دراسته ممتلئاً حقداً على الفتاة الشرقية .. لكنه حقد معقد غامض يرهق اعصابه ويوقعه في سلسلة من التناقضات ..

ان الفتاة الاوربية تعجبه لانها انسانة .. يحس انها انسانة يحترمها رغم انها تعيش

حياة تخالف كل ما كان قد تعلمه في وطنه عن الفضيلة .. انها بطريقة ما فاضلة . يحس انها كذلك .. يخيل اليه ان فضيلتها تنبع من جرأتها على ان تكون صادقة حتى في احقر لحظاتها .. وهو كانسان مطلق يحب الصدق والحقيقة حتى ولو كانتا على شفتي غانية ..

ويعود إلى بلاده ويرى أن ابنة الجيران التي كانت اول من احب ليست سوى دمية تتقن دور العنكبوت الذي يبحث عن صيد سمين.. انه لا يكاد يقول لها: صباح الخير .. حتى تسأله : متى تخطبني ؟ .. وهذا ليس ذنبها ما دام لا يسمح لها الا بان تكون كذلك .. وقد يرى هذا الشاب فتاة شرقية اخرى متحررة ومن القليلات اللواتي تجرأن على ان يكن كذلك وفهمن في الوقت نفسه معنى التحرر على حقيقته .. ويشم في عبير شعرها رائحة الصدق والحقيقة والتراب التي سبق ان أعجب بها في اوربا .. لكن المجتمع في بلاده ينظر إلى مثل هذه الفتاة بريبة..ويهوي في دوامة من المتناقضات . يريدها ، تلك المرأة الحقيقية الانسانة ، تلك التي تحب الرجل حقاً لانها تختاره ، ولانها لن تكون جاريته .. لكنه يخافها .. علموه منذ طفولته ان كل انثى هي زانية اذا لم تمنع من ان تكون كذلك !! ..

وتكون النتيجة غالباً ان يكون اول سؤال يوجهه إلى خطيبته فيما بعد : هل قبلك احد قبلي !! ... وتجيبه الام بان لا .. ويتم الزواج .. وترضى (الانا) الاجتماعية في ذاته .. وتظل (الانا) المفردة الحرةوحيدة متألمة تحلم بانسانة حقيقية تساويه كبرياء وقوة وصدقاً وجرأة ...

وهذا مثال بسيط على ازدواج الشخصية الذي نعيشه ، والذي يقودنا إلى التناقض وإلى ممارسة حياة سطحية راكدة لا تهز جذور عقلنا المتمدن ..

ومثال آخر ... شاب مهندس عاد من اوروبا منذ اعوام وقرر ان يتزوج .. وخطب له اهله فتاة وجدتها (الانا) الاجتماعية رائعة .. فوافق ... ان مسحة من الكآبة تترسب في ملامحه كأنه مقبل على مأتم .. يقول انه سيتزوج هذه الفتاة من اجل الزواج كضرورة .. وانه كان يتمنى لو وجدت فكرة الزواج في نفسه بعد ان لقي الفتاة التي تبعثها فيه ..

ومشكلته هي انه كان يرى في كل مكان مظاهر التحرر وقشوره دون حقيقته .. انه يرى اكثر فتيات دمشق عاريات الصدور والنحور ، وهذا كله غير محرم عليه .. لكنه لم يحدث فتاة منهن لان هذا مستحيل من خلال الوسائل العادية ..

ورغم شكواه لا املك الا ان اتساءل : لو رضيت فتاة منهن بالحديث معه

ومصادقته ، واعجب بها بعد ذلك ، تراه يرضى حقاً بالزواج منها ؟.

انه مسؤول ... وتقع بقية المسؤولية على المجتمع باكمله .. على اخذنا القشور عن الحضارة الغربية وتقليدنا للمظاهر ومحاكاتنا للحركات دون فهم لمدلولاتها وجوهرها .. واعتقد ان على الام التي تأخذ فتاتها إلى حفل راقص في ثوب مكشوف الصدر والظهر - على مثل هذه الام الا تفعل ذلك لمجرد ان تعرض فتاتها في ابهى حلة لأغنى المشترين ، وان عليها ايضاً ان تسمح لها بالحديث المتزن مع شاب متزن ..

ولا ادري لماذا اعتاد مجتمعنا ان يرى الشرقية تقلد الغربية في ملبسها ومظهرها وعطورها ، لكنه ما زال ينظر بريبة إلى تلك التي تريد ان تعيش حقيقة جذور هذه الحضارة مع حقيقة اخرى هي ادراكها لماضيها كامرأة عربية ، ورغبتها التامة في ان تشارك الرجل نضاله وكبرياءه واعتداده بانسانيته ، تلك المشاركة التي يحبها ويخشاها بتأثير المجتمع عليه ..

ومظاهر اخرى من تناقضاتنا المؤلمة قد امتدت إلى اسمى مفاهيمنا ..

لنأخذ مفهوم الاخلاص مثلاً ..

لقد تعلمت المرأة الشرقية ان تمارس فضيلتها مجبرة لانها لا تملك حريتها .. وهي بعد ان تتزوج تطبق على زوجها هذا المفهوم الخاطىء .. تفرض عليه ان يكون مخلصاً بشكل سطحي مبتذل .. لا يهمها ان يحلم بسواها ما دام يشاركها مائدتها وسهرتها .. ان الاخلاص في نظرها قانون مادي تفرضه عليه وعلى اوقات ذهابه وتحركاته وسكناته. وهو يستاء لذلك ولا يدرك انها تطبق ما علمها اياه رجل آخر هو ابوها .. واخوها .. وانه ، قبل ان يطالبها بان تكون انسانة عليه ان يسمح لها بأن تكون انسانة ! ! .. وهذا في الواقع مفهوم مضحك للاخلاص سائد في بلادنا .. الاخلاص ليس بنداً من بنود الزواج قائماً بذاته .. لكنه نتيجة .. نتيجة عفوية لاحساس حقيقي بالارتواء الفكري والجسدي .. والمحبة الحقيقية تولد ذاتياً اخلاصاً حقيقياً .. اخلاصاً ينبع عن لا مبالاة عفوية بوجود الاخريات او – بعدم وجودهن ، لاعن تجنب اضطراري زائف .. وهذا الاخلاص المكره المتبادل في اكثر الزيجات عديم القيمة .. انه كالفضيلة الاجبارية له مدلوله الاجتماعي دون اي مدلول اخلاقي انساني مطلق ..

وهذا غيض من فيض يدل على الفوضى الاخلاقية التي نعيشها والتأرجح المضني بين احكامنا الاخلاقية الصميمة والاحكام الاجتماعية المتوارثة ..

واذا واجهنا واقعنا ، اكتشفنا ان عالم الحريم الذي ينادون به من جديد لم يعد

حلا .. ولم يعد من الممكن ان نفقأ عيوننا التي عرفت طعم النور مرة .. الحل الوحيد هو ان نسير في الدرب الذي تحتمه علينا ظروفنا وحاجات وطننا ومجتمعنا واهدافنا كجزء من العالم الذي وصلت بعض دوله إلى القمر ..

الحل الوحيد هو ان نواجه مشاكلنا هذه بصراحة وصدق اولا ، ثم نتبنى فكرة التحرر بمعناها الحقيقي العميق .. ان من اجزاء الحل ما سبق ان طالبت به ... تحرير المرأة لتكون (انسانة حررت ذهنها من الجمود التقليدي وصممت على ممارسة حياتها بعد تفكير كلي عميق متزن لاي شيء تريد ان تفعله وتحمل مسؤوليته امام نفسها كانسانة وامام المجتمع كجزء منه) .. واليوم ... اطالب بتحرير الرجل !! ....

اطالب الرجل بان يحرر نفسه وذلك بأن يمارس حريته الحقيقية .. واعني بها احساسه بمسؤوليته تجاه المجتمع في ان يكون انساناً حقيقياً يواجه نفسه بصدق ويحررها من تناقضاتها ومخاوفها من مجابهة الواقع .. وفي ان يعيد النظر في قضية المرأة ، ذلك (التابو) الشرقي الحبيب البغيض ، المقدس الدنس ..

ان في الدعوة إلى فهم حقيقة التحرر نزوعا نحو اخلاقية جديدة تنبع من كبرياء الانسان قبل ان تنبع من خوفه من الآخرين ...

فالمرأة بالمفاهيم السائدة تكون قد منحت نفسها للرجـــل اذا استطاع ان يحصل على جسدها .. وهذا مفهوم ناقص للعطاء ومهين في الوقت نفسه .. ان المرأة لا تمنح نفسها فعلا الا حينما تبسط للرجل كنوزها كانسانة ايضاً لا كأنثى فقط .. حينما تمنح الرجل صدقها وحقيقتها وتسفح لعينيه كنوز حياتها الفكرية سماء صريحة من ليالي نيسان .. وليس في هذا الكلام اباحية ...

فالخاطئة بالعرف الاجتماعي هي المرأة التي تبيع جسدها لقاء المال .. والخاطئة بعرف العقل الفرد المتحرر هي أية امرأة مهما كانت صفتها الاجتماعية تبيع لحظة « صدق فكري» من اجل اي مغنم .. وهي التي قد تشارك رجلا فنجانا من القهـــوة (وسيكارة) ورأياً من الآراء بينما هي تخدعه لغاية في نفسها ...

والخيانة بهذا المفهوم ايضاً ليست في ان يحب الرجل امرأة غير زوجته ولكنها في ان يخفي هذه الحقيقة عنهـــا .. انه قد يهينها كانثى اذا اعجب بسواها ، ولكنه ان خدعها ، اهانها كانسانة واستهان بصداقتها ، وبعهدهما الفكري على حياة مشتركة .

انها ليست دعوة للاباحية ، ولكنها دعوة لنبذ الاباحية السرية ...

دعوة لان نظهر على حقيقتنا في كل لحظة لنقول : هذا نحن .. هذه مشاكلنا

فتعالوا نبحث لها عن حل .. ودعوة إلى السمو بمشاكلنا عن اعتبار الجسد الأساس الأوحد لها ..

ان مداواة الدمامل المتقيحة لا يكون عن طريق دهنها ومعالجتها سطحياً ولكن عن طريق معرفة اسبابها الداخلية ثم مداواة هذه الاسباب .. وهكذا تزول هذه الدمامل التي لم تكن سوى نتائج مرئية للداء الخفي .

انها ليست دعوة لهدم الاسرة .. لكنها دعوة لدعم الاسرة ببنائها على اسس حقيقية بعد نبذ التورية الاجتماعية ، وعادة الدوران حول المشكلة دون التجرؤ على كشف القناع عن حقيقة بشاعتها ..

ان اشياء كثيرة ورائعة يمكن ان توجد بين المرأة والرجل دون ان يكون لها اية علاقة بالجنس والجسد .. لكن الرجل الذي يعيش في مجتمع لا يقدم له من المرأة سوى ظل جسد عار ، لا يمكننا ان نلومه اذا ظن ان المرأة ليست الا جسداً .. لكننا نلومه اذا لم يسمح لها الا بان تكون كذلك ..

وهذا جزء مما اردت ان اقوله للذين سطحوا المشكلة إلى حد جعلوا فيه الفأرة مقياساً للفرق بين الرجل والمرأة ودليلا يدعم الاخطاء الفادحة في حياتنا الاجتماعية المتناقضة الحالية .. وبعد .. فلنصل .. من اجل انسانيتنا الضائعة بين تميع تفكير البعض وبين تحجر تفكير البعض الآخر .. ولنطالب بتحرير الرجل أيضاً !! ...

إقــرار :

محتويات هذا الكتاب نشرت في المجلات والصحف التالية (وفقاً للترتيب الأبجدي) :

مجلة « الأسبوع العربي » اللبنانية ،

مجلة « الحوادث » اللبنانية ،

مجلة « فلسطين المحتلة » .

مجلة « الهلال » المصرية .

جريدة « الوحدة » السورية .

الفهـرس

منشورات غادة السمان

الأعمال غير الكاملــة

زمن الحب الآخر (قصص) - (الطبعة السادسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الرابعة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الخامسة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الخامسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثالثة)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الطبعة الأولى)



هذا هو الكتاب العاشر في سلسلة «الأعمال غير الكاملة» لـ «غادة السمان»، وتضم السلسلة كتابات لم يسبق نشرها في كُتبها.

وقد صدر من هذه السلسلة: «زمن الحب الآخر»، «الجسد حقيبة سفر»، «السباحة في بحيرة الشيطان»، «ختم الذاكرة بالشمع الأحمر»، «اعتقال لحظة هاربة»، «مواطنة متلبسة بالقراءة»، «الرغيف ينبض كالقلب»، «ع. غ. تتفرس»، «صفارة إنذار داخل رأسي»، «كتابات غير ملتزمة»، «الحب من الوريد إلى الوريد»، «القبيلة تستجوب القتيلة»، «البحر يحاكم سمكة» و«تسكّع داخل جرح».

منشورات غادة السمان